
أسماء وأحداث
1934-1905

الدكتور خليل سعاده

أسماء وأحداث

1905-1934

المجلد الثالث

إعداد وتقديم

سليم مجاعص و بدر الحاج



الدكتور خليل سعاده

أسماء وأحداث 1905-1934

المجلّد الثالث

إعداد وتقديم: سليم مجاعص وبدر الحاج

مؤسسة سعاده للثقافة

بناية رسامني، الطابق الرابع، شارع الحمرا، رأس بيروت، صندوق بريد: 113-5557 بيروت – لبنان.

هاتف: 753363 (1-00961) - فاكس: 753364 (1-00961)

البريد الإلكتروني: saadehcf@idm.net.lb - الموقع الإلكتروني: www.saadehcf.org

فايس بوك: www.facebook.com/saadehcf - تويتر: www.twitter.com/saadehcf

الطبعة الأولى، بيروت 2015

ISBN: 978-9953-419-68-8

المحتويات

مقدمة الناشر

«أسماء وأحداث» (1905–1934) عنوان اخترناه لمجموعة من الكتابات نشر معظمها الدكتور سعاده على صفحات «الأهرام» في القاهرة وجريدة «الجريدة» التي أصدرها في سان باولو، بالإضافة إلى مجلة «المجلة» التي أصدرها في كل من بونس أيرس وسان باولو، وأيضاً جريدة «الرابطة» لسان حال الرابطة الوطنية السورية في البرازيل والتي ترأس تحريرها حتى وفاته في 10 نيسان سنة 1934.

اختيارنا هذه الكتابات يعود إلى كونها تشكل موضوعاً «واحداً» يتضمن آراء الدكتور سعاده في أسماء وشخصيات عرف بعضها عن كثب، أو تعليقات على مسيرة بعض الشخصيات التي لعبت دوراً أساسياً في الحقبة التي عاش فيها سواء على الصعيد السياسي، أو العسكري، أو العلمي، أو الفكري.

يمكننا القول إن هذه المقالات هي عبارة عن مزيج من الذكريات الشخصية والآراء السياسية والعلمية. ومن خلالها تنكشف أمامنا حقائق كانت مجهولة. ومما لا شك فيه أنه لو انكب الدكتور سعاده على كتابة مذكراته الشخصية، لكانت على درجة قصوى من الأهمية من حيث إضاءتها مسار الحركة الاستقلالية التي قادها وتكشف الكثير من خفايا السياسة التي نفذتها القوى الاستعمارية في بلادنا مستعينة بأبطال العبودية على حد تعبيره.

إتصل الدكتور سعاده عبر مركزه العلمي والمهني ونشاطه الثقافي والسياسي بأبرز الشخصيات السياسية والاجتماعية والفكرية في سورية ومصر فصادقهم وصادقوه، وخبرهم وعرفوه، وشاركهم في تطلعاتهم واهتماماتهم ومشاريعهم للنهوض بالبلاد والمجتمع. فقد عرف الدكتور سعاده وصادق جرجي زيدان وجبر ضومط وهو بعد طالب في الكلية السورية في بيروت والتقى بهما مجدداً في القاهرة. وتعاون مع إبراهيم اليازجي

في تحرير مجلة «الطبيب» في بيروت، وتوثقت علاقته مع أفراد الأسرة اليازجية ثم التقاهم مجدداً في القاهرة، واستمر الود والقرابة المعنوية وإن لم يعد الدكتور سعاده إلى الزمالة الأدبية بالتحرير في مجلة اليازجي في مصر.

وتعرّف في القاهرة إلى قيدوم التحرر والتقدم شبلي الشميّل، وكان أفضل من سبر مراميه وأحاط بفكر زميله. ومن خلال نشاطه السياسي إلتقى بالزهراوي وحقي العظم وداود عمون وخيرالله خيرالله وغيرهم. وكتب في الدوريات السورية في مصر، فصادق داود بركات (الأهرام) وسليم سركيس (مجلة سركيس) ورشيد رضا صاحب «المنار» والأدباء المساهمين في تحرير مجلة «الزهور». ولما أخذ هؤلاء يرحلون تباعاً وضع الدكتور سعاده على أضرحتهم زهوراً فكرية ضمّنها مشاعر نبيلة وأضاء على جوانب هامة من حياتهم ونتاجهم. وقد اتبع في هذه الزهور الفكرية قاعدة ديمومة الخير والتشديد على النواحي السامية في حياة خلانه وأصدقائه. وشذ الدكتور سعاده عن قاعدة الاختصار في حالة واحدة عندما توسع في تقرير ووصف حياة وفكر زميله في الطبابة الدكتور الشميّل، فجاءت مقالته تلك كأفضل ما كتب عن الشميل غداة رحيله.

لكن هناك فئة من السوريين لم تحظ بزهور من قلم الدكتور سعاده بل وجه نحوها صواعق سخط ونقد بليغ. هي فئة من لقبهم بأبطال العبودية لتواطؤهم مع المحتل وخيانتهم لمصالح الأمة، ومن بين هؤلاء حقي العظم الذي خنع أمام غورو، وداود عمون الذي تعبد للحكام الفرنسيين، وشكري غانم الذي حلم بزرع الراية الفرنسية على قمم كل الجبال السورية.

أمضى الدكتور سعاده أكثر من عقد من السنين في الديار المصرية واتصل بأعيان مصر وقادة السياسة والأدب فيها. وعندما سارت مصر في طريق استقلالها أرّخ للحركة الاستقلالية في سلسلة مقالات استعاد فيها ما عرفه عن رجال مصر وأعمالهم. وكان الدكتور سعاده يعرف العديد منهم معرفة دقيقة فهو كان طبيب عرابي باشا مثلاً، وصادق بعضاً من قادة الحركة القومية المصرية.

لقد قمنا بتوزيع الكتابات التي يضمها هذا المجلد إلى الأبواب التالية: أعلام التنوير، أبطال العبودية، أعلام وشخصيات مصرية، أعلام وشخصيات شرقية، أعلام وشخصيات

غربية، وكان الختام بقطعتين أدبيتين بعنوان «ثاكل أسيف» كتبهما في وداع شخصين لعبا دوراً أساسياً في حياته هما والدته وشقيقه.

للأسف فإن بعض المقالات المنشورة في هذا المجلد قد تعرضت مصادرها الأصلية للتلف، لذلك وضعنا الإشارة (...) في سياق المقال.

يلاحظ القارئ أن قسماً لا بأس به من هذا المجلد يحتوي على كتابات عن قادة عسكريين وسياسيين ومفكرين أجانب لعبوا دوراً أساسياً في مجرى التاريخ الإنساني. وكانت تعليقات الدكتور سعاده على تجارب هؤلاء ترتبط دائماً بمسألة كيفية الاستفادة من تلك التجارب بهدف النهوض ببلاده التي جُمدت في البراد العثماني لقرون ثم دخلت في نفق الغرب وتقسيماته وجرائمه.

كان الدكتور سعاده مثقفاً واسع الأفاق يهتم بشؤون العلم والثقافة في العالم، فنراه يرصد تقدم العلوم الطبيعية والأفكار السياسية منذ صباه. فهو قد اهتم بالداروينية طالباً في الكلية السورية، واعتمد مبادئها في فهم الأحوال الحياتية وطبّقها على علم اللغات أولاً كما في مقدمة قاموسه الموسوعي، ثم لاحقاً في تحليل أحوال الاجتماع الإنساني وشروط التقدم العمراني كما في مقالاته الرئيسية على صفحات «المجلة». ومن التيارات الفكرية السياسية الغربية التي اعتنى الدكتور سعاده بتتبعها ودراستها الإشتراكية بأوجهها الماركسية. كما تابع الثورة الإشتراكية الروسية في انتصاراتها وتعثراتها مؤرخاً محللاً، مستخرجاً دروساً هامة في السياسة والاجتماع.

إن ما يجمع بين مقالات هذا الجزء من أعمال الدكتور سعاده هو وحدة النظرة الراقية إلى الشخصيات والقضايا عند مثقف منفتح على الحضارة الإنسانية في كل تجلياتها، واثق بدور شعبه ودوره هو في ترقية الثقافة الإنسانية. في هذه الصفحات نجد فكراً نيراً، وتطلعات سامية في تقييم الأشخاص والأفكار تجاه مثال أعلى يرتقي دوماً بارتقاء فكر وعلم صاحبه وخبراته الإنسانية والثقافية.

آذار 2015

سليم مجاعص وبدر الحاج

أعلام التنوير

نم بسلام[1]

سلام على اليازجي أمير الأقلام، سلام على اليازجي ملك الكلام، سلام عليك يا أمير البلاغة والبلغاء، سلام عليك يا ملك الأدب والأدباء.

أحييك يا شقيق الروح في مماتك، كما كنت أحييك في حياتك لأن مثلك متى مات بعث حياً مر الدهور، وبقي خالداً ما كرّت العصور. من لي ببنان كبنانك وبيان كبيانك؟ ليت لي في هذا الموقف الرهيب تلك البلاغة التي أعجزت البلغاء والفصاحة التي أخرست الفصحاء، لوح إليّ من سماء خيالك سحراً حلالاً واسقني من كوثر بيانك ماء زلالاً واحلل عقدة من لساني تجر عليه البلاغة سلسبيلاً وانفخ من روحك في بياني يهب على الأرواح نسيماً عليلاً.

لوح إليَّ من سمائك شعراً منثوراً إذا رصعت به الطروس كان درراً وأنزل عليّ من جناتك قولاً مأثوراً إذا موّهت به السطور كان نضاراً. أوح إليّ بيانك حتى إذا غصت في بحر البلاغة عدت منه بدر ومرجان، وإذا نظمت لك رثاء رددت صداه الطيور على الأفنان. وإذا دخلت حديقة الأدب عدت ومعي من كل فاكهة زوجان، وإذا سجعت ردد سجعي البلابل على الأغصان.

قل ما أنت قائل، فما على أمير الكلام نهي ولا أمر، والقِ عصاك بيننا نتلقفها إنها لهي السحر.

إنك صامت كالدهر، رهيب كالقدر، غامض كالأبدية، وعلى وجهك مسدول لثام مسطور عليه ما سطر على لثام الآلهة إيزيس: «ليس لبشرٍ أن يحسر لثام الإبهام عن محياي».

ألا تحسر هذا اللثام لحظة لأرى ذلك الوجه الصبوح وأقرأ ما سطرت عليه يد المنون؟ ألا تحسر هذا اللثام لأرى ما وراءه ابتسامة مرّة أم عبوسة رهيبة؟ لِمَ لا تجيب ولِمَ لا تزال

1 [التأبين الذي ألقاه الدكتور سعاده على نعش صديقه ورصيفه في التحرير ابراهيم اليازجي (1847-1906) فقيد العربية والشرق، في محطة سكة حديد بور سعيد خلال حفل نقل جثمان اليازجي إلى لبنان].

صامتاً كالدهر رهيباً كالقدر غامضاً كالأبدية؟ إنك لمصيب في صمتك لأن الذين لم يقرأوا وجهك في الحياة لا يحق لهم أن يقرأوه في الممات.

لقد اجتزت وادي ظلال الموت، فهل كان عليك أشد مشقة من وادي ظلال الحياة؟ أتعود لو خيّرت إلى الشرق الذي يُقتل فيه الذكاء ويُقضى على العبقرية ويُجحد الفضل ويضمحل النبوغ وتذبل المدارك العقلية السامية ذبول الأزهار التي لفحها الحرّ؟ أتعود إلى الشرق الذي يفترس نوابغه كما تفترس الغيلان أولادها؟ أتعود إلى الشرق الذي لا قيمة فيه للعلم والعلماء والأدب والأدباء والفضل والفضلاء؟ أتعود إلى الشرق الذي يدفن رجاله في زوايا الإهمال كما يدفن الجاهل لآلئه في زوايا النسيان؟ إنك، وأيم الحق، لأسعد حالاً في قبرك منك في حياتك.

لقد اجتزت فضاء الكون وتنقلت بين شموسه وسياراته وأقماره، فهلاّ كشفت لنا عن مخبآته العجيبة ونواميسه الغامضة ونشوء القوة والمادة وسر الأبدية والأزلية؟ ألا تبوح لنا بشيء من هذه الأسرار المحجبة التي صرف البشر حياتهم عبثاً بالتحديق فيها وقد قصّروا عن الإحاطة بها كما يقصر الطفل الرضيع عن الإحاطة بشواطئ الأوقيانوس؟ أراك لا تجيب ولن تجيب وستبقى إلى الأبد صامتاً كالدهر، رهيباً كالقدر، غامضاً كالأبدية وعلى وجهك ذلك اللثام الأبدي المسطور عليه «ليس لبشر أن يحسر لثام الإبهام عن محياي» ـ إذاً لا أزعجك بالأسئلة، بل أودعك الوداع الأخير:

أيها الراحل عنا وفي كل قلب من قلوبنا لك رسم، وفي كل فؤاد من أفئدتنا لك رمس، نم بسلام فالقبر أصلح لقدرك من الحياة في شرق لا يعرف أقدار الرجال، والرقاد أولى بك بعد يقظة نقضت بالكفاح والنضال ـ نم بسلام، فسيعرف الشرق قدرك متى عرف لنفسه قدراً، وسيخلد لك ذكراً متى استعاد لنفسه ذكراً ـ نم بسلام، فقد جاهدت جهاد الأبطال وكان نكراننا جميلك وصمة عار تلصقها بنا سائر الأجيال، وقفت على العربية حياتك وصرفت في سبيلها شبابك، فما رعينا لك عهداً ولا ذكرنا لك وداً، فعثرت لأنك أنهضتها وشقيت لأنك أسعدتها وسقمت لأنك أبرأتها ومت لأنك أحييتها ـ نم بسلام فإن وسعك

لحد صغير، فقد وسع من قبلك قسّاً وسحبان، وإن واراك رمس حقير، فقد وارى من قبلك أميراً وسلطان.

وفيناك حقك ميتاً ولو أنصفنا لوفيناكه حياً، والتففنا على دوحة علمك ذابلة ولو أنصفنا لالتففنا عليها يانعةً، ولكن لك أسوة بنوابغ الأرض الذين ماتوا أحياء وعاشوا أمواتاً فسيخلد لك التاريخ ذكراً لا يمحوه كرور الأيام وسيقيم لك صرح مجد لا تقوى عليه الأعوام.

نم بسلام، فما هو إلا رقاد سوف تتجلى لنا بعده بمجد باذخ وإن هي إلا ضجعة سوف تبدو لنا بعدها بعز شامخ ـ بلل الله ضريحك بغيثه الهتان وأنبت عليه ورداً ونسريناً وريحان.

رحمة الله عليك مداد حسناتك وعداد كلماتك!

ذكرى الدكتور شميّل

قضى صديقي ورصيفي العلاّمة الدكتور شميّل[2] أحد كبار علماء الشرقيين وقادة الرأي العام فيهم وركن من أكبر أركان النهضة العصرية في القطرين الشقيقين مصر وسوريا.

مات منا رجل والرجال قليل! مات منا سيد وما نحن من الأولى إذا مات منهم سيد قام سيد ـ قضى رجل العلم والفضل وأخو الشهامة والنبل ـ هوى طود علم راسخ وخبا كوكب فضل باذخ ـ رحل عنا إلى ديار الأبدية وقد سار إليها بقدم الجبار وقلب الشجاع ورصانة الحكيم.

معرفتي بالفقيد

لم أعرف الفقيد إلا بعد إقامتي في القطر المصري، وكنت قد عرفته سماعاً في بيروت وخصوصاً بعد أن دارت مساجلة علمية بينه وبين رصيفي الدكتور اسكندر البارودي كان مدارها المذهب المادي الذي كان الفقيد من أشد الناس تمسكاً به. أما البارودي فرغماً من المعاضدة التي نالها في بيروت من أصدقائه، ورغماً من الكتب التي كان يستعين بها في الرد على خصمه، فقد غُلب على أمره وكان الفوز في تلك المناقشة لشميّل بلا مشاحة.

كنت وقتئذٍ مغرماً بهذه الأبحاث الفلسفية ولا أزال كذلك حتى الآن، فعلت منزلة شميّل عندي وخصوصاً بعد ان ترجم شرح بخنر على داروين.

2 [شبلي الشميّل (1853-1917) من أبرز المفكرين السوريين الذين انتقلوا إلى مصر، درس في الجامعة الأميركية في بيروت وتخصص في الطب الذي مارسه في مدينة طنطا أولاً قبل أن ينتقل إلى القاهرة سنة 1885 حيث أصدر مجلة «الشفاء» ما بين 1886-1891، كما أصدر مع سلامة موسى «المستقبل» سنة 1914. اشتهر بنقله إلى العربية نظرية التطور لداروين وتعليقاته الخاصة عليها. كان من أعلام النهضة الفكرية. تعرض للكثير من الانتقادات بسبب جرأته وأفكاره الثورية].

ولما أتيت القاهرة توجهت ورصيفي المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي لزيارة شميّل، فكان غائباً عن المنزل ولم ألتقِ به إلا بعد أشهر عديدة وذلك في السبلندد بار وترجمتها «القهوة البديعة» التي سيجيء ذكرها، ولكننا كنا نجتمع دون أن يكلم أحدنا الآخر. أما أنا فكنت أعرف من هو أما هو فلا أدري إذا كان جهلني أو تجاهلني، ولكنني عاملته كأنني لا أعرفه أو لا أعرف شيئاً عنه إلى أن اتفق وجودي وإياه ومعنا ثالث صديق لنا كلينا، فالتفت وقال أظن لا يعرف أحدكما الآخر، ثم عرفني به فسألني الفقيد «أأنت الدكتور سعاده رصيف اليازجي؟» فقلت «نعم». فأجاب «سمعت بك من بضع سنين وكنت أظنك كبير السن». فقلت له «الفرق بيني وبينك أنك نبغت عن كبر أما أنا فنبوغي كان عن صغر»، فضحك حتى قهقه، ثم قال «ولمَ لم تزرني؟» فقلت «زرتك والشيخ ابراهيم اليازجي وتركت بطاقتي في بيتك فلم ترد لي الزيارة». فأجاب أنه لم ير البطاقة، وزارني في اليوم التالي ومنذ ذلك الحين أصبحنا صديقين حميمين.

أوصاف الفقيد وأخلاقه

كان الفقيد ربعة القامة مع ميل إلى القصر، ممتلئ الجسم، صفراوي المزاج، عصبي، رحيب الصدر، كريم الأخلاق، لين العريكة، أنيس المعشر. ولكنه كان متى أحرج شديد الغضب، جهوري الصوت، تدفعه الحدة إلى الأصوات العالية النبرات وضرب المائدة بيده. وكثيراً ما كنت أرى شميّل عند وصولي إلى السبلندد بار في نوبة من هذه النوب، فكنت أقول «هوذا صديقنا شميّل حانق على البشرية» لأنه لم يكن يغضب هذا الغضب إلا متى كان هنالك موضوع حيوي يأتي فيه على جور الحكومات أو خنوع الرعايا أو ظلم القوانين. وكنت أسر بهذه النوبات التي كنت أسميها «نوبات عمرانية» لأن روح الفقيد الشريفة وأخلاقه السامية كانت تتجلى للسامع من خلال كلامه كما تتجلى الشمس من خلال عاصفة.

كان الشميّل من أرحب الناس صدراً، فلم أره قط حانقاً على أحد أو محتدماً في الجدل بسبب شؤون خصوصية أو مناقشات شخصية، ولم يكن يترفع عن مناقشة أحد في الجرائد

حتى صبيان المكاتب متى رأى في المناقشة فائدة أو لمناقشه وجهاً يستحق الرد. ومع أنه كان من القائلين بالمذهب المادي على إطلاقه دون قيد أو شرط، فهو لم يكن من الحانقين على الأديان ورؤسائها ولم أره قط يحاول زعزعة إيمان رجل بدينه لمجرد زعزعة الإيمان إلا إذا اضطره الجدل إلى ذلك. وكان يحترم المتدينين متى كان تدينهم عن يقين راسخ، بل كان أحياناً يطالع بعض الشروح الدينية وفي عدادها شرح القرآن.

ومن أوصاف الفقيد أنه كان يكره التقيد مهما كان، فلم يكن يميل إلى الانخراط في جمعية ما ولو كانت وفاقاً لمبادئه ومراميه حتى لا يكون مقيداً بقوانينها، بل كان يود أن يبقى جسده مطلقاً بعد موته وكثيراً ما كان يقول لي أتمنى لو كان في الإمكان وضع جثماني بعد الموت في منطاد وإطلاقه إلى الجو حتى يبقى سايحاً فيه إلى أن يضمحل. ولذلك لم ينخرط في سلك جمعية سياسية، ومع أن الاجتماع الأول لحزب اللامركزية كان في منزله، فهو لم يكن في عداد أعضائه، بل كان مناصراً له مع بقائه هو حراً.

كتب إليه مرة أحد أصدقائه من طنطا في القطر المصري يسأله أن يدخله في الجمعية الماسونية ظناً منه أن الشميّل كان ماسونياً، والحقيقة أن الشميّل لم يكن فقط غير ماسوني، بل كان يكره الماسونية، فكتب شميّل إلى صديقه يقول له «لست ماسونياً ولكنني منتظم في سلك تلك الجمعية الشاملة»، وقد أراد شميّل بـ«الجمعية الشاملة» الهيئة الاجتماعية للجنس البشري العامة فظن صديقه أن «الجمعية الشاملة» اسم علم لجمعية شهيرة فكتب إلى الشميّل يقول «أرجوك أن تدخلني في سلك الجمعية الشاملة!».

لما عرفت الشميّل وجدته في أول أمره سوداوي المزاج، مضطرب البال، كثير التأمل، قليل الكلام، ولما كنت أنا أيضاً حائزاً على بعض هذه الفضائل، كنت أسر بمجالسته كثيراً، فكنا نجلس أحياناً برهة طويلة دون أن يكلم أحدنا الآخر. ولكنه بالتدريج عاد إلى مألوف عادته فانطلق لسانه من عقاله وتبددت غيوم السويداء عن وجهه وأظن أن انخراطه في حلقة العلم والأدب في السبلندد بار كان من أكبر البواعث على ذلك.

آراؤه ومبادئه

كان الفقيد في أوائل العمر متديناً، وكان يعتقد بوجود إله للكون وبالوحي. وأما كيفية اعتناقه للمذهب المادي وصيرورته واحداً من القائلين به والمناضلين عنه فقد قصها عليّ الفقيد كما يأتي، قال:

«كنت جالساً ذات يوم في قهوة من قهاوي باريس وإذا بأحد مواطنينا السوريين قد دخلها أيضاً وهو من عائلة مراش[3]، فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث إلى أن تطرقنا إلى المباحثات الدينية، وكان مراش مادياً محضاً. أما أنا فكنت إلهياً وكان موضوعنا وجود إله أو عدمه. فالتفت إلي مراش وسألني: إذا كان الله موجوداً فأجبني عن السؤال الآتي... أمنفصل هو عن المادة أم متصل بها؟ فإن كان منفصلاً عنها فكيف يفعل فيها؟ وإذا كان متصلاً بها فقد أصبح جزءاً منها».

ثم أكمل حديثه لي وقال:

«لما سألني مراش أولاً هذا السؤال، حنقت واحتدمت غيظاً وأخذت في مناقشته بصوت عالٍ، وكان كلما ازددت حنقاً واحتداماً ازداد رصانة وهدوءاً وهو لا يسألني إلا هذا السؤال: أمنفصل هو عن المادة أم متصل بها؟

«لم يحتدم في الجدال نظيري ولم يناقشني بسوى هذا السؤال، ثم كرره عليّ للمرة الأخيرة وانصرف وأنا لا أحير جواباً.

«تركني ومضى وهو لم يسألني سوى هذا السؤال ـ سألنيه بلطف وهدوء. ولما انصرف جلست وحدي مفكراً ثم عدت إلى غرفتي وأنا أفكر في سؤاله: «أمنفصل هذا الإله عن المادة أم متصل بها، فإن كان منفصلاً عنها فكيف يفعل فيها وإذا كان متصلاً بها فقد أصبح جزءاً منها». بقيت أفكر في هذا السؤال كل الليل وفي صباح اليوم التالي استيقظت مادياً!».

قصّ علي الشميّل هذا الحديث وكله عواطف شأن الرجل الذي يذكر حادثة غيرت وجهة

3 من المعروف أن الحلبيين، فرنسيس فتح الله مرّاش (1836-1873) وعبد الله فتح الله مراش (1839-1900)، عاشا في باريس ولعبا دوراً هاماً في اليقظة الأدبية السورية.

أفكاره وتاريخ حياته، وظل الشميّل منذ ذلك التاريخ حتى ساعة موته مادياً من الطراز الأول.

لا أعرف بين أصحاب المذهب المادي من علماء الغرب والشرق من هو أرسخ قدماً وأثبت اعتقاداً في المادية من الدكتور شميّل.

كان المذهب المادي عند الفقيد ليس فقط مذهباً علمياً صحيحاً، بل أشبه بمذهب ديني اعتنقه اعتناق مؤمن لدينه.

كان يؤمن إيماناً راسخاً أنه لا يوجد في الكون شيء غير المادة أو فوق المادة أو وراء المادة، وأن كل مذهب آخر حديث خرافة. وقد قال لي مرة ما يأتي:

«إذا رأيت مني في المستقبل ما يؤخذ منه أنني غيرت اعتقادي وملت إلى الإيمان بوجود إله أو إلى التدين فكن على ثقة من أني قد أصبت بالخرف».

لم يكن يعتقد بشيء إلهي على الإطلاق، وحدث منذ بضع سنين أن فريقاً من مشاهير العلماء أحيا البحث في مسألة استحضار الأرواح ومال إلى تصديقها، وفي عداد هؤلاء السر أوليفر لودج الشهير، فكتب حينئذٍ الفقيد مقالة يدحض بها هذه المزاعم. ومع أن السر أوليفر لودج من أكبر علماء الإنكليز، فقد طالعنا له منذ بضع سنين آراء في علاقة الخالق بالكون غاية في السخافة.

الفقيد ومذهب داروين

أظن أن الفقيد كان أول من وضع لفظ الارتقاء بالمعنى العلمي المعروف به اليوم، ولقد طرق مسامعه مذهب داروين يوم كان لا يزال طالباً في المدرسة الكلية، وجلّ ما عرف عن هذا المذهب حينئذٍ أنه قام عالم يقول بأن أصل الإنسان القرد، فوقع عنده هذا الكلام موقع الدهشة والاستغراب وحسب أن بالعالم المذكور جنّة أو أنه جاهر بهذا المذهب طلباً للشهرة. ثم مرّ على الفقيد زمن طويل دون أن يسمع بالمذهب المذكور، ومن غرائب الاتفاق أن موضوع خطابه المدرسي النهائي يوم نال الشهادة الطبية كان تأثير البيئة في الحيوان والإنسان، فأتى في خلاله على بعض النظريات التي تؤيد مذهب داروين وهو لا يدري، فقد كان في هذا الطور من الفريق الذي يدري ولا يدري أنه يدري.

ولكنه أتيح له بعد خروجه من المدرسة الاطلاع على المذهب المذكور والتروي في مباحثه، واتفق له أنه سافر بعد ذلك إلى أوربا على ما مرت الإشارة إليه، وما زال هذا المذهب حديث نهاره وأحلام ليله حتى اعتنقه وأصبح من أكبر المبشرين به، بل كان أقدم وأكبر مبشر بهذا المذهب في الشرق.

لما اهتدى الفقيد إلى مذهب داروين، شعر كأنه اكتشف عالماً جديداً، فاعتنقه بحرارة المؤمن لا فقط باعتقاد العالم، وحسبه أولية لا تقبل جدلاً كما حسب نيوتن قضايا إقليدس أوليات، وذلك قبل أن طالع مؤلفات كبار الداروينيين نظير بخنر الذي ترجم الفقيد الشرح الفلسفي الذي عقده ذلك العالم الكبير على مذهب داروين.

انتقل الفقيد من تطوّر الحيوان إلى تطوّر العقل، فوجد أن الاثنين فرع شجرة واحدة وأن السيكولوجيا أو علم النفس ضرب من علم الفسيولوجيا أو علم منافع الأعضاء وأن العقل فعل من أفعال الدماغ كما أن الصفراء فعل من أفعال الكبد والعصارة المعدية فعل من أفعال المعدة.

مباحث الفقيد في القوى

كان في عدد أغراض الفقيد إقرار الفلسفة المادية من كل وجه، فنشر مقالات متعددة ترمي إلى وحدة القوى وأن الحيوية منها على حد الطبيعة القوة الواحدة منها تتحول إلى الأخرى.

تطرّق من هذا البحث إلى القول بأن المادة تحس بدليل أنها تتأثر حال كونها فاعلة، فيكون عبارة عن ضرب من ضروب الجاذبية العامة، فتسمى في الجماد ألفة وفي النبات انتخاب وفي الحيوان إدراك وفي الإنسان إرادة ولكنها واحدة في جميع مظاهر الكون، فسواء سميتها كهربائية أو حرارة أو نوراً أو حياة أو حركة أو جاذبية أو شوقاً أو حباً، فهي واحدة.

فناموس التطور لا يقتصر على النبات والحيوان، بل يتناول المواد كلها على اختلاف أنواعها، ولقد بحث الشميّل في كل ذلك بحثاً دقيقاً يرفعه إلى أسمى مراتب العلماء من حيث النظريات العلمية العامة. ولقد تفنن في الكلام على المذهب المادي ووحدة القوى وطرق الموضوع من وجهات متعددة لا يمكن المطلع عليها وعلى أبحاث العلماء من هذا

القبيل إلا أن يجل قدر الشميّل إجلالاً كبيراً. ولو كان في وسط راقٍ أشبه بوسط الغرب وانصرف إلى هذه المباحث انصراف الأخصائي المتفرغ لها لكان قد أحرز منزلة في العلم لا تقل عن منزلة هكسلي وهيكل وبخنر وأمثالهم.

الفقيد وغوستاف لوبون

لما ذاع اكتشاف الراديوم العجيب الذي كنت أول من بحث فيه في العربية بحثاً علمياً، حدثت بين العلماء ثورة في الخواطر وحسبوا أن هذا الاكتشاف سيزعزع ما رسخ في الأذهان من نواميس الطبيعة. والحقيقة أن الاكتشاف المذكور كان باعثاً على تغيير آراء العلماء في المادة وطبيعتها ومصيرها وفي صدر هؤلاء القوم العلامة غوستاف لوبون، فإنه تطرق من هذا الاكتشاف إلى رأي جديد خطير هو أهم الآراء العلمية الطبيعية على الإطلاق. فقد نفى لوبون برأيه الجديد ثبوت الجوهر الفرد، وقال بتلاشي المادة وهو قول خالف كل فلاسفة الطبيعة العصريين ولا يزال حتى الساعة حديث كبار العلماء وموضع أبحاثهم.

ولما اطلع الفقيد على مقالاتي في الراديوم[4] هنأني بها وخصوصاً بعد أن كتب في هذا الموضوع الفلكي الطائر الصيت فلاماريون[5]، وكان في ما كتبته وكتبه هذا العلامة من توارد الخواطر شيء كثير. وقد قال لي الشميّل وقتئذٍ: لو لم يكن تاريخ مقالاتك سابقاً تاريخ مقالة فلاماريون لكنت ظننت بأنك ناقل لأفكاره.

ولكن الشميّل بقي رغماً من كل ذلك معتقداً بثبوت المادة، وقال إن تلاشيها الذي يقول به لوبون عبارة عن تلاشي في القوة التي تتحول هي إليها.

وفضلاً عما تقدم، فقد وجد في هذا المذهب الخطير تأييداً لمذهب النشوء والارتقاء وإطلاقه على المادة نفسها إطلاقه على الكائنات الحية إذ يجعل المادة كالأحياء تنشأ وتنمو وتموت.

4 مقالة الدكتور سعاده في الاهرام أولاً (سنة 1905) ثم في مجلة المنار (سنة 1908).

5 [نقولا كميل فلاماريون (1842-1925) عالم فلكي فرنسي نشر العديد من الكتب حول علم الفلك، كما أصدر سنة 1882 مجلة متخصصة في هذا العلم].

بيد أن اعتراض الفقيد على غوستاف لوبون قائم في أن تلاشي المادة وخلق القوى غير صحيح على إطلاقه لأن المادة على مذهب لوبون تتلاشى في الأثير والأخير باقٍ لا يتلاشى ولا تمكن ملاشاته على الإطلاق. وقد قال شميّل في هذا الصدد قولاً كله حكمة وهو أن الجوهر الفرد الذي يتلاشى يكون حينئذٍ من المادة بمثابة الكرية لبنية الكائنات الحية ويكون الأثير نفسه للجوهر الفرد كالبروتوبلاسما للكريات الحية، وسواء سمينا النسيج الأصلي للكون أثيراً أو هيولى والقوة المتحولة عنه قوة أو حركة، فالمعنى واحد ولو اختلفت الألفاظ والأسماء، والقضية التي يجب أن تكون مدار النظر إنما هي تحول هذا الجوهر إلى قوة أو حركة تتحرك على نفسها ليمكن الجوهر الفرد أن يكون ظرفاً لها. وفي هذا القول وحده من سمو الإدراك وبعد النظر والإغراق في الفلسفة المادية ما يدل على منزلة الفقيد العلمية السامية.

وقد جاء له في عرض الكلام عن مذهب غوستاف لوبـون المنوّه عنه أن مظاهر المادة ليست سوى مظاهر توازن الأثير، وأن القوى ليست سوى فقدان هذا التوازن، فكأن الأثير القوة المتحركة، وكأن المادة توازن في القوة المذكورة، وهذا يعلل عن تحول المادة من مظهر إلى مظهر آخر متى فقدت التوازن المشار إليه وظهور القوى المختلفة كالحرارة والكهربائية والنور. فمتى عرض لمظاهر المادة أقل شيء يفقدها توازنها انطلقت منها قوى هائلة، ولا تثبت هذه القوى إلا إذا تجمعت تجمعاً عظيماً في القوة الأصلية الصادرة هي عنها وهو ما لا يمكن إلا إذا كانت تلك القوة الأصلية حركة تدور على نفسها على شكل لولبي. ومن الواضح أن مثل هذا الثبوت لا يكون إلا في الجواهر الفردة العريقة في القدم وهذه الجواهر الفردة على صغر حجمها الذي لا يدركه العقل مخزن كبير لقوى هائلة، وهو من أكبر الأدلة على كون الجوهر الفرد عبارة عن زوبعة أو حركة لولبية في الأثير وهو مذهب السر وليم طمسن على ما بيناه في مقالات سابقة من المجلة.

لم يكتف الفقيد بالنظر في هذه المسألة من الوجهة الطبيعية، ولكنه تطرق منها إلى البحث في المنافع الجمة التي يمكننا الحصول عليها متى توصلنا إلى طرق يمكننا بها استخدام هذه القوى الهائلة الكامنة في الجواهر الفردة، وقد أنبأ بإتيان يوم يتاح لنا فيه حل هذه القوى

من عقالها واستخدامها في شؤوننا الاقتصادية كما أنبأ سابقاً بارتقاء الكهربائية يوم لم تكن إلا مظهراً علمياً.

الفقيد ووحدة المادة

كان الفقيد من القائلين بوحدة المادة مهما اختلفت ضروبها وصورها، وقد جاهر بذلك في أوائل كتاباته يوم كان هذا القول غريباً في بابه رغماً من شهرة القائلين لأن هؤلاء كانوا لا يزالون حينئذٍ قليلين. إذ المذهب الشائع كان في ذلك الزمن أن العناصر الطبيعية وجدت كذلك سواءً كانت قديمة على مذهب الماديين أو مخلوقة على مذهب الإلهيين. فالذهب والفضة والحديد والأكسوجين والنيتروجين وغيرها من العناصر البسيطة إنما وُجدت كما هي وستظل كذلك إلى الأبد. وإن آراء الكيميين الأقدمين في استحالة العناصر بعضها إلى بعض كاستحالة النحاس إلى ذهب مثلاً حديث خرافة أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة، وأن تجارب جابر العربي الكيماوي الشهير[6] ليست إلا سخافات يجب أن يضرب بها عرض الحائط.

ولكن هذا القول لم يرضِ غلاة المذهب المادي ولا غلاة مذهب النشوء والارتقاء الذين أطلقوه على الجماد إطلاقهم إياه على الكائنات الحية.

وكان الفقيد أحد الغلاة المشار إليهم على ما تقدم بيانه، فانحاز إليهم منذ اعتنق المذهب المادي دون أدنى تردد، فقال بقدم المادة وبأن العناصر بالصورة التي هي عليها الآن محدثة وإن أصلها واحد هو الأثير أو الهيولى بدليل انقسام هذه العناصر إلى طوائف تتفاعل كل طائفة منها تفاعلاً كيماوياً واحداً وأن جواهر العناصر التي يقول جمهور الكيميين بكونها بسائط هي على الحقيقة مركبة.

والمذهب القائل بوحدة المادة أو العناصر هو المذهب الوحيد الذي يصح أن يُسمى مذهباً فلسفياً لأن وجود عناصر متعددة منذ الأزل منافٍ لروح الفلسفة السامية للكون التي تفرض مادة الكون الأصلية أو نسيجه الهيولي التي هي المادة في أبسط معانيها وأعمها على الإطلاق، ولكن فلاسفة الطبيعة العصريين أبدلوا لفظ الهيولى بالأثير.

---

6 المقصود العالم الكيمائي العربي أبو موسى جابر بن حيان (حوالى 731-815)

فالعناصر إذاً ضروب من نشوء الأثير وارتقائه ولا بد من أن يكون قد حدث هذا النشوء تدريجاً كما هي الحال في نشوء النبات والحيوان، ومما يؤيد ذلك أن فريقاً من العلماء بناء على هذه النظرية التي أصبحت الآن حقيقة علمية ثابتة لا جدل فيها قال بوجود فراغ بين طوائف العناصر يجب أن يُملأ بعناصر غير معروفة الآن ولا بد من اكتشافها في المستقبل فجاءت الاكتشافات التالية مؤيدة لهذا المذهب الخطير.

إذا كان الأمر كذلك فاستحالة عنصر إلى آخر ليست محالاً وأبحاث جابر الكيماوي في هذا الصدد ليست من السخافة في شيء ولئن لم يكن على هدى، وقد قال الفقيد بإمكانية تحويل عنصر إلى عنصر يوم كان هذا القول خارجاً عن حد المعقول عند جمهور الكيميين.

الفقيد ووحدة القوى

كان العلامة شميّل من أعظم دعاة وحدة القوى في الشرق وهو في صدر الذين كتبوا في هذه المباحث السامية يوم كان هذا المذهب متراوحاً بين الشك واليقين. فقد كان الشائع حينئذٍ أن كل قوة من القوى الطبيعية مستقلة عن الأخرى، ولكن الأبحاث التي أتى عليها علماء الفلسفة الطبيعية أيدت حينئذ المذهب الذي كان يقول به فريق من جلة العلماء من أن أصل القوى الطبيعية واحد وأن الواحدة منها تتحول إلى الأخرى كالنور والحرارة والكهربائية وما أشبه.

ولكن الفقيد لم يكتفِ بذلك، بل رفع المذهب المادي إلى أقصى ما يمكن رفعه من وجهة وحدة القوى وقال بأن الحس والشعور في الإنسان هما ضرب من القوى الطبيعية أصله الحركة أو الجاذبية وأن لا فرق بين هذا الشعور الحيوي والجاذبية الطبيعية والمغنطيسية إلا بالمظهر فقط، بل قال إن الحركة أصل كل قوة مهما كانت وإنها تسمى في العناصر الطبيعية والتفاعل إلفة كيماوية وفي السيارات جاذبية وفي الإنسان ميل.

وليس ذلك فقط، بل قال إن وحدة المادة تطلب وحدة القوى، فاختلاف مظاهر القوى أشبه باختلاف مظاهر المادة ويمكننا أن نسمي مظاهر الكهربائية والمغنطيسية والحرارة مظاهر الحركة، كما أن العناصر المعدنية وسائر العناصر الأخرى مظاهر المادة الأصلية أو الهيولى.

الفقيد والفلسفة النظرية

كان الفقيد ناقماً من الفلسفة النظرية والفلاسفة النظريين، ونريد هنا بالفلسفة النظرية الفلسفة التي لا يدعمها العلم والتي هي أشبه بأحلام جميلة منها بحقائق علمية.

ولقد كانت هذه الفلسفة العقيمة دعامة الأقدمين في وجهة أفكارهم ونشر آرائهم وكتابة مؤلفاتهم، ومما نأسف له أشد الأسف أن علم الكلام لا يزال في الشرق عموماً ومصر وسوريا خصوصاً المعول عليه عند فريق كبير ممن يدعون قيادة الرأي العام.

وقد قام بيننا نفر لا يفقهون من نواميس الطبيعة وشرائع العمران شيئاً على الإطلاق ولكنهم ظهروا بثرثرتهم وجعجعتهم أمام العامة وفريق من الأدباء السطحيين بمظهر الفلاسفة.

إن الفقيد كان في صدر الذين ناصبوا هذه الفلسفة العقيمة العداء وقالوا بوجوب التعويل على العلوم الاختبارية التي يؤيدها الحس والمشاهدات العيانية.

الفقيد والعمران

كان الفقيد من أعلى علمائنا العمرانيين كعباً وأدقهم بحثاً وأبلغهم في هذه الأبحاث، ولقد كان حانقاً على القوانين والشرائع البشرية حنقاً شديداً.

كان يندد دائماً بالشرائع والقوانين وينتقد بقاءها على حال واحدة دون أن يكون لاختلاف العصور ما يستحق الذكر في تكيفها طبقاً لحاجات أهلها، فمن الجور سن شرائع متحجرة لا تتغير بتغير الأجيال وخصوصاً أن لا تشابه في مسألتين من كل وجه مهما ضارعت الواحدة منهما الأخرى، كما لا يسير المرض الواحد سيراً واحداً في مريضين فلا بد إذاً من نظر خصوصي في كل قضية كما لا بد من علاج خصوصي لكل مريض، فأصبحت الشريعة إذ ذاك لصيانة القانون عوضاً عن أن تكون لصيانة البشر وانقلب الغرض منها، بل كثيراً ما يعرض للقاضي من القضايا التي يتمثل له فيها جور القانون دون أن يكون قادراً على إصلاحه.

يذهب إلى أن الشريعة يجب أن يسنها صعاليك البشر وفقراؤهم لا حاكموهم لأن أولئك أدرى بحاجاتهم وأرفق بأنفسهم من هؤلاء.

ولقد كان ناقماً على نوع خاص من الملوك والأمراء والأغنياء الذين يستبدون بجموع الشعب استبداداً ما أنزل الله به من سلطان، وكان ميالاً إلى الاشتراكية الحقة، وفاتحني غير مرة في أن أنشئ وإياه جريدة أو مجلة تبث المبادئ الحرة والاشتراكية في العالم العربي.

الفقيد والإخاء العام

يذهب الفقيد إلى إمكان سيادة الإخاء العام في العالم وذلك بزوال فواصل الأديان والوطنيات. والحقيقة أن هذه الفواصل على كونها لا تزال حصينة آخذة في الوهن والزوال شيئاً فشيئاً، لأن وسائل الانتقال واختلاط البشر بعضهم ببعض قد أزال بعضاً من تلك الفواصل فضلاً عن انتشار المعارف وارتقاء العلوم الطبيعية التي وسعت عقل البشر ورقت مداركهم.

ومن أكبر العقبات في سبيل تفاهم البشر وتآخيهم اختلاف لغاتهم، ولكن الفقيد يذهب إلى أنه سيأتي يوم يبلغ فيه تنازع البقاء بين اللغات حداً تفوق فيه واحدة من لغاته الكبرى سائر اللغات الأخرى فتزول الحدود بين الممالك والأمم ويعم الإخاء الجنس البشري.

ولقد كان الفقيد ضد فلسفة القوة المحضة واستعمالها في تنازع البقاء للقضاء على الضعفاء كما هي الحال في تنازع البقاء الطبيعي مجرداً عن إرشاد العقل البشري، وقد أنحى باللائمة على مذهب شو القائل بتقييد الزواج وقتل الذين لا منفعة ترجى منهم للاجتماع، وقد قال بذلك نيتشه الشهير على ما ألمعنا إليه في مقالات سابقة.

وعلى الجملة فإن أبحاث الفقيد كانت من أرقى مباحث العلماء وأجذلها نفعاً وقد حلق في بعضها حتى كاد يبلغ أفق مشاهير علماء الغرب في النظريات العامة. ولقد خسر بفقده الشرق عالماً كبيراً وفيلسوفاً خطيراً، ولكننا نتأسى بأن السوريين عرفوا قدره في حياته كما نرجو أنهم سيخّلدون ذكره بعد مماته.

وفاة الأستاذ يافث[7]

أمام عظمة الموت نحني رؤوسنا، وإياها ننحني أمام عظمة الميت. فكما أن صغار الرجال يستمدون عظمة من الموت، كذلك الموت نفسه يستمد عظمة من عظام الرجال.

يا أبا الجالية ـ إني أقف على قبرك مؤبناً لا كرفيق وصديق فقط، بل لي الشرف أن أقف معرباً عن شعور جالية سان باولو ومندوباً من قبل جمعية السيدات للمستشفى السوري ومن قبل الجالية السورية اللبنانية في الريو التي شرفتني بهذا الواجب المقدس، ومن قبل جالية الشوير وطنك ووطني الصغير الذي رأينا فيه نور الحياة وهو الذي أنجب رجالاً يفتخر بهم الوطن الكبير، في صدرهم أنت أيها الأستاذ الخطير.

كرفيق وصديق أذرف العبرات على أيام نضرات ومسرات ماضيات، أذكر فيها ذكاءك النادر وخلقك الباهر وطرفك الساهر، قاتلاً النهار بالدروس، محيياً الليالي بين المحابر والطروس، طماحاً إلى العلى وثاباً إلى المجد. ولقد بلغت من العز ذروته، ومن السؤدد قنته، فأنت عصامي يعلم الرجال كيف تذلل الصعوبات وكيف تكون الهمم العاليات وكيف ينال العز الشامخ والمجد الباذخ. لذلك أفتخر بك لأنك كنت فخراً لوطنك الكبير ومجداً لوطنك الصغير.

---

7 [نعمة شديد يافث التبشراني (1860-1923)، من مواليد الشوير (جبل لبنان)، تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة المرسلين الإنكليز في مسقط رأسه، ثم انتقل سنة 1879 للدراسة في الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية حالياً) في بيروت. تولى سنة 1888 منصب رئيس مجلس إدارة مدرسة الثلاثة أقمار في بيروت. نشر سنة 1886 أول كتاب عربي في علم الحساب بعنوان «المطوّل في الحساب». هاجر إلى البرازيل سنة 1893 ملتحقاً بأشقائه الثلاثة الذين سبقوه. أقامت العائلة في سان باولو وحظيت بثروة ضخمة حيث أنشأت المصانع ونشطت في الأعمال التجارية. كان نعمة يافث من الناحية السياسية على طرف نقيض مع ابن بلدته الدكتور سعاده. ففي حين كان الأول من المنادين بالحماية الفرنسية على سورية إثر الحرب العالمية الأولى ومؤتمر الصلح، عارض الدكتور سعاده هذا الاتجاه بقوة. بدّل نعمة يافث رأيه السياسي وتحول إلى مطالب بالاستقلال بدون حماية أو وصاية وذلك بعد زيارة له إلى الوطن سنة 1921 حيث اطلع عن كثب على جرائم وتسلط المحتلين الفرنسيين].

كمعبر عن شعور الجالية في سان باولو أضفر على ضريحك إكليلاً من الشكر، فلقد كنت عميدها ومعقد رجائها والملجأ الذي تفزع إليه أثناء النوائب والدرع التي تدفع عنها نوازل المصائب ـ أي مشروع من مشاريعها الخيرية لم تكن أنت يده اليمنى؟ أي مأثرة من مآثرها لم تكن إليها سباقاً؟ أي محمدة تقصد إليها الجالية لم تكن أنت ركنها الكبير؟ أي فضل تطمح إليه لم تكن أنت مركزه الخطير؟ يا أبا الجالية إن لك في القلوب منزلة سامية وفي النفوس مكانة رفيعة، فأنت الذي كبرت الاسم السوري يوم كان صغيراً ورفعته يوم كان وضيعاً وعرّفته يوم كان مجهولاً. فإليك يعود الفضل الأكبر في شهرة الجالية، لذلك كانت خسارتنا بفقدك لا خسارة فردية، بل نكبة عامة ـ هي نكبة جالية بفقدان رجل جبار يرفعها إلى مستوى الجوالي الراقية ويضعها في المنزلة التي هي أهل لها، ففي كل بيت مناحة وفي كل قلب مأتم.

كمندوب من قبل جمعية سيدات المستشفى السوري أضفر لك إكليلاً من عواطفهن الشريفة ـ إكليلاً من ملائكة الرحمة إلى ملاك الرحمة ـ فلقد كنت أنت من مؤسسي هذا المستشفى الذي لا يزال جنيناً في بطن الأيام وكنت أنت في صدر العاملين لتحقيق هذا المشروع الجليل وإخراجه إلى حيز العمل وفي عداد الذين أوحوا إلى الناس أن يبذلوا في سبيل المرضى البائسين الذين عبس الدهر لهم، وهن يشعرن أن روحك لا تزال تعمل لتحقيق هذه الأمنية بعد الممات، كما كانت عاملة أثناء الحياة. ومتى خرج المستشفى إلى حيز الفعل فإن المرضى الفقراء من رجال ونساء وأطفال يباركونك من أسرة أمراضهم كما يباركون سيداتنا اللواتي حملهن الحنان على التضحية والسعي المبارك في سبيل أقدس الأعمال الخيرية، فكنت أعظم عضد لهن في ما يرمين إليه من وراء هذا المشروع الجليل والأثر النبيل.

كمندوب من قبل الجالية السورية اللبنانية في الريو أرفع إلى أسرة الفقيد وجالية سان باولو الكريمتين عواطف الأسى ومشاطرة الأحزان التي ترفعها شقيقة بعيدة عن مأتم الأب إلى شقيقة قريبة منه، فلقد وقع هذا النبأ الفاجع على شقيقتنا في الريو وقع الصواعق، لذلك عقدت اجتماعاً خاصاً للإعراب عن شعورها في هذا المصاب وهذا وحده كاف للدلالة

على ما لفقيدنا من المنزلة السامية في قلبها وما له من الحب والاحترام في نفسها. وبعثت بنا تلفونياً لكي يوضع إكليل من قبلها على ضريحه وشرفتني بهذه المهمة وإلقاء هذه الكلمة التأبينية، فباسم الجالية السورية اللبنانية في الريو أضع هذا الإكليل البديع على قبر فقيدنا، ولكنني أحمل منها إكليلاً آخر أجمل من هذا كثيراً وهو عواطف الاحترام والإجلال نحو الراحل العظيم الذي تعد فقده نكبة وطنية، وهذا ما حملها على القيام بهذا العمل الشريف. فبصفتي مندوباً عن جالية الريو أقول إنها لم تقم إلا بواجب أدبي مقدس، ولكني بصفتي أحد أفراد جالية سان باولو لا يسعني إلا تمجيد عملها والافتخار بعواطفها وبالمهمة التي شرفتني بها، فجالية سان باولو لا تنسى ولن تنسى شقيقتها جالية الريو ورقة شعورها ونبل عواطفها وشرف أخلاقها.

بقي علي أن أقول كلمة وداع بالنيابة عن مواطني الشويريين تذرف عيونهم بدل الدمع دماً لأنهم يشعرون أن سهم الأقدار أصاب منهم مقتلاً. ماذا عساني أن أقول عنهم وأنا واحد منهم في حاجة إلى من يقول عنه؟ أيها الراحل العزيز العظيم إن تلك الجبال الشامخات في وطنك الصغير التي لن تراك بعد الآن تهدي إليك تحياتها الأخيرة ـ تلك الهضاب المقببات الجميلات المكسوة أشجاراً باسقات وأنجماً زاهرات وأزهاراً باسمات تقبلك القبلات الأخيرة ـ تلك الأودية البديعة المكسوة جدرانها خضرة والماء يندفع منها رشاشاً كأنه رشاش من لؤلؤ والجو مضمخ بالطيوب ترسل إليك روائحها العطرية مع نسمات البحار ـ تلك المياه المتفجرات كأنها ذوب البلور التي ارتشفت من كوثرها وشربت من سلسبيلها وإليها يعود الفضل في مداركك السامية تبلل ثراك لأنك لن تراها بعد الآن ولن تراك ـ تلك الكروم والغابات التي كنا نسمع فيها صباحاً ومساءً غناء الطيور المغردة وصدح العصافير الشادية ترسل إليك أناشيدها الأخيرة ـ أناشيد شجوية محزنة لأنها نشيد الفراق الأبدي ـ إن هذا الفردوس البديع كان يريد أن يضمك بين ذراعيه في مماتك، كما كان يضمك في حياتك، لذلك يقبلك الآن عن بعد القبلة الأخيرة الحلوة المرّة!

يا أبا الجالية، أيها الراحل عنا وفي كل قلب من قلوبنا لك رسم وفي كل فؤاد من أفئدتنا لك رمس، نودعك الآن الوداع الأخير وتودعك قلوبنا فارقد بمجدك!

تأبين المطران أثناسيوس[8]

أيها الحبر الجليل الميت الحي! أيها السيدات والسادة[9]

أمام رهبة الموت وقفت العصور الغابرة حيرى صامتة، وأمام رهبة الموت تقف الأجيال الحاضرة حيرى خاشعة، فمنذ فجر الوجود ظهر هذا السر العظيم الذي لم يقدر بشر على اكتشاف مكنوناته وبرز هذا اللغز الهائل الذي قصّرت أعظم الفلاسفة عن حل رموزه ـ الشعر يرفرف فوق الموت كما يرفرف الطائر فوق بحر قاتم ـ الفلسفة تحدق إليه كما يحدق النسر إلى الشمس ـ العِلم يبحث فيه كمن يبحث في أوقيانس أضاع فيه لؤلؤة ثمينة ـ الخيال يحاول اختراق حجُبه كما نحاول ببصرنا اختراق الظلام الدامس.

هنا يضمحل العَرض وتخرس المادة ولا يبقى إلا الجوهر والحقيقة ـ هنا يزول الغِنى وعلى صخرة الموت يتحطم مركب الأموال ـ هنا تتبخّر الأحلام الذهبية والمطامع الدُنيوية ـ هنا تندكّ العروش وتضمحل المطامح ـ في وادي ظلال الموت يرى الراحل أعماله ضاحكة منه أو له ـ هنا يسأل المسافر نفسه «من أين أتيت؟ ماذا كان غرض وجودي؟ إلى أين أنا ذاهب؟» ـ هنا يرى للمرة الأولى والأخيرة في حياته بطلان العالم وفراغ المادة مما يشبع النفس ـ بوتقة الموت تصهر حياة الإنسان كلها ولا تبقي منها إلا على الذهب المصفّى ـ هنا يزول كل مجد ولا يبقى إلا المجد الحقيقي وهو ما عمل الإنسان في سبيل الإنسان!

---

8 [أثناسيوس عطاالله (1853-1923) ولد في الشويفات (لبنان)، وتلقى دروسه في كل من سوق الغرب، بيروت، دمشق واسطنبول. التحق في السلك الكهنوتي سنة 1871، وترأس سنة 1883 دير مار الياس شويا بالقرب من الشوير، وأغلب الظن أن الدكتور سعاده التقى به خلال تلك المرحلة. انتخب مطراناً على مدينة حمص سنة 1886، وخلال توليه كرسي المطرانية أسس العديد من المدارس في حمص وريفها بالإضافة إلى مستوصف ومستشفى وجريدة «حمص» وتوفي في الدوير بعد خدمة كنسية دامت سبعة وثلاثين عاماً].

9 [الكلمة التي ألقاها الدكتور سعاده في الحفلة التأبينية التي أقامها النادي الحمصي في بهو كونسرفاتورو في سان باولو تكريماً لذكرى المطران اثناسيوس عطاالله].

نطأطئ رؤوسنا أمام الميت العظيم الذي تشرفنا الآن بالاجتماع للاحتفال بذكراه المجيدة ـ نطأطئ رؤوسنا أمام الميت الحي الذي صرف حياته في سبيل الغير منكراً نفسه من أجل أبناء وطنه عاملاً صامتاً مُضحياً.

ولد فقيدنا في الشويفات من أعمال لبنان سنة 1853 حيث تعلم القراءة والكتابة ثم دخل بعد ذلك وهو في الثالثة عشرة من عمره مدرسة سوق الغرب الأرثوذكسية حيث درس علوماً راقية في عدادها اللغة اليونانية والموسيقى التي أظهر فيها براعة خاصة، ولما اشتهر ذكاؤه وذاع صيت صوته الساحر استقدمه البطريرك الأنطاكي إيروثيوس إلى دمشق وأدخله في سلك الرهبانية وسماه أثناسيوس، واسمه الأصلي أسعد عطاالله، ثم سامه في سنة 1872 شماساً وأخذه في صحبته إلى الأستانة حيث أقام بضعة أشهر عاد بعدها إلى دمشق. ورغماً من حداثة سنه أحرز مكانة عالية في دمشق، وكان في الأستانة نفسها موضع إعجاب كل الذين سمعوا صوته الرخيم في الكنيسة. وبعد ذلك بسنة عيّنه البطريرك رئيساً لشمامسة الكرسي الأنطاكي وأستاذاً للموسيقى في المدرسة الدمشقية.

في سنة 1879، انكبّ على علم اللاهوت في مدرسة خالكي انكبابل، أنهك صحته فأشار عليه الأطباء بالعودة إلى وطنه، فانصاع إلى نصيحتهم وعاد إلى دمشق حيث ظل يدرس اللاهوت على نفسه ولبث منعكفاً على الدروس حتى سامه البطريرك سنة 1883 أرشمندريتاً وعينه رئيساً لدير مار إلياس شويا في ضواحي الشوير وطني. فحال وصوله أنشأ مدرسة إكليريكية تولى هو نفسه تدريس التلاميذ فيها العربية واليونانية والموسيقى وبعض الفنون العصرية. وكان الدير قبل قدومه إليه على حال أشبه بالفوضى رازحاً تحت أثقال الديون، فوفى ديونه ورمّمه وبنى فيه بهواً فخماً للاستقبال لا يزال حتى هذا العهد. وللموارنة دير ملاصق لدير مار إلياس شويا فكان النزاع يقوم دائماً بين هذين الديرين ويمتد إلى ما جاورهما بسبب التعصبات الطائفية القديمة، فكان قدوم الرئيس أثناسيوس بَرَكة على تلك الناحية فأزال بلطفه ورحابة صدره وكرم أخلاقه كل خلاف بين الفريقين، فزالت التعصبات الدينية كما بسحر ساحر وأصبح الديران كأنهما دير واحد يتزاور رؤساؤهما ومدبروهما ورهبانهما يأكلون معاً ويشربون معاً كأنهم أعضاء دير واحد وطائفة واحدة، فحل السلام محل الخصام.

كان الفقيد عازماً على إنشاء مدرسة جامعة وطنية في الشوير تكون أكبر جامعة في لبنان، ولكن حمص سلبتنا هذه الدرّة الثمينة وهي الأرشمندريت أثناسيوس عطاالله. وكيفية ذلك أنه حدث في ذلك الزمن خلاف بين الطائفة الأرثوذكسية في حمص ومطرانها واشتد النزاع بين الفريقين، فانتدب البطريرك الأرشمندريت أثناسيوس مع لجنة خاصة للتوفيق بينهما فقام بأعباء هذه المهمة خير قيام وألّف بين القلوب المتنافرة بما فطر عليه من الصلاح واللطف وقوة الحجة فعشقه الحمصيون وأنزلوه مكانة عالية من نفوسهم. وحدث بعد عودته من حمص بزمن أن مطران حمص توفي فوقع رأي الطائفة على انتخاب الأرشمندريت أثناسيوس خلفاً له وبعثوا وفداً إلى البطريرك إيروتيوس يبلغه هذا الانتخاب. ولكن البطريرك توفي قبل تحقيق هذه الأمنية، فأعاد الحمصيون طلبهم من خلفه البطريرك جراسيموس، فاستدعى الفقيد إليه فرأى من نبوغه ما حمله على استبقائه عنده ليدير مهام البطريركية. ولكن الحمصيين الذين يظهر أن لهم فِراسة خاصة في معرفة الرجال طلبوا الأرشمندريت أثناسيوس من البطريرك بلجاجة، فأذعن أخيراً إلى رغائبهم وسامه في الخامس والعشرين من شهر آذار سنة 1886 مطراناً على حمص.

كما كان بركة على الشوير، كذلك كان بركة على حمص، فلما استقر به المقام وجّه همته إلى إغاثة الفقراء وتعيين لجنة خاصة تعتني بهم ونظّم المدارس تنظيماً رفع عدد طلاّبها ثمانية أضعاف، فبعد أن كانوا لا يبلغون مئة وخمسين أصبحوا ألفاً ومئتين، وكان كل ما يصل إلى يده يبذله في سبيل التعليم والبِر والإحسان. وكان ذلك سجية فيه حتى في أوائل عهده في الرهبانية، فلما جاء الشوير رئيساً على دير مار إلياس شويا اضطر أن يطلب أجرة سفر الطريق من أحد أصدقائه مع أنه كانت له موارد كبيرة من المدرسة الدمشقية ومن الشعب الدمشقي الذي كان مغرماً به ولكنه صرفها كلها في سبيل خير الآخرين.

في أثناء وجوده أسقفاً على حمص صرف مبالغ كبيرة في سبيل تعليم تلاميذه، وقد تبنّى عدداً كبيراً من الأولاد النجباء الذين لم تكن لهم موارد كافية للتعلم. وهو أبو أربعة أساقفة ساعدهم في بداءة عمرهم مادياً وأدبياً وكان أباً روحياً لهم، هذا فضلاً عما بذله في

سبيل تلاميذ آخرين صرف عليهم من جيبه الخاص لتعليمهم في المدارس الراقية وتبنيه كثيرين آخرين عاملهم معاملة الأب للأبناء. ولما ذهب مؤخراً إلى القطر المصري تلبية لنداء الطائفة قدّم له أبناؤه ستة آلاف جنيه بصفة هدية شخصية له، فلما عاد إلى حمص وهبها كلها للطائفة.

في أثناء وجوده أسقفاً على حمص رفع مرتبة الدروس، فبعد أن كان لا يُعلّم فيها إلا دروس بسيطة صار يُعلم فيها علوم راقية كالجبر والفلسفة والمنطق والفلك. وأنشأ مدارس جديدة عديدة، ولما بلغت النفقات حداً عجزت عنده الطائفة عن القيام بها حاول الحصول على إسعاف من الدولة العثمانية. ولما لم ير ملبياً لندائه لم يقنط، بل شرع يفكر في وسيلة أخرى لأنه لم يرد إقفال المدارس رغماً من ازدياد نفقاتها وتراكم الديون على جمعيتها. كانت تلك الأيام عليه أياماً مرة كما حدث لكثيرين غيره من كبار المصلحين، ولكنه لم ييأس لأن اليأس ليس من صفة الرجال العظام، فأوحى إليه هداه أخيراً أن يستصرخ جمعية روسية خيرية تحت حماية قيصر روسيا مؤلفة من نبلاء الروس غرضها نشر التعليم في فلسطين، وهي التي اشتهرت باسم الجمعية الأمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، فأجابته إلى سؤاله وتولت إدارة المدارس التي أنشأها والإنفاق عليها مع بقائه هو رئيساً عاماً لها. ولم يكتفِ بذلك بل أنشأ مدارس ليلية لمن لا تسمح لهم أشغالهم بحضور المدارس العادية. ووجه أيضاً عنايته إلى القرى، فبنى فيها نحواً من عشر مدارس أقام لها مديراً خاصاً وأسس جمعيات خيرية هي جمعية عضد الفقراء وجمعية المدارس وجمعية دفن الموتى وجمعية الغاية الجليلة لنشر الفضيلة وجمعية نور العفاف وجمعية الإنشاءات الخيرية وجمعية المنكوبين وجمعية تربية اليتامى وجمعية المدرسة العلمية الداخلية وجمعية جريدة حمص، هذا فضلاً عن الجمعيات الدينية والأدبية والاقتصادية.

كان رسولاً للسلام لا في أبرشيته فقط، بل في أبرشيات أساقفة آخرين فكلما حدث شقاق تعذر إصلاحه في واحدة منها كان يبعث به الكرسي الأنطاكي للإصلاح والمحبة والسلام.

لا أتكلم شيئاً عن صلاح الفقيد وتقواه، فهذه فضلاً عن أنها مشهورة تختص بصفته الأكليريكية. وأنا أريد أن أتكلم عن الأسقف الجليل الراحل بصفته أسقفاً عاماً لا يخص طائفته الأرثوذكسية دون سواها ولا لبنان مسقط رأسه ولا حمص عاصمة أبرشيته، بل أسقفاً وطنياً يُخص الوطن كله لأنه إرث مجيد للجميع.

أريد أن أتكلم عن صفاته الإنسانية العظمى. أريد أن أتكلم عن أخلاقه الوطنية الكبرى التي يجلها المسلمون كالمسيحيين وأصحاب الطوائف الأخرى كالأرثوذكسيين. أريد أن أتكلم عن ذلك الصدر الرحيب المملوء محبة للجميع ـ عن ذلك القلب الطاهر المملوء حنواً للجميع ـ عن تلك الوطنية الباهرة التي أثمرت بعد موته أكثر مما أثمرت في حياته. علم الوطنيين كيف تكون الوطنية دون أن يتكلم في الوطنية، وعلمهم كيف يوضع حجر زاوية الحرية دون أن يتكلم في الحرية. إن لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون، وإن لم نبن نحن بيتنا فباطلاً يتعب غيرنا. كل قوة خارجية تحركنا تجعلنا آلة ميكانيكية في يد سوانا. القوة الحيوية الحقيقية هي القوة التي ينبض بها قلب الشعب، والغذاء الحيوي الحقيقي هو الدم الذي يدفعه قلب الشعب. علّم فقيدنا الوطن كيف تكون حياة الأمم، أي أن الحياة يجب أن تكون منا وفينا وللوصول إلى هذا الغرض يجب أن يكون الوطن كله جسماً حياً واحداً لا يستمد قوته من الخارج بل من شعبه نفسه. يجب أن نكون متآخين متحدين، وإذا كان الإخاء من تعاليم الدين المسيحي، فالاتحاد من تعاليم الدين الوطني. كانت حياته في حمص درساً حياً للإخاء والاتحاد، وإذا كان الإنسان لا يحيا الحياة التي يبشّر بها، فتبشيره لا يأتي بثمر على الإطلاق. لذلك كان هذا المبشر العظيم بالوطنية الصامتة يحيا حياة الوطنية الناطقة. لذلك كان هذا المبشر العظيم بالحُرية الساكتة يحيا حياة الحرية المتكلمة. لذلك كان هذا المبشر العظيم بالإخاء أباً للجميع على السواء. لذلك كان هذا المبشر العظيم بالاتحاد من أعظم المصلحين في البلاد. كان قلبه كبيراً جداً يسع شعبه كله كأنه هيكل الوطن.

ما أعظم الرجل الذي لا يخص نفسه، بل يخص شعبه! ما أمجد الرجل الذي لا يحيا لنفسه بل يحيا لغيره! إنه لأعظم من العظمة وأمجد من المجد!

لذلك نرى المسلمين في حمص يبارون المسيحيين في الاحتفال بذكرى هذا الأسقف الجليل. لذلك نرى روح الإخاء والاتحاد ترفرف في ربوع الوطن بوحي هذا الرجل العظيم وأمثاله. لذلك نرى المعجزة التي حدثت في مصر وفلسطين آخذة الآن في الظهور في سوريا ولبنان. لذلك نرى الآن الهلال والصليب متعانقين على أبواب الجوامع والكنائس. من كان يصدق حدوث هذه المعجزة؟ المجد لكل من يضع حجراً في هذا الأساس الفخم! والفقيد لم يضع فيه حجراً فقط، بل وضع حجارة الزاوية، لذلك كان بركة على وطنه في مماته، كما كان بركة عليه في حياته. كونوا على ثقة يا سادتي أن الشعب يدرك بالغريزة أكثر مما يدرك العلماء بالفلسفة. كما أن الطفل الرضيع يعرف أباه بين جمهور لا يحصى من الناس بالغريزة الفطرية، كذلك الشعب يعرف رجل الشعب بين جمهور لا يحصى من الرجال بالغريزة الطبيعية. هكذا عرف الشعب الحمصي الأسقف أثناسيوس عطاالله لأنه لم يكن أباً دينياً لطائفته فقط، بل كان أباً روحياً وطنياً لشعبه. وما أثّر في حمص أثّر في دمشق وبيروت وسائر الأقطار الوطنية لأنه ضرب من التموجات الأثيرية. لذلك أثّر في جوالي البرازيل والأرجنتين وتشيلي والولايات المتحدة وسواها. لذلك شعرنا بوجوده بيننا يوم كان بعيداً عنا. لذلك نشعر بوجوده بيننا وهو ميت كما شعرنا بوجوده بيننا وهو حي.

ليس ذلك فقط، بل إننا كلنا نشعر في هذا الاحتفال الوقور المهيب أن روح الفقيد ترفرف الآن فوق رؤوسنا وتباركنا، بل نكاد نسمع حفيف جناحيها كأنها حمامة من السماء حاملة إلينا رسالة المحبة والسلام والإخاء والاتحاد. من منا لا يعود هذه الليلة إلى منزله ويضع رأسه على وسادته وهو أنقى قلباً وأطهر روحاً وأرقى أخلاقاً وأجمل عاطفة منه قبلاً؟ من منا لا يشعر هذه الساعة أنه تجاه قوة سرية غير منظورة غير محسوسة ولكنها قوة حية فعّالة تجري في عواطفنا وتمازج نفوسنا كما تجري الكهربائية في أجسامنا وتمازج أعصابنا؟ من منا لا يكون غداً أفضل منه اليوم؟ من منا لا يعقد العزيمة في هذا الاحتفال المهيب على أن ينزع من صدره كل أثر للتعصب الديني؟ من منا لا يدرك الآن أن الدين لله والوطن للجميع؟ من منا لا يستغفر في قلبه أخاً أساء هو إليه؟ من منا لا يخرج من هذه الحفلة رجلاً صالحاً؟

أجل: إن روح فقيدنا العظيم تعمل فينا بعد الموت كما كانت تعمل في الحياة، وهي عاملة فينا هذه الساعة في هذا الاحتفال الوقور رافعة عواطفنا مرقية أخلاقنا مطهّرة قلوبنا، موحدة شعورنا، منقية نفوسنا، محدثة نهضة في سان باولو كما أحدثت نهضة في حمص.

أجل: إن النهضة التي تفتخر بها حمص عائدة على نوع خاص إلى أعمال فقيدنا الطيب الذكر التي يعددها من هم أدرى مني بتفاصيلها، ولكن فضائله الذائعة وأخلاقه السامية تتضوع كما يتضوع أريج الأزهار العطرة، والمنزلة الرفيعة التي له في القلوب لأعظم دليل على الروح الشريفة التي بثها في صدور مواطنيه وهو أعظم من كل أثر مادي خلّفه لأنه خمّر النفوس بخميرة الفضيلة، ورقّى الأخلاق بمبادئه السامية، فكان بين مواطنينا رسولاً أشبه بالرسل الأولين الذين أحدثوا ثورة فكرية في طول العالم وعرضه وكانوا الشعاع الأول للتمدن المسيحي الذي كهرب العالم لا بقوة الفلسفة ولا بالعلوم العميقة، بل بما هو أفضل منها كثيراً: ببساطة الفضيلة والقدوة الحية والأعمال الصالحة والتضحية التي لا تعرف حدوداً والمحبة التي لا تعرف غشّاً والسلام الذي لا يبطن ضغينة، ونكران النفس الذي لا يعرف أنانية، والحياة من أجل الآخرين وتحويل بقاع الأرض التي نزلوها إلى شقة من السماء التي بشّروا بها.

أجل: لقد عاش فقيدنا رسولاً ومات رسولاً، ونحن في حاجة إلى رسل يبشّرون بالمحبة والاتحاد والإخاء، وكما كان المسيحيون الأولون يسمون أمثال هذا الرسول آباء الكنيسة، كذلك نسمي نحن رسولنا الجليل من آباء الوطن.

يا أبا الوطن ـ يا رسول المحبة واللطف والوداعة ـ نحن كلنا أولادك ولقد اجتمعنا الآن بين يديك كما تجتمع العائلة الواحدة حول أبيها لتودعه الوداع الأخير. بين إخواننا صرفت شرخ شبابك وبذلت قوى حياتك واستعملت مواهبك العقلية والأخلاقية لإصلاح شؤون الرعية التي كان من حسن حظها أن تكون لها راعياً أيها الراعي الصالح.

بيد أن أجل الأعمال التي قمت بها أنك أنشأت حياة روحية في زمن تفشّت فيه الحياة المادية، فأنعشت العواطف ووجهت العقول إلى ما هو أسمى من المادة المحسوسة وأحدثت حركة مباركة في الأفكار ونهضة منعشة في النفوس. ألقيت الحصاة الأولى في بحيرة

حمص. وما الدوائر التي نراها الآن آخذة في الانتشار إلا من تلك الدوائر الأولى الصغيرة والتموجات اللطيفة، فالحركة التي قمت بها لا تفنى قط، بل تسير في طريقها الأبدية متحولة من نوع إلى آخر آخذة في الاتساع حتى العالم الجديد عموماً والبرازيل خصوصاً، والصدور الرحبة التي غرست فيها تعاليمك ونفخت فيها من روحك تنبض دائماً بحب الوطن عموماً ومسقط رأسها خصوصاً لأن حب الوطن من الإيمان وأنت زرعت فيها بذور الإيمان بالفضيلة والإحسان والإخلاص والتضحية فجنيت مما زرعت لأنك أنجبت أبناء بررة برُّوا بك وبوطنهم الصغير فناصروه بالمطابع ووسائل نشر العلوم والمعارف وبناء معاهد العلم وملاجئ اليتامى وهبُّوا لإغاثته في تلك الأيام السوداء التي كان فيها يتساقط المواطنون موتى من الجوع على قوارع الطرق وأنت عامل بينهم بقلب ينفطر حزناً ونفس تذوب أسى تشاطرهم الأحزان وتقاسمهم المصائب ـ كنت كسير القلب حزين النفس ولكنك كنت أيضاً صبوراً على المحن ثابتاً وسط التجارب غفوراً للمسيئين إليك حاملاً صليبك وسائراً نحو الجلجلة غير شاكٍ غير متذمر. كانت طريقك بعد ذلك كلها أشواكاً لأن الأشواك نبتت في طرقنا كلها ولكنك احتملت ذلك كله صابراً مريضاً متألماً.

يا أبا الوطن ـ كم سهرت على مواطنينا، وكم سهرت معهم. كم رافقت الراحلين منهم إلى ديار الأبدية وسرت معهم في تلك الدقائق الرهيبة الهائلة ماشياً أمامهم في وادي ظلال الموت واشباحه المخيفة مرافقاً إياهم بكلام اللطف والتشجيع والتعزية حاملاً بيدك مصباح الرجاء لينير أهوال الطريق! كم من يتيم احتضنت ولا أباً له! كم من فقير أغثت ولا معين له! كم من حزين عزيت ولا معزّي له! كم من قلب كسير جبرت ولا جابر له!

يا أبا الوطن ـ يا من لم يطلب مجداً في حياته ـ ارقد مكفناً بالمجد فأنت من بطاركة الجنس البشري القدماء الذين شرّفوا البشرية. أرقد مكفناً بمجدك لأن المجد ليس بالعروش ولا الجيوش ولا الأموال ولا الجاه ولا المناصب، بل براية الشرف التي يحوكها الشعب من نبضات قلبه وأمواج عواطفه وأثير نفسه ويجعلها كفناً أبدياً لعظام رجاله. إن لك في كل قلب عرشاً يا ملك القلوب ويا ملاك النفوس، ومن فتح القلوب وتبوأ عروشها لأمجد بما لا يقدر ممن يفتحون الحصون ويتبوأون الممالك.

يا أبا الوطن ـ يا رسولاً في زمن ندرت فيه الرسل ـ إنك لم تمت ولن تموت فأنت لا تزال حياً في قلوبنا وأرواحنا ولا تزال ولن تزال عاملاً بيننا وبين أبنائنا وحفّدتنا. وكما يزداد مجد عظام الرجال وآباء الكنيسة كلما قدم العهد بهم، كذلك سوف يتألق مجدك أمام الأجيال الآتية ببهاء أشد لمعاناً من بهائه الحالي، فمرور الزمن لا يزيدك إلا حياة وخلوداً. لذلك أمكنك أن تقول للموت بحق وجرأة وثقة في تلك الدقائق الأخيرة الرهيبة:

«أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاوية؟»

ذكرى وردة اليازجي

ذبلت وردة من وردات الأدب الباهر وغارت نجمة من نجمات الشعر الزاهر. أجل: ماتت وردة اليازجي[10] ووردة الشعر النسائي، وليس في سمائنا نجمات كثيرات، فإذا غارت واحدة منهنّ شعرنا بأن نورنا أصبح قليلاً وضياءنا أمسى ضئيلاً، فالكاتبات بيننا قليلات والشاعرات نادرات.

لقيت حتفها في الإسكندرية شيخة في الأيام، جليلة في المقام. لقيت منيتها بعد أن جرعت كؤوس الدهر خلاًّ وخمراً وذاقت من تصاريف الأيام حلواً ومراً، حتى إذا ما رمتها الحادثات بعد ذلك بسهام النضال تكسرت فيها النصال على النصال.

عرفناها يوم عرفنا شقيقيها العلامتين الشيخين ابراهيم وخليلاً وزوجها الطيب الذكر والأخلاق الأستاذ فرنسيس شمعون. وكنا قد عرفناها قبل ذلك سماعاً لما ذاع من أدبها وشعرها يوم كان أدب اللغة بين نسائنا من أندر النوادر وقرض الشعر بينهن أندر من الكبريت الأحمر.

نشرت ديوانها يوم كانت دواوين الشعراء العصريين من الرجال تعد على أصابع اليد الواحدة، فما لبثت أن أصبحت في سماء سوريا نجمة تستلفت الأنظار وتتجه إليها الأبصار. ولها قصائد جميلة المبنى رشيقة المعنى، من أشهرها قصيدة بعثت بها إلى سيدة تركية تقول في مطلعها:

يا وردة الترك إني وردة العرب   فبيننا قد وجدنا أقرب النسب

10 [وردة اليازجي (1838-1924) شاعرة وكاتبة ولدت في بلدة كفرشيما (جبل لبنان)، إبنة ناصيف اليازجي. تلقت دراستها باللغة العربية في بيروت بعد انتقال العائلة إليها سنة 1840. عملت في حقل التدريس وتزوجت سنة 1866. إثر وفاة زوجها سنة 1899 انتقلت مع عائلتها إلى الإسكندرية وبقيت هناك حتى وفاتها. نشرت ديواناً شعرياً في بيروت بعنوان «حديقة الورد» سنة 1867، كما نشرت مقالات في مجلة «الضياء» التي أصدرها شقيقها ابراهيم، أبرزها أربع حلقات بعنوان «المرأة الشرقية» سنة 1906].

كانت راقية الأخلاق، كريمتها، لطيفة الحديث، متوقدة الذكاء، سريعة الخاطر، ترسل الكلام إرسالاً دون توقف ولا تصنّع.

نعود بالخيال إلى تلك الأيام البديعة يوم كان منزل صديقنا الشيخ إبراهيم نادياً لنخبة العلماء وجلة الأدباء وصفوة الأصدقاء الخلصاء، كالأستاذ إبراهيم الحوراني والدكتور بشاره زلزل والشيخ اسكندر العازار وأمثالهم من أصحاب الأدب الباذخ والعلم الراسخ، يزين مجلسهم جمال الأفكار وجلال الوقار بين أحاديث علمية ونكات أدبية ومساجلات فلسفية. يوم كان غصن الصبا رطباً طرياً وربيع الحياة كأنه زرٌّ من الورد آخذة أكمامه في التفتح والأماني المجنّحة ترفعنا إلى الجو كأنها عقاب ذاهبة صعداً في الهواء. يوم كان الوجود كله يبسم لنا عن ثغر دري والعالم كأنه فردوس بديع خالٍ من العناء والشقاء والرياء والهموم والموت. الموت؟ الموت كان أبعد الأشياء عن خاطرنا. كنا نحسب حينئذٍ أن الموت وُجد في العالم لسوانا، أما نحن فإننا خالدون!

تلك هي الأيام الأولى التي عرفنا فيها السيدة وردة اليازجي. عرفناها كبيرة العقل، كبيرة الأخلاق، كبيرة النفس. والنفس لا تبدو حقيقتها إلا متى نزعت عنها حجاب التكلف وبرزت للعيان بالمعدن الذي صاغتها منه الطبيعة حين لا يقف العقل حارساً للعواطف، وحين لا يخرج الكلام من فم صاحبه كأنه موزون بميزان كيماوي أو كأن صاحبه نقاد لنفسه مخرجاً منها شخصاً آخر ليمنع صورتها الأصلية الفطرية من المثول أمام الناظر. وأنت إذا تدبرت الحقيقة وجدت أن الكلام الذي يلفظه المتكلم دون انتباه ودون تفكير أدل على أخلاقه الحقيقية من سواه.

هكذا تبدت روح وردة اليازجي في الأيام التي كنا نختلسها من الشواغل لنصرف أحياناً بضعة أيام زمن الصيف مع رصيفنا الشيخ إبراهيم وشقيقه الشيخ خليل وعائلة شمعون وبعض العائلات الأخرى التي يجمعها المصيف في برمانا حيث كنا نصرف النهار تحت أشجار الصنوبر الجميلة التي كان حفيف أوراقها الأبرية أشبه بنغمات ملكية وروائحها العطرية منتشرة في الجو والأرض بساط سندسي ترصعه الأزهار الباسمة، والأطيار تغرد على الأفنان كأنها موسيقى سموية، والبحر المتوسط منبسط أمامنا شقة زرقاء تتموج

أمواجها اللطيفة وتتنفس زبداً على الشاطئ كأنها رشاش من لؤلؤ، وصنين قائم فوقنا وثلوجه البيضاء تتألق تحت أشعة الشمس كأنها قرص من لجين، والسماء فوقنا كأنها قبة من زبرجد، والنسيم العليل يهب على وجوهنا كأنه نسمات من الجنة، وأحد الأصدقاء يشنف الأذان بأنغام عوده المطربة وأمواج صوته الرخيم، ودموع العذراء تسكب في أقداح صغيرة بلورية لترفع الأرواح إلى أولمبوس مقام الآلهة!

في هذه الاجتماعات اللطيفة، كانت تتجلى روح الشيخ إبراهيم المصوغة من الرقة واللطف، وكان قد أصيب في بيروت قبل صعوده إلى برمانا بالروماتزم وهو إنما صعد إليها ليصرف زمن النقه فيها فرأى أن يصف حاله بأبيات من المعنّى بعث بها إلى عائلة فواز نذكر منها ثلاثة أبيات، والثالث منها بعد أبيات يصف فيها مرضه واضطراره إلى استعمال العكاز وهي ما يأتي:

ريح النسيم اجتازي باكر لبيت فواز
أقري سلامي ووجدي للخل والأعزاز
من بعد مشي الغندره أمشي على العكاز

كانت هذه الاجتماعات من أجمل ذكريات الحياة تظللنا فيها أشجار باسقة، وترحب بنا أرض مفروشة بالأزهار الباسمة وتشنف أذاننا نغمات العود المطربة وزقزقة الطيور المغردة.

في هذه المجالس، تبرز النفوس من وراء الحجاب وتبدو العواطف دون أن يكون عليها حراس، فكان هذا المجتمع بأدبه ورقته أشبه بزمرة من الملائكة هبطت إلى الأرض لتزورها وتعود إلى السماء التي خرجت منها. وكانت روح وردة اليازجي تبدو نقية كصفحة البلور، صافية كالهواء، وشعورها الشعري يتجلى بتلك الشاعرية الفطرية التي تولد مع الذين منحتهم إياها الطبيعة لأن الشاعرية تخلق ولا تُكتسب.

كان ظهور وردة اليازجي في عالم الأدب النسائي فخراً لا لعائلة اليازجي فقط، التي يعود إليها الفضل الأكبر في إحياء اللغة العربية بعد أن كادت تذهب معالمها وتدرس أثارها، بل للوطن السوري عموماً ولمقام المرأة في بلادنا خصوصاً، وهو ما حدا بنا إلى تخصيص مقام لذكرى هذه السيدة الفاضلة الجليلة. وكان لها من شهرة أبيها العلامة اليازجي الكبير

وشهرة أخوتها أيضاً في عالم الأدب العربي ما زاد في شهرتها ولفت الأنظار إلى أدبها الباهر وشعرها الزاهر. لذلك كانت فخراً للوطن السوري، كما كانت فخراً لعائلة اليازجي، فخسارتنا خسارة وطنية لا خسارة شخصية.

كانت وردة اليازجي حينئذٍ شاعرة سوريا الوحيدة، ولا أعرف حتى الآن شاعرة سورية أخرى. توجد كاتبات سوريات ولكنني لا أعرف منهن شاعرة واحدة.

التقيت بالسيدة وردة بعد ذلك بسنين عديدة للمرة الأولى والأخيرة في حياتي في موقف لم يكن يخطر في بالنا أن نجتمع به ولو في الحلم.

بعد وفاة الشيخ إبراهيم في القاهرة ببضع سنين رأى أقرباؤه وفريق من أصدقائه الأخصاء وجوب نقل رفاته إلى الوطن، وبعد نيل الإذن بذلك من نظارة الصحة المصرية تعين موعد نقل الرفات على القطار إلى بورت سعيد ومن هناك إلى بيروت. وتعيّنت لجنة تتولى هذا الشأن كنت في عداد أعضائها، وعينت مؤبنين يلقون تأبينهم على محطة السكة الحديدية قبل قيام القطار المذكور، كنت أيضاً واحداً منهم. فاكتظت المحطة بالجماهير حتى لم يبق موضع لأحد، وبعد انتهاء التأبين وقيام القطار، دعاني أحمد زكي باشا سكرتير مجلس النظار للذهاب معه في سيارته وكان هو أيضاً من المؤبنين. وبينما كنا سائرين على مهل بين الجماهير دنا مني أحد الأصدقاء وهو الشيخ أمين تقي الدين أحد صاحبي مجلة الزهور حينئذٍ، وهو اليوم سكرتير نقابة المحامين في بيروت ووضع يده على كتفي وقال لي «منذ شرعت في إلقاء تأبينك أبكيت الحضور، أما السيدة وردة التي كنت جالساً بجانبها فإنها وضعت منديلها على عينيها وانخرطت في البكاء إلى أن أتيت على آخر كلمة منه ولقد أبكيتني أنا أيضاً». فقلت له «هل السيدة وردة هنا؟»، فأجاب «نعم وهي تريد أن تراك». فرجوت الباشا أن ينتظرني بضع دقائق وتوجهت مع الصديق المذكور للسلام على السيدة وردة. فلما رأتني هزت رأسها وقالت لي «من كان يظن أننا سنجتمع هنا ـ سقى الله تلك الأيام». فسلمت عليها وعزيتها وتأملت فيها، فإذا المصائب قد أذبلت زهرة حياتها وأزالت نضارتها وكتبت على وجهها أسطراً من الأحزان. بين اجتماعنا الأخير في برمانا واجتماعنا على محطة سكة الحديد في القاهرة كانت الأقدار قد صرعت أخوتها

الباقين الثلاثة الواحد أثر الآخر مبتدئة بالشيخ خليل، فالشيخ عبدالله، فالشيخ إبراهيم الذي كان ركن العائلة اليازجية، خلا الأفراد الآخرين من عائلة اليازجي وشمعون الذين فتكت بهم المنية في تلك الأثناء وبعدها. كانت حينئذٍ منحنية الظهر قليلاً والنور الذي كان في عينيها قد انطفأ بريقه ومرارة الحياة مرسومة على جبينها، ولكن تلك الابتسامة اللطيفة لم تفارقها قط.

ودعتها عائداً إلى أحمد زكي باشا، وقبل أن أدخل معه السيارة ودعتها مرة أخرى بيدي عن بعد، وكان هذا آخر عهدي بها ولم أعرف بعد ذلك عنها شيئاً إلى أن طالعت خبر وفاتها.

نعزي نجلها رصيفنا الدكتور سليم شمعون وسائر أفراد عائلتها وشقيقتها في سان باولو السيدة الفاضلة سارة حداد والدة رصيفنا جورج أفندي حداد.

تركت وردة اليازجي فراغاً كبيراً في عالم الأدب النسائي سيبقى على ما أظن زمناً طويلاً غير مشغول.

جاد ضريحها الغيث الهتان وأنبت عليه ورداً ونسريناً وريحان!

الأستاذ ضومط

فاجأنا و«الرابطة» ماثلة للطبع نعي الأستاذ الكبير صديقنا القديم جبر ضومط[11] بعد اعتلال مزمن، وكان أستاذ اللغة العربية في الجامعة الأميركية سنين عديدة، فخدمها خدمات جليلة، وألّف في اللغة العربية وفلسفتها كتباً شتى نحا فيها نحواً جديداً يقربهما إلى الإفهام.
عرفه الكاتب يوم كان طالباً في الجامعة الأميركية، والأستاذ ضومط معلماً في إحدى المدارس الأميركية في صيدا أو طرابلس، فكان إذا جاء بيروت يزور الجامعة التي كانت تسمى حينئذٍ الكلية. وبعد التعارف تم توثيق عرى الصداقة بيننا، فكان يأتي كل ليلة تقريباً إلى الكلية، ونصرف السهرة معاً نتمشى على أرضها الجميلة تحت ظلال الأشجار، والنسيم المنعش يلاعب أغصانها ولأوراقها حفيف موسيقي مسكن ومشج معاً، والبحر المتوسط منبسط تحت أقدامنا شقة زرقاء جميلة، تارة متموجة ثائرة هائجة تلاطم أمواجها العالية الصخور، ترمي عليها زبداً يتصاعد رشاشاً إلى الجو، وطوراً ساكنة هادئة مطمئنة، تمثل الهدوء والجمال والجلال، وأشعة القمر اللجينية تنعكس على سطحها انعكاس النور على مرآة، وسماء بيروت الصافية الزرقاء الجميلة فوقنا ترصعها الكواكب والنجوم، كأنها قبة زمرد مرصعة بحجارة من ألماس، والسكون مخيم على تلك البقعة الشعرية البديعة، التي تستهبط الوحي والإلهام، وتحوّل البشر إلى أنبياء، إذا أصاخوا السمع إلى السماء.
كنت حينئذٍ في فجر الصبوة، وكان الفقيد رجلاً، ولكن كنت منذ بدء أمري مغرماً بالأبحاث الفلسفية العالية التي كان يحسبها كثيرون فوق إدراك حداثتي، ولكني تعلمت

11 [جبر ضومط (1859-1930)، لغوي سوري من مواليد برج صافيتا. تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة القرية، وانتقل عام 1870 إلى بلدة عبيه لمتابعة دروسه في مدرستها. وبعد سنتين بدأ دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت، وتخرج منها حائزاً على بكالوريوس علوم. مارس التدريس واهتم بإدارة جريدة «المحروسة» التي صدرت في الاسكندرية لصاحبها سليم نقاش، كما عمل ترجماناً في الجيش البريطاني خلال حملة غوردون باشا على السودان. عمل طيلة حياته في التدريس، وصدرت له عدة مؤلفات يدور معظمها حول اللغة العربية وتطورها].

الإنكليزية والعربية في آن واحد، فكنت أتردد إلى مكتبة الكلية، وأول كتاب طالعته فيها «المبادئ الأولية» لهربرت سبنسر، ثم كتباً في مذهب داروين، وكان الجدل بشأنه ما زال حينئذ محتدماً، وكان لا يجرأ أحد من التلاميذ على مطالعته لأن من يطالعه كان يعد كافراً، وكانت العمدة تنظر إليه نظرة الشك والارتياب، لذلك كنت أطالعها دون ضجيج ودون أن أتحدث إلى أحد بشأنها إلا صديقي وأستاذي العلامة الدكتور وليم فانديك.

لم يطالع فقيدنا شيئاً من ذلك أثناء دروسه في الكلية، وبعد الشهادة العلمية انصرف إلى التدريس في المدارس الأميركية، لذلك كانت تدور أبحاثنا حول المسائل الفلسفية التي كانت تسمى حينئذ علم ما وراء الطبيعة، وهي لم تكن داخلة ضمن سياق العلوم في الكلية. ولا أنسى الاهتمام الذي أظهره الفقيد عندما وقف على مذهب داروين، وهو لم يعرف حينئذ عنه شيئاً، فبعد أن تمشينا في أرصفة الكلية نحو ساعتين من الزمن، نتحدّث في مواضيع فلسفية عامة جاء ذكر مذهب داروين، وكان قد حان حينئذ الوقت المعين لإغلاق بوابة البناية التي كانت فيها غرف نوم التلاميذ، فدخلها معي وقال لي وأنا صاعد الدرج، ولم يبق إلا دقيقة لإغلاق البوابة: «أرجوك أن تفيدني بالاختصار ما معنى مذهب داروين، هل معناه أنه إذا لبس الرجل قميصاً من الفانيلا زال بالتدريج شعر الصدر؟» وكشف لي عن صدره فأجبته باسماً: «هو شيء من ذلك»، ثم ودعني عائداً إلى المدينة. فتابعت صعود الدرج وأنا في شك بأن تأتي نظرية داروين بشيء من النتيجة في تفكير الصديق العزيز.

بدأ التطور في تفكير فقيدنا منذ اليوم الذي ترك فيه العلم في المدارس الأميركية خارج بيروت، ولقد كتب إليّ طالباً أن أرسل إليه بعض الكتب، وفي رسائله ما يدل على التعطش الشديد للوقوف على الآراء الجديدة في نشوء الإنسان وارتقائه.

توقف بعد ذلك عن التعليم، واتفق مع الصديق جرجي زيدان مؤسس «الهلال» على الذهاب إلى أوروبة ليكونا أستاذين في جامعتين من جامعاتها، لتدريس اللغتين العبرانية والسريانية بعد أن درساهما في سورية. ولا أعرف صديقين اتفقا سناً ومنظراً وأخلاقاً وعلماً ووجهة نظر في الحياة، كما اتفق زيدان وضومط. فقد كانا هادئين رصينين راقيين، عفيفي

اللسان، لا يغتابان أحداً ولا يلفظان كلمة سوء في أحد، وإذا اغتاب أمامهما شخص ثالث آخر أطرقا برأسيهما إلى الأرض. كما كانا عفيفي القلم، لم يخطا كلمة تجرح عاطفة أحد قط، حتى الذين تناولوهما بهجر القول وبذيء الكلام. وكان هذا الخلق الكبير فيهما داعياً لإعجاب واحترام كل من عرفهما.

منذ تلك الأيام البعيدة، التي كنت ما أزال فيها طالباً في الكلية، انقطعت المواصلات بيني وبين الأستاذ ضومط، وغاب عن بصري وسمعي. بيد أن الأقدار لم تشأ أن تحرم العالم العربي من مواهبه ومواهب صديقه جرجي زيدان، فعادا من أوروبة، وكان عدم توفقهما لتحقيق أمنيتهما توفيقاً لهما ولمصر وسورية.

عاد زيدان إلى القطر المصري، وبعد الاشتغال زمناً ترجماناً للإنكليز في الجيش، انصرف إلى الصحافة وأنشأ مجلة «الهلال» وراح يحررها بعبارة سهلة سلسة لا تعد من طبقة الفصاحة والبلاغة، رغماً من أنه طالع أفصح وأبلغ ما خطته أقلام العرب. ولما قيل له ذلك أجاب أن كل ما يرمي إليه إنما هو نقل أفكاره إلى ذهن المطالع. ولعل هذه الطريقة الغير المألوفة بين حملة الأقلام المشهورين كانت في عداد الأسباب التي مهدت لرواج مجلته، إذ أيسر فهم مقالاتها على المشتركين، وكلهم من الطبقة الوسطى. كذلك نحا هذا النحو في رواياته التاريخية التي جعلها على شكل متسلسل للتاريخ الإسلامي، فراجت رواجاً كبيراً كما راجت «الهلال». ولما التقيت به في مصر المرة الأولى، قابلني بما فطر عليه من اللطف وكرم الأخلاق، فقلت له أثناء الحديث: «يجب أن تغيّر اسم الهلال فتسميه البدر»، فأجاب: «ليظل هلالاً... إذا صار بدراً خشي عليه من المحاق».

أما الأستاذ ضومط فعاد إلى سورية، وكان من حظ الوطن وحظه هو وحظ الكلية أن عيّن فيها أستاذاً للغة العربية. ومن الغريب أنه كما اتفق وزيدان في البنية والمنظر والأخلاق ووجهات النظر إلى الأمور، اتفقا على طريقة الإنشاء. فإذا جاز لي الحكم من المقالات القليلة المتفرقة التي عثرت عليها اتفاقاً من مقالات ضومط، قلت إن قلمه لا يعد بين أقلام الكتبة المشهورين بالفصاحة والبلاغة من الوجهة الإنشائية، رغماً من أنه طالع كزيدان أفصح وأبلغ ما خطته أقلام العرب، ورغماً من أنه ألّف كتاباً في فلسفة البلاغة. وهذا دليل

على أن الإنشاء موهبة طبيعية كالخطابة والموسيقى والرسم، لا تأتي لغير من جادت عليهم الطبيعة بها إلا نادراً، بيد أن عبارة ضومط كانت صحيحة من الوجهة اللغوية.

التقيت بعد ذلك بالأستاذ ضومط في ضهور الشوير، يوم زرتها وكان هو مصيفاً فيها، وكان ذلك منذ نحو عشرين عاماً. فتمددنا على الأعشاب والأزهار الجميلة، أمامنا شقة البحر المتوسط الزرقاء منبسطة انبساطها أيام الكلية القديمة السعيدة، ووراءنا صنين تكلل قننه الثلوج وينطح هامه السحاب، والنسيم العليل البارد الجاف المنعش يمرّ علينا فينعش روحينا، والأشجار تملأ الجو عبيراً، فذكرنا أيامنا القديمة والسهرات التي كنا نحييها سوية في الكلية. وكان بجانبنا أحد أولاده البالغ من العمر ثلاث أو أربع سنين، يلعب بجانبنا، فأخذ الأستاذ يشرح لي عن القوى العاقلة التي بدأت تنشأ عنده، فإذ بالرجل الذي لم يكن يعرف شيئاً عن هذه القضايا وعن آراء سبنسر فيها يوم كان رجلاً وكنت صبياً، أصبح أعلم مني بها بعد أن صرت رجلاً. ومن الغريب إنا سهونا عن الكلام في مذهب داروين، وحتى الآن لا أدري ما إذا كان مؤمناً به أو لا، والأول منهما أرجح.

كان كبير العقل كبير القلب، رحب الصدر كثير التسامح، بعيداً عن التعنّت ميالاً إلى الابتكار والتجديد. وكان من أعظم أساتذة اللغة في شواردها وأوابدها، ومن أدقهم علماً بأسرارها وغوامضها وأصول مشتقاتها، وقد ساعده على ذلك ما تعلمه من السريانية والعبرانية وغيرهما من اللغات السامية. وكان فضلاً عن ذلك بحاثة كثير التدقيق عميق التنقيب، شديد الصبر والجلد، فهو يضاهي من هذه الوجهة أيضاً رصيفنا وصديقنا جرجي زيدان، خصوصاً في ما يتعلق بتاريخ الإسلام وبلاد العرب، ولعله كان في ذلك أعظم ثقة بين الشرقيين والمستشرقين على الإطلاق.

ألّف كتباً شتى، نذكر من أسمائها «الخواطر العراب» و«الخواطر الحسان» و«فلسفة البلاغة». ولقد أخرج مؤخراً كتاباً جليلاً لم يسعدني الحظ بالاطلاع عليه، ذهب فيه إلى أن أسفار موسى الخمسة هي من وضع يوسف بن يعقوب، مورداً على صحة هذا الزعم أدلة عديدة. وسأطالع هذا الكتاب في وقت من أوقات الفراغ، وأقول فيه كلمتين، وأظن أنه الأثر الكبير من آثار قلمه الذي يخلد ذكره.

خطب أليم

رزئت الجالية والجريدة ماثلة للطبع بفقد شاب من نخبة شبابها، وأديب من أرقى أدبائها، وشاعر من أرقى شعرائها، ألا وهو المأسوف على شبابه وأدبه ودماثة أخلاقه، فوزي المعلوف[12].

اختطفته المنية في ريعان العمر، على أثر عملية جراحية في الريو. وما ذاع نعيه فجأة دون سابق علم بمرضه، حتى خفقت القلوب لوعة، وتفطرت الأكباد حسرة. وقد جيء بجثمانه من الريو إلى سان باولو حيث تقيم أسرته، فكان استقبال الجالية له استقبالاً جليلاً، إذ خف إلى ملقاه على المحطة جمهور كبير من كبار تجارها وصحافييها وأدبائها وذوي الفضل فيها، يتقدمهم سيادة المطران ميخائيل شحادة وأكليروسه الموقر، وأنزلوا نعشه المغمور بأكاليل الزهور إلى الرصيف، ثم نقل بين الدموع والحسرات إلى منزل شقيقه في الأدب والبلاغة والشاعرية كما هو شقيق له بالدم، السيد شفيق المعلوف، حيث ظل الجثمان مزاراً للجالية على اختلاف طبقاتها.

وعند الأصيل حمل على الأكتاف والقلوب إلى المركبة وقد نثرت على نعشه أزهار جميلة رقيقة متفرقة، كان الغرض من وضعها على تلك الكيفية أن لا تحجب عن الأبصار الزهرة الجميلة الراقدة في النعش، الذي سيوضع في الرمس كما سيوضع زر من الورد عند مغيب

---

12 [فوزي عيسى اسكندر المعلوف (1899-1930) ولد في زحلة، وتلقى دروسه في الكلية الشرقية في مسقط رأسه. انتقل في الرابعة عشرة من عمره إلى بيروت ليتابع دراسته في مدرسة الفرير حيث أتقن اللغة الفرنسية. عمل تاجراً للحبوب في زحلة بعد أن أقفلت مدرسة الفرير أبوابها، ثم عمل أميناً لصندوق دار المعلمين في دمشق (1918)، ثم ناموساً لعميد المعهد الطبي العربي في دمشق أيضاً. هاجر إلى البرازيل سنة 1921 حيث عمل مع أقاربه في حقل التجارة، وأنشأ وترأس «المنتدى الزحلي» في سان باولو سنة 1922. نشر العديد من أشعاره ومقالاته في صحف الوطن والمهجر. وتم جمع اشعاره في «ديوان فوزي المعلوف» (بيروت 1957)، إضافة إلى ملحمة شعرية بعنوان «بساط الريح» (ريو دوجانيرو 1929) تمت ترجمتها إلى عدة لغات. كما قام بترجمة عدة روايات من الفرنسية إلى العربية، إضافة إلى كتابات أخرى. توفي في سان باولو إثر عملية جراحية، وكرمه المهاجرون بإقامة منصة تذكارية له في حديقة المجلس البلدي في زحلة].

الشمس. ووراء مركبة الفقيد نحو عشر مركبات تحمل أكاليل الأزهار، ووراءها مركبات لا يدرك الطرف آخرها، تقل أسرة الراحل العزيز وأصدقاءه ومن لهم به صلة معرفة. وبعد القيام بالفروض الدينية في كنيسة مدفن «كونسولاسيون» حُمل إلى الضريح المعد له، وهناك أبّنه جمهور من الأدباء والشعراء، ثم وُري عند المغيب في الرمس، وقد شعر المشيعون أن قد غابت عنهم شمسان لا شمس واحدة.

هاجر الفقيد إلى سان باولو منذ نحو ثماني سنين، منصرفاً إلى التجارة شاغلاً أوقات فراغه بالأدب عموماً والشعر خصوصاً، وهو الفن الذي كان أميل إليه منه إلى سواه. ولقد شغف به وقرضه منذ ربيع الحياة، وكانت وقفته الأولى أمام الجالية في الحفلة التأبينية لفقيد الأدب فرح أنطون، فألقى فيها قصيدة جميلة المباني رقيقة المعاني، تمثلت فيها شاعريته ورقة شعوره، وأدرك الأدباء أن بينهم شاعراً جديداً يشار إليه بالبنان.

نظم قصائد شتى في ظروف شتى، لم يسعدنا الحظ بالاطلاع إلا على القليل منها. ولعلّ أبدعها القصيدة التي عنوانها «ملك في الهواء» ملأها من بنات أفكاره وحسان خواطره، نقتطف منها الأبيات التالية يصف بها نفسه، وهي أبلغ من كل وصف. والغريب أن يتكلم فيها عن ظلمة الرمس وهو ما زال في عنفوان الشباب:

هي روحي قامت تخلصني من	غضب العالم الفخور بشمسه
طوّقتني بمعصميها وقالت	إخواتي رفقاً به وببؤسه
هو من عالم التراب ولكن	شأنه غير شأن أبناء جنسه
سكن الأرض مرغماً وهو لو	خيّر ما اختار غير ظلمة رمسه
إن بين السرير والنعش خطوات	دعوها الوجود وهو بعكسه
شاعر ما حياته غير قطرات	جرت من يراعه فوق طرسه
يتلاشى كالشمس كي يعطي	النور على هيكل الخلود وقدسه

سلك الفقيد في الشعر مسلكاً جديداً، قل من طرقه من شعرائنا المشهورين. وقصيدته «شاعر في طيارة» التي أخذنا عنها الأبيات السابقة يجب أن تكون مسلكاً من المسالك الجديدة التي تنقذ الشعر العربي من عبودية التقليد، ونأسف أننا لم نطلع عليها إلا بعد وفاته، ولولا ذلك لوفيناه حقه في غير هذا الموقف.

ومن سوء حظ الشعر العربي أن تتخرم المنية هذا الشاعر وقد نضجت شاعريته وبدأت مخيلته ترسم صوراً جديدة لم يأت بمثلها إلا القلائل، وسار في الطريق الذي يؤدي به أخيراً إلى النبوغ، ويؤدي بالشعر العربي إلى ولوج طور جديد نشعر بحاجتنا إليه. فقد تطورت عندنا فروع الأدب كلها، وكسرنا السلاسل التي قيدنا بها السلف، ولا يزال فريق كبير من الخلف راغباً في تقييدنا بها. فالشعر ما يزال عندهم كالدين، الفن المقدس الذي لا يجوز لنا أن نحيد عما فيه من التقاليد والمناهج التي وضعها الأقدمون، وجرى عليها من جاء بعدهم ولم يشذ عنهم إلا النزر اليسير.

أما الأقاصيص والروايات الشعرية الواقعية أو الخيالية التي تصور آلام الحياة العادية والغير عادية، التي تستحق الحياة أو ترفعها إلى المثل الأعلى وتحولها إلى لؤلؤة بديعة، كما تحول الفحم في قلب الطبيعة بالضغط الشديد والحرارة الشديدة أثناء العصور الجيولوجية إلى ألماس، فمما لم يطرقه شاعر قط من شعرائنا، وقل منهم من ولج عالم النفس وعواطفها الهائلة، وعواطفها الراقية وأشواقها السامية، التي هي مدار حياتنا الروحية، والغرض الأسمى من حياتنا.

كذلك قل منهم من ولج شقاء الجنس البشري والتعاسة الكبيرة التي يرزح تحتها، وسط هذا التمدّن الكاذب الذي يسوق البشرية أمامه إلى هوّة سحيقة لا قرار لها.

نأسف كل الأسف لوفاة الشاعر فوزي المعلوف، بيد أننا نتأسى بشقيقه شفيق الذي لا تقل مواهبه الشعرية عن مواهب الراحل العزيز الذي ترك شعره أجمل الأثر في النفوس، ونرجو أن يتحول الشاعر شفيق إلى إكمال مسيرته التي بدأها وفوزي في وقت واحد، فيفتح وسائر شعرائنا الراقين عهداً جديداً في الشعر العربي، ولجه فقيدنا وترك في فجره أثراً جميلاً بارزاً يدل على شاعريته ومخيلته المبدعة، وارتقاء شعوره يوم طار بجسمه إلى السماء قبل أن طارت إليها روحه.

وفاة أديب كبير

فوجئنا و«الجريدة» ماثلة للطبع بنعي صديق قديم حميم ورصيف أديب كبير هو الشاعر المرحوم الياس فياض[13]. كان عالماً عالياً من أعلام الأدب العالي ومنارة متألقة من منائر الشعر الغالي. أديب كبير بأدبه، كبير بأخلاقه، كبير بشعوره. وشاعر كانت له الفصاحة في أسلوبه الرقيق وسالت البلاغة على قلمه الرشيق، يلج مكامن العواطف من نفس المحب والحبيب ونفس الطروب والغضوب ونفس الرجل برحت به الأسقام والآلام ونزلت به صروف الزمان وكوارث الأيام وذاق من الدهر حلوه ومرّه وعسره ويسره، ويلج مكامن العواطف من المرأة الفاضلة في قنة سعدها وأوج مجدها، وفي جمال خلقها وجمال فضيلتها، ومن المرأة الساقطة في حضيض سقطتها ودركات تعاستها يحيق بها الذل والهوان وتحرقها نار السل ونار الأحزان، وهو غير شامت بها بل راث لمصابها عاطف عليها بأبيات هن في صفائهن وغلائهن كالدرر، جارياً على قول الناصري: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر.

كان رقيق الأخلاق، رقيق العواطف، رقيق الشعور، بل كان شعوره كما يشف عنه شعره أشبه بميزان كهربائي تؤثر فيه أرق العواطف. وكما تدلى به الشعر إلى دركات التعاسة والشقاء، سبح به الخيال بين الكواكب السابحات والنجوم المتألقات. وإن الفقيد لأكبر في شعره منه في شهرته، فهو من الشعراء الذين لم توفهم الكفاءة حقهم. وإذا جاء ذكر الشعراء ورقّة شعرهم وشعورهم، فإن الفقيد يجب أن يكون في صفهم الأمامي.

عاد من القاهرة إلى الوطن واشتغل في السياسة وتقلّب في مناصب القضاء والإدارة،

13 [إلياس فياض (1872-1930) شاعر وروائي لبناني تنقل ما بين لبنان ومصر حيث درس الحقوق. عُين في بداية عهد الانتداب الفرنسي على سورية مديراً للشرطة في بيروت وتولى مناصب قضائية ووزارية وانتخب نائباً عن بيروت. له ديوان شعري طبع في بيروت سنة 1918 ومسرحيتان، ترجم إلى العربية 25 مسرحية من اللغة الفرنسية].

وكان عضواً في المجلس النيابي اللبناني، واشتغل أيضاً في المحاماة التي أعد نفسه لها في مصر. ولكنه لم يخلق لواحدة منها، بل خلق ليكون شاعراً رقيقاً مبدعاً، وسيظل ذكره بين أصدقائه مثال اللطف ودماثة الأخلاق ورقة الشعور ورفعة الشعر وسمو الخيال وصفاء السريرة وصدق المودة والصداقة.

ذكرى صديق

وردنا نعي صدق قديم ورجل من خيرة رجالنا هو خيرالله خيرالله[14] الكاتب السياسي والأديب الكبير، فخرمته المنون في تونس حيث كان ينقب في حضارة الفينيقيين الذين أنشأوا قرطاجنة، وهي التي كانت حيناً من الدهر ملكة البحار وطاولت رومية وجرت لها معها حروب تاريخية شهيرة أشهرها الحرب التي أضرم نارها هينيبال الذائع الصيت، وهي الحرب التي انتصر فيها على رومية المرة بعد المرة في معارك تاريخية هائلة كاد يقوض بها تلك الإمبراطورية التي كانت في شكل جمهورية.

عاجلت المنية هذا الصديق القديم وهو يحاول أن ينتزع من يد الفناء شيئاً من الآثار الغير المكتشفة التي تدل على ما كان لنا في سالف العصور من المجد الباذخ والعز الشامخ، فمات في ساحة الأبحاث التاريخية كما يموت الجندي قياماً بواجباته الوطنية.

كان منذ أوائل عهده مولعاً بالحرية الفكرية، ولما كان الضغط شديداً على عهد السلطان عبد الحميد، قصد إلى باريس منذ خمس وعشرين سنة وشرع ينشر في صحفها مقالات في موضوعات شتى أخصها المسألة الشرقية، فضمته جريدة «الطان» وهي من أشهر جرائد باريس إلى إدارة القسم الشرقي، فظل يحرره زمناً ليس بقصير. وكان في مقالاته يدافع عن تمدن الشرق وحرياته وحقوقه.

14 [خيرالله خيرالله (1882-1930) كاتب لبناني ولد في بلدة جران (البترون). تلقى دروسه في بلدته، ثم انتقل إلى مدرسة عينطورة. سافر إلى بلجيكا للدراسة كتلميذ إكليركي. عندما عاد إلى لبنان، عُيّن في عهد المتصرف مظفر باشا كاتباً في قلم الهندسة ومترجماً للمتصرف. درّس في مدرسة الحكمة في بيروت، ورافق المستشرق الألماني أوبنهايم خلال حفرياته الأثرية بين دجلة والفرات. عاش القسم الأكبر من حياته في باريس، وكتب في العديد من الصحف الفرنسية حول المسألة الشرقية. نشر عدة كتب باللغة الفرنسية منها كتاب حول المسألة الاجتماعية والمدرسية في سورية (باريس 1908)، وكتاب «سورية» (باريس 1912)، وكتاب «المسألة الشرقية» (باريس 1919). كما ترجم إلى الفرنسية رواية مجنون ليلى بعنوان «قيس» (باريس 1921)، وشارك في المؤتمر العربي الذي عقد في باريس سنة 1913].

ولما شبت حرب الأمم، كان في عداد المدافعين عن القضية السورية خصوصاً، والقضية العربية عموماً. وآل الأمر أخيراً إلى خلاف بينه والمرحوم شكري غانم الذي كان يرمي إلى إحلال فرنسا في سوريا. وظل هذا الخلاف بينهما أعواماً طويلة، وشكري غانم رئيس لما كانوا يسمونه حينئذٍ الجمعية السورية المركزية. ولقد اشتهر فقيدنا خيرالله بالدفاع عن القضية السورية، وكان مسموع الكلمة بين فريق كبير من الفرنسيس أنفسهم لأنه انضم إلى الجيش الفرنسي وانخرط فيه مع جماعة من أصدقائه وساروا إلى خطوط المعارك، بيد أنه اضطر لأسباب صحية إلى ترك الخدمة العسكرية.

رأى بعض الأدباء الفرنسيين منذ نحو سنتين أو ثلاث إصدار كتاب كبير في تاريخ شعوب العالم فرغبوا إلى صديقنا خيرالله بكتابة الفصول الخاصة بسوريا والعراق ومصر، فقام بما عهد إليه خير قيام ودبج هذه الفصول جرياً على ما كان يدبجه في القسم الشرقي من مقالاته في جريدة «الطان».

كان فضلاً عما تقدم مراسلاً لبعض الصحف العربية الكبرى في سوريا ومصر والولايات المتحدة، وعندما زار الملك فؤاد أوربا كان مرافقاً لجلالته في فرنسا وسويسرا. وللفقيد مؤلفات خاصة باللغة الفرنسية.

فقدت سوريا بهذا الخطب كاتباً كبيراً وسياسياً وطنياً بذل ما بلغه جهده وأذاب ما في دماغه خدمة للقضية الوطنية في زمن كان يتسابق أمثاله إلى تناول النضار من فرنسا خدمة لمصالحها الخاصة.

كان فضلاً عما تقدم كريم الأخلاق، غيوراً على أبناء وطنه، لم يقصر في خدمة أحد منهم حتى من لم يكن تجمعه بهم صلة معرفة. وإننا نتأسى على هذا المصاب بما قام به من خدمة وطنه وما ترك من الآثار الجميلة في سبيل استقلاله.

زهرة على ضريح

تخرمت المنية أديباً من كبار أدبائنا، هو الكاتب الشهير جبران خليل جبران، نزيل نيويورك. ولقد كانت وفاته في المستشفى على أثر علة كبدية لم ينجح فيها علاج.

وما ذاع نعيه حتى أسف عليه أصدقاؤه وقراء كتبه ومقالاته أسفاً شديداً. وشيّع ذووه وأصدقاؤه في نيويورك جثمانه إلى مقره الأخير، بما هو أهل له من التجلة والاحترام. وكثير من المواطنين هناك لم يدروا بوفاته إلا بعد دفنه.

كان الفقيد الكبير علماً من أعلام الأدب العربي، جرى فيه على طريقة خاصة، جمعت بين العاطفة الراقية والشعور الروحي الجميل، الذي كثيراً ما تضمن مغزى أدبياً أو اجتماعياً أو وطنياً يأخذ بمجامع القلوب والألباب. ولقد ألّف في أواخر سنيه بالإنكليزية تآليف شتى، وقعت لدى القراء وقعاً جميلاً، فنال بسببها شهرة كبيرة عن جدارة واستحقاق.

شغف بالرسم شغفاً شديداً، ونالت الصور التي كان يعرضها في معارض الرسوم استحساناً عاماً، وقد دفعه خياله الراقي إلى رسم كثيرين من مشاهير السوريين الذين لا رسوم لهم كما مثلهم له خياله البديع.

كان الشعور الراقي والعاطفة الراقية أهم ما امتاز به جبران خليل جبران. والحقيقة أنه كان يغذي بهما روحه الكبير وينفخه في صدور مطالعي مقالاته البديعة. تدرك من مقالات هذا الكاتب الروحي المملوء شعوراً راقياً وعواطف راقية أنه كان يفكر كثيراً ويتألم كثيراً، ويناجي الأرواح الكبيرة والصغيرة، والنجوم المتألقة والضئيلة، والشمس في طلوعها وغروبها، والقمر هلالاً وبدراً، والليل هادئاً وعاصفاً، والسيارات الدائرات في أفلاكها، والثوابت الراسخات في أكوانها، والحياة بسعادتها وتعاستها وورودها القليلة وأشواكها الكثيرة، وكل ما يبلغه الخيال أثناء الشواغل أو في هدوء الليل، عندما كان يجلس إلى مكتبه أو يسند رأسه إلى وسادته، يفكر في سر الكون وسر الحياة، وسر الوجود وأسرار

الفناء والخلود، وقد أعياه حل المستحيل ومعرفة الغامض، ورسم المستحيل والغموض على محياه آثار الحيرة والإعياء، ورسمت ويلات البشرية على جبينه آثار الآلام والشقاء.

أجل... جبران خليل جبران يغذي خياله العجيب بشعوره الرقيق وعواطفه الراقية، فكان رساماً بخياله كما كان رساماً بريشته، وإن رسومه العقلية لتحلق كثيراً فوق رسومه الطبيعية مهما بلغت هذه من الاتقان.

إن آثار الأسى والألم، التي كانت تبدو عليه من خلال مقالاته، لتحببه إلى كثيرين من رصفائه الذين ينقطعون عن العالم ويصرفون أوقاتهم بعيدين عن تيار الاجتماع الهائل وجلبته، مفكرين في سر الوجود وسر الحياة وسر الموت، شاعرين بالآلام البشرية التي تطمو حولهم كالبحر الطامي، عالمين أن الآلام والشدائد والنكبات والضيقات دروس بليغة تطهر نفوس البشر من أدران المادة، وترقيها وترفعها إلى أوج الفلسفة والسعادة، حيث لم تبلغ ولن تبلغ فلسفة الثروة واللهو والمسرات.

على ضريح رصيف أعرف روحه ولا أعرفه... أضع هذه الزهرة اللطيفة.

زهرة على ضريح

خبا بدر من بدور الأدب وغار كوكب من كواكب الصحافة وغاب نجم من نجوم الشهرة ألا وهو الأديب الكبير والصحفي الشهير داود بك بركات[15] رئيس تحرير «الأهرام» الغراء، ناسج بردها وناثر دررها وموشي بلاغتها وإليه يعود الفضل الأكبر في بعد صيتها وذيوع شهرتها.

كاتب يشار إليه بالبنان، يسيل بيانه ماءً زلالاً ويجري قلمه سحراً حلالاً. كبير في عقله كبير في أخلاقه كبير في رحابة صدره كبير في قلمه، تولى رئاسة «الأهرام» وجرى بها مدى ثلاثين سنة وسط الزوابع الوطنية والأعاصير السياسية والعواصف الحزبية والمعارك الحربية، تحته دماء الأبطال وفوقه قسطل من الغبار. جريء في دفاعه جريء في هجومه يثب على خصمه كما يثب الأسد على فريسته، جامع بين عفة القلم ومضائه وبين شجاعة الجنان وصفائه، يسيل حديثه لطفاً ورقة ويجري برهانه منطقاً وحجة.

حليم في مواقف الغضب، شهم في مواقف النصر، رصين في مواقف السياسة، قوي في مواقف المناقشة، كريم في مواقف الصداقة. يزن عباراته في قسطاس المنطق، يزين بيانه ببلاغة الحجة والبرهان. ذلق اللسان متوقد الجنان يسطر مقالاته بقلم يومض البرق من ثنايا كلماته الساحرة ويلعلع الرعد من قنة حملاته الباهرة.

كان من أخلص أصدقائي الأخصاء، وأصدقائي كثير جداً وقليل جداً. لقيته في القاهرة بعد وصولي إليها فتعارفنا وتصادقنا وتآخينا، وكان الاسبلندد بار معهد مجلسنا وعقد اجتماعنا فكان علماً من أعلامه الخفاقة وبدراً من بدوره المتألقة إذا شرع يحدث اشرأبت إليه الأعناق وحدقت إليه الأبصار وأرهف القوم آذانهم وأصغوا إلى حديث طريف يذوب

15 [داود بركات (1870-1933) صحفي لبناني تلقى علومه في بيروت وانتقل إلى مصر سنة 1890 حيث مارس مهنة التدريس في طنطا، كما كان ينشر مقالاته في «المحروسة» سنة 1894. أسس مع الشيخ يوسف الخازن «الأخبار» سنة 1899، وتولى رئاسة تحرير «الأهرام» بعد وفاة مؤسسها بشارة تقلا سنة 1901. تحولت «الأهرام» أثناء توليه إدارتها إلى أهم الصحف العربية. نشر كتباً حول السودان والأطماع البريطانية في مصر، كما كتب سلسلة من المقالات حول ابراهيم باشا].

رقة وسلاسة وحكمة. وكثيراً ما كنت أنصرف والفقيد عند منتصف الليل سائرين في طريق واحدة متحدثين في شؤون مصرية شتى من سياسية واجتماعية وخديوية وأدبية وتاريخية. وكان الفقيد في الشؤون المصرية أشبه بموسوعات علوم لا تخفى عليه خافية، ولم يكن بين رجال مصر من إذا سألته عنه لا يجيبك داود ببيان يشفي الغليل.

خدم القطر المصري وقضيته الوطنية خدمة جليلة ممتازة تسطر بماء الذهب، فكان على الدوام في الصف الأول من المطالبين بالحرية والاستقلال حاملاً في «الأهرام» على الاحتلال حملات شعواء اهتزت لوقعها جوانب قصر الدوارة خصوصاً على عهد اللورد كرومر ذلك الرجل العظيم الذي كان يقدر خصومه حق قدرهم فأطلق حرية الأقلام في الصحافة وحرية المنابر في الخطابة رغماً من أن كثيرين استباحوا باحته وطمنوا شهامته وأثخنوا عرضه السياسي جراحاً بألفاظ بذيئة تنبو لها الطباع وينفر منها السماع. أما داود بركات فلقد كان على الدوام كبيراً في أخلاقه كبيراً في مقالاته كبيراً في حجته كبيراً في نضاله وفي نزاله، تطالع مقالاته السيدات والآنسات في خدورهن دون أن يكون فيها على شدتها كلمة تجرح أدبهن أو عبارة يندى لها خجلاً عفافهن فأطلق لقلمه البليغ الأديب العنان وأحرزت الأهرام على عهده الزاهر مرتبة سامية ممتازة يشار إليها بالبنان.

كانت «الأهرام» منذ بدء نشأتها موالية للدولة الفرنسية بل كانت لسان حالها وقبلة رجالها، خصوصاً لأن فرنسا كانت بعد الاحتلال جرحاً نقاراً في جنب بريطانيا. وظلت الحال كذلك إلى أن تصادم كتشنر ومرشان في فاشوده من أعمال السودان، الأول زاحفاً عليها بعد انتصاره على المهدي والثاني زاحفاً بحملة فرنسية سرية من جنوب أفريقيا. ورفع كل منهما في فاشوده علم دولته، وكادت الحال تفضي إلى شهر حرب بينهما. ولكن فرنسا اضطرت تجاه بلاغ بريطانيا النهائي إلى انزال علمها والانسحاب من السودان، فاسترضتها بريطانيا أخيراً بأن اقترحت عليها احتلال مراكش والاستيلاء عليها مشترطة أن تكف عن التدخل في شؤون القطر المصري. فلما تم ذلك وكفت فرنسا عن مناصرة مصر لنيل الاستقلال والتملص من الاحتلال، عقد صديقي داود مقالة بديعة الصدد جاء في عرضها البيتان الآتيان:

وأصحاب تخذتهم دروعاً فكانوها ولكن للأعادي
وخلتهم سهاماً صائبات فكانوها ولكن في فؤادي

أحدثت هذه المقالة دوياً كبيراً، وتحولت «الأهرام» منذ ذلك الحين عن أن تكون لسان الدولة الفرنسية في الشؤون المصرية واتخذت موقفاً راسخاً في صميم القضية الوطنية فكانت ركناً خطيراً من أركانها الطبيعية.

طال قلمه حتى جرح الخديوي عباساً في كبريائه وحمل عليه حملة أقضت مضجع الأمير وأورثته القلق والأرق، فحاول أن يزحزح داود عن رئاسة «الأهرام» وبعث بشوقي رئيس كتبة ديوانه يدعو مدام تقلا صاحبة الجريدة بعد وفاة زوجها تقلا باشا، فوقفت مدام تقلا باشا بجانب رئاسة التحرير وقالت له بجرأة «إن ما يكتبه رئيس التحرير يا صاحب السمو إنما هو بإشارتنا». فاضطر إلى إلانة جانبه والتخفيف من حدته. وانتهى الأمر بانتصار داود بركات على الخديوي. هذا بعض ما قصه علي صديقي داود من شؤون «الأهرام» التي كان يرويها لي في أحاديثنا الإنفرادية.

بيد أن أهم ما رواه لي بهذا الصدد الحادثة التاريخية الآتية ولم يكن يعرف تفاصيلها أحد سواه، وقد قصها علي بعد انصرافنا من الاسبلندد بار منتصف الليل ونحن سائران في متنزه جميل والبدر يلقي علينا أشعته الفضية من سماء القاهرة الصافية، قال:

كان تقلا باشا صديقاً حميماً لتوفيق نجل اسماعيل باشا وكثيراً ما كان يزوره في غرفته الخاصة ويأخذ منه أخباراً سياسية سرية. ولم يكن اسماعيل راضياً عن هذه الزيارات، واتفق مرة أنه جاء لزيارة ابنه توفيق في غرفته فلما أحس هذا بقدومه أشار على بشارة باشا تقلا بالاختباء تحت الديوان وراء ستارة، فلم ير اسماعيل أحداً هناك. ولم يكن توفيق على وفاق مع أبيه الخديوي اسماعيل في بعض الشؤون السياسية، فقص على تقلا باشا بعد انصراف أبيه سراً كبيراً خطيراً وهو أن أباه اسماعيل أرسل بعض رجاله لملاقاة جباة الأموال الأميرية من الداخلية واستخلصوا من أيديهم صناديق الأموال التي قبضوها فأخذوها رأساً إلى اسماعيل وكان له إذ ذاك راتب سنوي قدره مائة ألف جنيه، أما مالية مصر فكانت تحت إشراف الدول الدائنة وفي صدرها إنكلترا وفرنسا فلم يصل

المال إلى صندوق الدين، فصدرت «الأهرام» في اليوم التالي وفيها هذا النبأ بطريقة بسيطة مقتضبة، فثار جنون اسماعيل وبعث يطلب إليه سليم تقلا رئيس التحرير وبشارة تقلا مدير الشؤون.

كانا يعلمان أن نتيجة ذلك وبال عليهما، فقال بشارة لسليم اختبيء أنت أما أنا فأسلم نفسي للخديوي. فلما سلم نفسه ظل مسجوناً في القصر ثلاثة أيام دون أن يعرف أحد عنه شيئاً. وبعد ذلك طلبه الخديوي، فلما مثل في حضرته انهال اسماعيل عليه بالسباب والشتائم ثم التفت إلى رجاله وقال لهم «خذوا هذا الخائن واقتلوه». فلما بلغوا به باب البهو التفت بشارة إلى اسماعيل وقال له بجرأة نادرة المثال «إن دمي سيكون عنواناً لاضمحلال عرشك!» وكان بشارة مشهوراً بعلاقته بالقنصلية الفرنسية وعطف فرنسا عليه، فلما سمع الخديوي اسماعيل هذا التهديد حسب له ألف حساب وتوهم أن ذلك صادر بإيعاز من قنصل فرنسا لأن رجلاً فرداً كبشارة تقلا لا يجرؤ على إرسال هذا التهديد من عنده. وكانت هذه الجرأة الغريبة سبباً لإنقاذ بشارة تقلا من براثن الموت.

هذه أمثلة مما كان يقصه علي صديقي داود من شؤون «الأهرام» التي أحرزت على عهده منزلة سامية يحسدها عليها كثير من الصحف المصرية. وقد ظل مجاهداً في سبيلها رافعاً لواءها الخفاق ومنارها المتألق حتى آخر حياته. وقل بين الصحفيين من كان مخلصاً لجريدته متفانياً في سبيل حياتها متفانياً في سبيل رفعتها ومجدها كما كان داود بركات مخلصاً للأهرام ومتفانياً في سبيل مجدها.

كانت «الأهرام» الجريدة التي كنت أبعث إليها بمقالاتي، وكنت أتردد إلى مكتبها كأنه مكتبي وأتحدث إلى صديقي العزيز داود والابتسامة الحلوة تزين وجهه اللطيف وأقاصيصه الواقعية الساحرة تأخذ بمجامع القلوب كأنها روايات خيالية. ثم عند انتهاء عمله نعود إلى الاسبلندد بار أو نسير في طريق كبري قصر النيل حيث يجري إله مصر في عقيقه الجميل تحف به الرياض الغناء وعلى مقربة منها قصر الجزيرة حيث أقيمت حفلات باهرة للإمبراطورة أوجني أيام مجدها وعزها والشمبانيا يجري عند قدميها كالماء وحفلات الخديوي اسماعيل تتمثل أمامها بجمالها وغرابتها وفخامتها كأنها شطر من أقاصيص ألف

ليلة وليلة... أسير وصديقي العزيز داود والنهر العظيم الفخم يجري صامتاً تحت أقدامنا حاملاً تاريخ مصر العجيب وتمدنها القديم الغريب وأديانها وأسرار فراعنتها وسعادتها وتعاستها وأسرار اسماعيل الغريبة وأقاصيصه العجيبة، ونظل كذلك إلى ساعة متأخرة من الليل إذ يودع أحدنا الآخر ونفترق إلى اليوم التالي.

إلى روحك الطاهرة يا عزيزي داود أبعث من وراء الأوقيانوسات والبحار سلاماً مضمخاً بالعطور يحمله النسيم، ووداعاً أبدياً تحمله ذكريات أيامنا السعيدات السالفات ولياليناا الحافلات بالأحاديث الماضيات الراقيات الجميلات. ومن وراء الأوقيانوسات والبحار أضع على ضريحك حيث تنام وسط أمجاد قلمك هذه الزهرة التي تفوح بشذا أخلاقك وعبير لطفك وجميل صداقتك وسمو أدبك، فارقد بسلام إلى أن ينبثق الفجر ويلوح الصباح ويدور الدهر وتمتزج الأرواح!

أبطال العبودية

داود عمون
والجوالي اللبنانية

حاول داود عمون[16] الظهور على مسرح سياسة لبنان منذ إعلان الدستور العثماني، فبعد أن كان يقول باستقلاله الخاص، جنح إلى إدغامه في جسم الدولة العثمانية جملة، وشرع يبشر بوجوب إرسال ممثلين له إلى مجلس الأمة ممهداً الطريق ليكون واحداً من أولئك المندوبين. ولكن غريزة الشعب اللبناني غلبت سفسطة المحامي وقضت على الفصل الأول من رواية عمون.

كان الفصل الثاني من روايته على مسرح باريس يوم كان من سوء حظ لبنان أن يرأس الوفد الذي ادعى أنه يمثّل أماني اللبنانيين.

في باريس، التقى النابغة عمون مكتشف استقلال لبنان الإداري بعد أن طمرته طبقة جيولوجية زهاء ستين سنة بالنابغة غانم مكتشف الحماية الفرنسية كما اكتشف المنقبون جنائن بابل المعلقة. وهناك جلس النابغتان لتقرير مصير لبنان السيئ الطالع.

ليس في كل ذلك شيء من الغرابة، ولكن الغرابة في شيئين: أولهما أن عمون تجشم مشاق السفر إلى باريس ليطلب من مؤتمر الصلح «إثبات استقلال لبنان الإداري» كأن هذا الاستقلال المبارك هارب منا. وثانيهما، وهو أشدهما غرابة، أن عمون رأى بعد محادثته غانماً أن يحيد عن الخطة التي رسمها له وللوفد مجلس الإدارة ويطلب أن يكون لبنان في عداد ولايات سوريا، فيما لو كانت نعمة الحماية ستبسط جناحيها اللطيفتين على هذين القطرين معاً.

---

16 [داود عمّون (1867-1922) محام وكاتب لبناني عمل في حقل المحاماة في مدينتي قنا وطنطا في مصر. انتخب عام 1912 ممثلاً لمديرية دير القمر في مجلس إدارة جبل لبنان الذي كان عدد أعضائه 12 عضواً. انتقل من خدمة الأتراك إلى خدمة الفرنسيين، وترأس الوفد اللبناني إلى مؤتمر الصلح في باريس سنة 1919 مطالباً بالحماية الفرنسية للبنان. كرمته سلطات الاحتلال الفرنسي بتقليده مناصب حكومية].

بقي هنالك أمر ثالث أشد غرابة من الأمرين المتقدم بيانهما، وهو أن يحتفي مجلس الإدارة بعودة ذلك الوفد الميمون الطالع ورئيسه الذي رأى أن يحيد عن الخطة التي رسمها له المجلس المذكور.

لا نريد أن نشرد عن الموضوع الذي نحن بصدده، بل نكتفي هنا بالإلماع إلى الموقف المشوش الغامض الذي وقفه عمون في باريس ولبنان معاً، فمن طلب استقلال بمعناه السياسي المتعارف، إلى طلب استقلال إداري منفصل كل الانفصال عن سوريا تحت حماية فرنسا، إلى طلب هذا الاستقلال بالاشتراك مع سوريا، إلى خلط غريب بين الحماية والوصاية والمساعدة، إلى خدمة فرنسا وحدها بصرف النظر عن لبنان، إلى الشكوى من معاملة فرنسا اللبنانيين معاملة جائرة كادت تضطره وحبيب السعد إلى مغادرة لبنان إلى القطر المصري، إلى غير ذلك من المتنافرات والمتضاربات مما تعدد منه ولا نعدده.

والآن وقع مكتشف استقلال لبنان الإداري على اكتشافين آخرين خطيرين أولهما أنه لا يوجد بين اللبنانيين من يصلح ليكون رئيساً لجمهورية لبنان، فيجب إذن إسنادها إلى إفرنسي. وثانيهما أن كلام المهاجرين اللبنانيين «لغو في لغو»!

ولقد حدث مؤخراً خلاف بينه وحبيب باشا السعد فيما يختص بالرئاسة المشار إليها. ونحن وإن كنا نرى في أعمال السعد الماضية مجالاً للانتقاد، فإننا نؤيده في رأيه ونحبذ الخط الثاني لدفاعنا بعد أن برهنت فرنسا على فشل وصايتها علينا وألقت القبض على نوابنا. أما عمون فإنه يريد أن يسلم ما بقي في يد لبنان من السلاح دون نضال على الإطلاق، بل يريد أن يسلمه مختاراً لا مضطراً.

ولما كنا لا نلقي الكلام على عواهنه، نأتي هنا على شذرات من مقال لداود بك عمون بهذا الصدد لأننا لا نريد أن نظلم أحداً. قال حضرته بعد مقدمة وجيزة وفيها بيان وجه الخلاف بينه وحبيب باشا السعد ما يأتي:

«يرى عطوفة الباشا أن لبنان بحكومته من مجلس إدارة ومأمورين وجندية وعدلية، قادر على حكم نفسه حكماً إدارياً مستقلاً ـ يرى ذلك وهو قد استلم رئاسة الحكومة من بدء الاحتلال إلى اليوم ـ بل من قبل زمن الاحتلال ـ عشرين شهراً كان في خلالها مسموع

الرأي نافذ الكلمة، لا يعارضه فيما يريده معارض ولا يقف في وجهه خصم لنفوذه في المجلس الإداري وفي مجالس المحتلين، فكأنه يعتبر أن الإصلاحات التي وقعت في هذه الفترة جديرة بتأييد رأيه».

الغريب أن يقول عمون هذا القول وهو يعلم كل العلم أنه لا حبيب باشا السعد ولا هو ولا أحد غيرهما كان في خلال زمن الاحتلال «مسموع الرأي، نافذ الكلمة لا يعارضه فيما يريده معارض»، بل الحقيقة التي لا مراء فيها أن عمال فرنسا في لبنان هم الذين كانوا أصحاب الرأي المسموع والكلمة النافذة، وأن مجلس الإدارة كان مسيراً بأوامرهم ومسخراً لأغراضهم، فمن سولت له نفسه المجاهرة بشيء من الجرأة والإخلاص لوطنه واستصرخ مواطنيه كموا فمه وأسكتوا نداءه وضغطوا حريته واستبدوا به كما فعلوا بسليمان بك كنعان. وكيف يمكن أن تكون كلمة لبناني مسموعة تجاه دولة محتلة تريد أن تبسط حمايتها بالسيف والمدفع، إذا كان هو راغباً في استقلال وطنه عاملاً على إعلان آرائه بالحرية والجرأة اللتين لا بد منهما في مثل هذه المواقف؟

كيف كان حبيب باشا السعد أو سواه مسموع الرأي، نافذ الكلمة وقد وقفت الدولة المحتلة في وجهه ووجهك يوم دعونا الشعب اللبناني ليأتي بعبدا ويقرر مصيره؟

وكيف كان ذلك الشعب المسكين مسموع الكلمة يوم التأم وطلب أن تكون رايته أرزة خضراء على رقعة بيضاء، فاضطرنا الشعب اضطراراً إلى القبول بأرزة على الرقعة البيضاء من راية الدولة الفرنسية فأخرجها حبيب باشا السعد من جيبه عملاً بأوامر غورو؟ وكيف كنتما نافذي الرأي ولم يكن لكما رأي على الإطلاق سوى الرأي الذي كان يصدره غورو؟ وكيف يكون لكم رأي وقد حدث أنت في باريس عن الرأي الذي قدمه مجلس الإدارة؟ أي رأي لكما نفذته الحكومة المحتلة سوى مضاعفة راتبيكما؟ أي كلمة مسموعة لكما سوى كلمات التزلف التي كنتما تقدمانها بخوراً أمام مذبح القوة؟ أما الشعب المسكين الذي ائتمنكما على حريته واستقلاله، فقد لعبتما به لعب الصبيان الأكر ولم يهمكما من أمره غالباً إلا قبض راتبكما والتربع في وظائفكما ـ لم يجرأ أحد منكم على أن يرفع صوتاً في سبيل لبنان سوى سليمان كنعان وإن كان ذلك الصوت ضئيلاً ـ أفي سبيل

الاستقلال الإداري ملأتما العالم ضجيجاً وكان هذا الاستقلال مضموناً لنا من دول أوربا العظمى دون أن يتداخل في شؤوننا أحد من رجالها؟ أتسميان هذه الألعوبة التي دفعها إلينا كليمنصو لنتلهى بها استقلالاً؟ أتحسبان أنفسكما ممثلي شعب حر ليكون لكما رأي نافذ وكلمة مسموعة؟ ألم يصرح لكما غورو مؤخراً أن ما يقوله لكما إنما هو أوامر حربية لا تقبل مناقشة ولا جدلاً؟ ألم يحتج غبطة بطريرك الموارنة نفسه على أعمال عمال فرنسا في لبنان قائلاً إنها ذهبت بالثقة التي كانت للبنانيين بفرنسا؟

تابع عمون بك كلامه فقال بعد ما تقدم ما يلي:

«أما أنا فلا أرى هذا الرأي ومع اعترافي بأن الشعب اللبناني من أذكى الشعوب فطرة ومن أسرعهم إلى التطور والرقي عملاً وأخلاقاً، أرى أن الجيل الحاضر غير كفوء للاستئثار بالحكم إذ تنقصه ـ وأنا منه ـ التربية السياسية والأخلاق الاجتماعية. لا أعتقد بمقدرة مجلس الإدارة وحده على إصلاح البلاد وإن سهر نوابه ولم يغمض لهم جفن ولا بتجرد زعماء لبنان وهم يذرعون النضار بين الشام ولبنان سعياً وراء الراتب الأوفر حتى استحقوا أن يُنسب إليهم الحط من قدر لبنان وكرامته، ولا أرجو مساعدة جدية من لبنانيي المهجر، فأعمالهم وكتاباتهم لغو في لغو. بقيت مسألة الحاكم أو رئيس الجمهورية، وهي مسألة ذهبت فيها الوشاية ضدي كل مذهب. فرأيي فيها أن يكون الحاكم أو الرئيس المذكور لبنانياً صميماً بحكم القانون الأساسي إلا في السنوات الخمس الأولى ينتخبه مجلس الأمة اللبناني من رجال الدولة المحتلة بطريقة استثنائية لمعرفته بالإصلاح وطرقه ولصعوبة اتفاق الطوائف على رجل منها الآن واجتناباً لإثارة بواعث منافسة لا تزال راسخة في النفس حديثة العهد ولغياب كثيرين من اللبنانيين اللايقين لهذا المنصب عن الوطن على أن يتقيد بأحكام البلاد وقوانينها، حتى إذا مضت المدة المحدودة عدنا إلى حكم القانون الأساسي.

«هذا خلافي مع حبيب باشا السعد أعرضه على محكمة الرأي العام وهو كما ترون منحصر في إدارة البلاد الداخلية، أما الأمور الخارجية كتكبير لبنان واستقلاله، فكلانا يتمناها ويرجو من الله ومن مؤتمر الصلح تحقيقها».

إن الإفلاس السياسي مدار كلام عمون وهو يطلب من وطنه أن يقدم «طابقه» معه إلى غورو. وإذا كان لبنان قد شعر الآن بصدمة كبيرة كثيراً ما تعتري التاجر في سياق أعماله، فهو لا يشعر بأنه مفلس ولا بأنه مشرف على الإفلاس، فله من أبنائه العاملين له والمؤمنين به وبارتقاء رجاله رأس مال يقيه هذا الإفلاس.

وقد رأى هذا المطالع مما تقدّم بيانه في صدر هذه المقالة أن عموناً ذهب إلى باريس لخدمة فرنسا لا لخدمة لبنان، لأن أعماله كلها هناك كانت دائرة على محور الحماية الفرنسية، وما إذا كانت هذه الحماية المباركة تتناول لبنان فقط أو تتعداه أيضاً إلى سوريا، ولم تكن دائرة على ما إذا كان ينال استقلالاً تاماً مطلقاً أو استقلالاً بمساعدة فرنسا له مساعدة لا تمس استقلاله.

وعمون بك يدرك قبل سواه أن بين اللبنانيين كثيرين من الذين يصلحون لرئاسة جمهوريته والقبض على أزمة شؤونه والجري به في مضمار الأمم الراقية، بل إن الشعب اللبناني على الجملة أرقى من كثير من الشعوب الأوروبية، وقد يكون معدّل الذين يعرفون القراءة والكتابة من الجيل الجديد الحاضر أعلى منه في فرنسا نفسها، وقد يكون متوسط كمية المعرفة في هذا الجيل إذا جاز لنا استعمال هذا التعبير أكبر منه في الشعب الفرنسي نفسه. والذي ينقصنا اختصاصيون في الشؤون الاقتصادية ومن السهل استخدامهم لمثل هذه الأغراض. أما فيما يختص بأمن لبنان وانتظام حكومته فقد أدرك العميان فضلاً عن المبصرين أن حكومة سوريا الوطنية كانت أفضل حالاً وأدق نظاماً وآمن مقاماً من حكومة الاحتلال في لبنان حيث كثرت التعديات في نفس بيروت التي كانت مركز الاحتلال، وتشوش النظام إلى حد بكى عنده الأهلون على زمن الأتراك واختلط عنده الحابل بالنابل وعمت الفوضى، وهي إذا لم تكن مقصودة من فرنسا دلت على إفلاس في السياسة لا مثيل له في تاريخ لبنان على الإطلاق. وإذا جاز لنا الحكم مما جرى عليه الاحتلال الفرنسي في لبنان بعد عقد الهدنة وأثناء مؤتمر الصلح وجب على الوصية والقاصرة أن تتبادلا المراكز.

أما تصريح عمون بأن أعمال لبنانيي المهجر وكتاباتهم لغو في لغو، فإهانة للجوالي اللبنانية

لا مسوغ لها على الإطلاق ونكران لجميلها الباهر على الوطن وكفران بفضلها وإساءة إلى كبار رجالها وقادة الرأي العام فيها وصحافييها الذين بُحت أصواتهم كلهم في سبيل الاستغاثة والاستصراخ، وكلت أناملهم في سبيل الكتابة وحفيت أقدامهم في سبيل السعي لجمع الإحسان وضحوا بمصالحهم التجارية الكبيرة في سبيل إنالة الوطن استقلاله ووقعت عليهم اضطهادات شتى في سبيل حرية ضميرهم وإخلاصهم لوطنهم.

من هؤلاء اللبنانيين الذين يعدّ عمون كلامهم لغواً في لغو، خرج أول نداء يطلب الاستقلال. ومن هؤلاء اللبنانيين تقدمت الرسائل البرقية والبيانات السياسية إلى مؤتمر الصلح. ومن هؤلاء اللبنانيين طارت الشرارة الأولى التي كهربت اللبنانيين والسوريين معاً للمطالبة بحقوقهم المسلوبة وأوطانهم المغصوبة. ومن هؤلاء اللبنانيين ذهب المتطوعون ليسفكوا دماءهم الزكية في سبيل الوطن. ومن هؤلاء اللبنانيين عرف العالم المتمدن شيئاً من قضية لبنان. ومن هؤلاء اللبنانيين لا تزال تخرج أصوات الاحتجاج رغماً من أن كثيرين من المتخلفين وفي صدرهم داود بك عمون قصّروا في واجبهم المقدس نحو الوطن. وهؤلاء اللبنانيون هم رأس مال لبنان بعد أن قدّم داود عمون وأضرابه «طابق» إفلاسهم.

من زمان هذا القمر ما بان

لم نقف إلا مؤخراً على شيء يستحق الذكر من أعمال النابغة داود عمون الذي بذل جهداً كبيراً في خيانة وطنه وتمهيد الطريق لحاكم عام إفرنسي على لبنان وقبض في هذا السبيل ثلاثة آلاف ليرة إنكليزية.

عمون إفرنسي في سياسته، أما في مسألة المال فإنكليزي يؤمن بعجائب مار جرجس المرسومة صورته على النقود الإنكليزية.

أما مظاهر النبوغ الجديدة فهو تأسيسه في بيروت حزباً سياسياً علاوة على الحزبين الموجودين فيها وهما الحزب الديمقراطي وحزب الترقي اللذان أتينا سابقاً على ذكرهما، ولقد اجتمع لهذا الغرض مع بعض الوجهاء وسمّى حزبه الجديد «ثالث القمرين» إشارة إلى الحزبين المشار إليهما.

ولا ريب عندنا في ما تكون وظيفة هذا القمر الثالث، فهو قمر شؤم يدور حول دولة شؤم كما تدور حلقات زحل حول هذا السيّار الذي اعتبره الأقدمون والمتأخرون سيّار الشؤم.

داود عمون يريد أن يكسب خيانته صفة وطنية ويسندها إلى حزب سياسي، ولكن يلوح لنا أن عمون يريد أن يحفظ بهذا الحزب خط الرجعة كما حفظه حبيب السعد. وعندنا أن هذا أعظم دليل على أن أيام داود عمون في حكومة لبنان قد أصبحت معدودة، لذلك يريد أن يكون هو أيضاً وطنياً بعد أن تقذفه فرنسا من حالق.

يظهر أن الوطنية اللبنانية عند بعض نوابغنا ليست إلا مصرفاً لتجار السياسة!

الضمائر المطاطة في لبنان

يظهر أن نواميس الطبيعة واحدة في العالم المنظور وغير المنظور، فالمرونة من خصائص الضمير، كما أنها من خصائص المادة. وكما أن المواد تتفاوت في المرونة، كذلك الضمائر ـ يمكنك أن تمطّ حلقة من المطاط أو الغوكابرخا لا يزيد قطرها عن سنتيمتر إلى حد تحيط عنده برزمة أوراق يبلغ قطرها عشرين سنتيمتراً. أما حلقة العاج مثلاً، فمع أن لها خصائص المرونة فمرونتها غير منظورة، ولا يمكنك أن تضع ضمنها إلا بقدر قطر دائرتها.

في لبنان وسوريا نفرٌ بلغت مرونة ضمائرهم حداً فاحشاً واجتازوا أطواراً غريبة. ففي أيام عبد الحميد كانوا يسبحون بحمده ويحرقون البخور أمام عرشه. وفي أيام الدستور بلغت حريتهم درجة البياض من الحرارة. وفي أيام الحركة العربية تغنّوا بأمجاد العرب. وفي أيام الحرب ترنموا بمدح أنور وجمال. وفي أيام الحلفاء سجدوا لدول الحرية والعدل. وفي أيام فيصل عفروا وجوههم على أعتاب الحجاز. وفي أيام الحركة السورية الاستقلالية وقفوا تحت لواء الاستقلال التام المطلق. وفي أيام فرنسا تسابقوا إلى تمجيد دولة الحرية والأخاء والمساواة ولا يزالون كذلك حتى الساعة.

لا بأس بأن يكونوا كذلك، ولا غرابة في عملهم مهما كان، ولا شأن لنا معهم. ولكننا لنا شأن مع أولئك المرائين الفنيين الذين كان الواحد منهم في كل موقف من هذه المواقف يصعد إلى دكة الخطابة ويلبس المرآة ثوباً فلسفياً ويبرهن للسامعين أشياء كثيرة غابت عن ذاكرتنا ولم يبقَ منها سوى أن ذلك الخطيب ليس إلا صورة طبق الأصل للطبيب توما!

حبيب السعد[17] وداود عمون

[1]

ما فعل الدهر يا ترى بالسعد وعمون؟ أين هما الآن بعد أن أقلقا راحة لبنان بمشاغباتهما وصياحهما وتسابقهما على الوظائف؟

لا ريب عندنا أن السعد الآن من أكبر القائلين باستقلال لبنان التام المطلق لأن رئاسة جمهوريته قد تملصت من يده كما تتملص السمكة من يد الصياد، وسيحاول أن يظهر نفسه أمام اللبنانيين بمظهر الشهيد ذهب ضحية وطنه.

السعد قام بواجبه الوطني فاحتجّ على رصفائه أعضاء مجلس الإدارة لخيانتهم وطنهم وتناولهم الرشوة من «الحكومة الشريفية» لبيع لبنان.

وعمون؟ عمون بعد أن أفلح بوضع ترابو على رأس حكومة لبنان، جالس الآن في بيته يضحك من السعد. عمون هدم الهيكل على نفسه والسعد قائلاً «عليّ وعلى أعدائك يا رب».

إذا كان غورو قد أنزل هذين الصنمين عن كرسييهما حسبناها له حسنة كبيرة تمحو شيئاً من سيئاته الكثيرة.

[2]

عاد هذان البطلان إلى الظهور بعد أن تواريا عن الأبصار زمناً حسبناهما في خلاله قد أعرضا عن الخوض في السياسة بعد أن أصبح لبنان ألعوبة صبيانية في يد فرنسا. ولكن

---

17 [حبيب باشا السعد (1867-1942) سياسي لبناني خدم بأمانة الاحتلال الفرنسي حتى وفاته. نصبه الفرنسيون رئيساً للحكومة اللبنانية ما بين آب 1928 وأيار 1929، ثم عينوه رئيساً للجمهورية ما بين كانون الثاني 1934 و20 كانون الثاني 1936].

وطنية هذين النابغتين المتفانيين في حب لبنان لا تعرف حداً، فقد عادا إلى مجلس الإدارة الممسوخ ليأخذا أجرة خيانتهما وطنهما.

أوسمة الشرف والوفد اللبناني الثالث

اتهم غورو أعضاء مجلس إدارة لبنان ببيعهم وطنهم إلى «الحكومة الشريفية» يوم كانوا ذاهبين إلى دمشق ليتفقوا مع الحكومة السورية بشأن استقلال لبنان التام المطلق، واتخاذ الذرائع الفعّالة بالتضامن لنيل استقلال لبنان واستقلال سوريا، لأن أعضاء المجلس المذكور أدركوا أخيراً ما كنا ننادي به قبلاً، وهو أن الدولة التي تزدرد سوريا تلتهم لبنان وأن من مصلحة اللبنانيين والسوريين أن يعملوا بالتضامن لما فيه استقلالهم.

حسبت فرنسا هذه الخطوة خيانة للبنان، وسمّت أعضاء مجلسه خونة مرتشين. أما الوفد اللبناني الثالث الذي ذهب ليبيع وطنه إلى الحكومة الفرنسية بأبخس الأثمان، فقد حسبته عاملاً مخلصاً لوطنه لأنه وضع على عنق لبنان النير الفرنسي وحكّم الفرنسيين في رقاب أهله، فأنعمت عليه بوسام جوقة الشرف.

بعث غورو هذا الوفد السيئ الطالع إلى باريس على حساب الحكومة الفرنسية إن لم يكن على حساب الحكومة اللبنانية، وقامت بجميع نفقاته أثناء هذه الأشهر الطويلة وأعادته إلى الوطن سالماً معافى، مزينة صدور أعضائه بوسام «اللجيون دو نير».

ذهب هذا الوفد ليطلب من فرنسا أن تقبل بما أقلقت للحصول عليه راحة السماء والأرض، وهددت سلام العالم وعلاقتها مع الدولة البريطانية ـ ذهب ليسألها أن تقبل بسط حمايتها ووصايتها علينا. نشكر هذا الوفد غيرته الوطنية وذكاءه المتوقّد لأنه لو لم يتداركنا ويتحمل مشاق السفر ويضحي براحته ووقته وماله، لكانت فرنسا بكل تأكيد رفضت كل الرفض أن يكون لها أدنى علاقة معنا!

[3]

في الساعة الثانية عشرة تماماً، أدرك حبيب السعد أن السلطة التي استعملته آلة للتلاعب بشؤون لبنان، استعملت غيره آلة للتلاعب به وبسائر اللبنانيين.

أدرك أيضاً أن الحكومة التي لا ترعى عهد شعب، لا ترعى عهد فرد. وأن القائد الذي استخدمه للاحتجاج على أعضاء مجلس الإدارة «الخائنين» استخدم غيره للاحتجاج على حبيب السعد «الأمين».

بالكيل الذي كال به لأعضاء مجلس إدارة لبنان، كال به له داود عمون ـ عين بعين وسن بسن وخيانة بخيانة.

الخطأ الذي ارتكبه السعد فيما يختص بمصلحته الشخصية أنه عرّج بين الفرقتين وحاول أن يحمل بيد واحدة بطيختين ـ حاول أن يظهر أمام الفرنسيس بمظهر الرجل الذي يخدمهم خدمة صادقة ومثّل في بعض أحاديثه إخلاصه لفرنسا مموَّهاً بطلاء الوطنية، ولكنه حاول أيضاً أن يظهر أمام أحرار اللبنانيين الجريئين حراً، جريئاً، فلا هو جلس على كرسي فرنسا ولا على كرسي لبنان، وكانت نتيجة محاولته أن يجلس على هذين الكرسيين كليهما السقوط.

لذلك لما رأى أن رئاسة اللجنة التي عيّنها غورو وعيّن رئيسها أيضاً وراء ستار الانتخاب الشفاف غير معهود بها إليه، قدّم استقالته منها والساعة تدق إثنتي عشرة دقة. فلما بلغ كتاب استقالته الجنرال غورو، بعث إليه بالجواب الآتي عن طريق حاكم لبنان الكبير:

من الجنرال غورو القومسير العالي للجمهورية الفرنسوية في سوريا وقيليقية إلى القومندان ترابو حاكم لبنان الكبير:

«وردني من حبيب باشا السعد كتاب بتاريخ 4 ت1 يفيدني به أنه لحظ قلة ثقة الحكومة الفرنسوية به، لذلك رأى من الواجب عليه أن يتنحى. فنؤمل أن تبلغوه وصول استعفائه وتضيفوا إلى ذلك إني كسائر الناس قد استغربت جداً هذا الاستعفاء غير المنتظر والوارد متأخراً. وفي الواقع إنه لأمر مستغرب أن الباشا انتظر يوم وساعة الانتخاب حتى افتكر أن

ثقة الحكومة الفرنسوية به ضعفت، والحقيقة ظاهرة جلياً، فإن الباشا كان يجب أن يخدم بلاده كرئيس اللجنة، لكنه حينما شعر أنه فقد ثقة مواطنيه وليس ثقة الحكومة الفرنسوية التي تركت الحرية المطلقة في الانتخابات، اعتبر أن خدمته للبنان بصفة عضو بسيط هي دون قدره، فلم يكن ذلك دليلاً على إخلاصه للبلاد. على أنه لا يوجد في العالم رجل لا يمكن الاستغناء عنه، وانسحاب حبيب باشا السعد لا يمنع اللجنة الإدارية من مواصلة العمل في سبيل نجاح لبنان الكبير».

أما عمون، فإنه جرى على طريقة علمية منذ أول الأمر، فرأى عندما ذهب إلى باريس أن يحيد «قليلاً» عن الخطة التي رسمها له مجلس الإدارة وذلك بعد المخابرة مع غانم. ولما عاد إلى لبنان اكتشف أنه من الضروري لخير وطنه أن يُنصب عليه حاكم إفرنسي، وقطع هضاب لبنان في هذا السبيل الوطني.

عمون يقبض الآن أجرة خيانته، فهو رئيس اللجنة الإدارية التي عينها غورو تعييناً، وعين رئيسها بالانتخاب التعييني، أي أن غورو أمر بانتخابه. وسيبقى هذا الصنم على كرسيه ما زالت مصلحة فرنسا تقضي بذلك.

كان في مكة صنمان شهيران يسمى أحدهما العزّة والآخر اللاّت ـ سقط الآن من صنمينا العزّة بقي علينا أن ننتظر سقوط اللاّت!

الراية السورية

لا يزال شكل الراية السورية شغلاً شاغلاً لبعض المواطنين المتفانين في خدمة سوريا، ولقد أتينا في العدد الفائت على اقتراح صديقنا حقي بك العظم القائل بوضع سنبلة في الشقة البيضاء من علم الحرية والإخاء والمساواة، وقلنا كلمتنا في هذا الرأي المبتكر. وقد طالعنا رأياً مبتكراً آخر مفاده أن البلاد السورية كانت قبل الفتح الإسلامي تحت السيطرة البيزنطية وشعارها الهلال، فأضاف الأتراك إلى هذا الشعار نجمة فصار راية للدولة العثمانية استعملتها سوريا زهاء أربعمائة سنة إلى أن أسبغ الله عليها نعمة الانتداب الفرنسي. لهذا اقترح بعض أصحاب العقول المبدعة أن تؤخذ الراية الفرنسية المثلثة الألوان ويوضع محل أرزة لبنان وسنبلة حقي العظم النجمة والهلال ويتخذ كل ذلك علماً سورياً عاماً.

الرأي جميل جداً والاقتراح بديع والابتكار أبدع، ونحن نوافق على كل اقتراح من هذا النوع لأن الاستقلال لا يضره ما إذا كفنه العلم الفرنسي وحده أو منقوشاً بسنابل أو أهلة ونجوم أو غير ذلك من الصور الشعرية الجميلة التي تدل على تفوّق نوابغ اللبنانيين والسوريين.

ونحن بدورنا نضيف إلى هذا الاقتراح أن يوضع وسط الهلال ثلاث نجوم بدلاً من النجمة الواحدة أولاً لأن النور الصادر من ثلاث نجوم فيه ضياء أكثر من الصادر من نجمة واحدة. ثانياً لأن للنجوم المذكورة موضوعة في وسط الهلال على شكل مثلث منظراً بديعاً. ثالثاً لأنه بهذه الطريقة نميزه (بعبارة) ما تقول:

لتحي دولة الحرية والديمقراطية!

وفي هذا الاقتراح شيء آخر جميل جداً وهو أن فيه دلالة على ولائنا للدول التي حكمتنا سابقاً والدولة المجيدة التي تحكمنا حالياً. فالهلال دليل على ولائنا للدولة البيزنطية التي

سيطرت علينا دهراً طويلاً، والهلال مع النجمة دليل على ولائنا للدولة العثمانية التي ظللنا تحت حكمها نحواً من أربعة قرون، والراية الفرنسية دليل على تعلقنا بوصيتنا الخالدة التي جاءت لتقيم معنا إلى الأبد.

ولكن ما لنا نتكلم كأننا نحن والسوريون بلاد واحدة تحت راية واحدة؟ فقد نسينا الدولة اللبنانية التي أعلن استقلالها الجنرال غورو أمام الجموع المحتشدة والأسر الشهيرة ونواب الدول وممثلي فرنسا وسفح الجبال الشامخة والبحر التاريخي! ولنا الآن «نظام لبنان الكبير»، وهو أبدع نظام بموجبه نأكل ونشرب ونطرب لأننا غداً نموت.

توما ويهوذا الأسخريوطي

بين السعد الذي وقف متلجلجاً بين وطنه وفرنسا ولم يؤمن إلا بعد أن وضع إصبعه في المسامير التي دقّها صالبوه في يديه ورجليه، وبين عمون الذي أسلم وطنه للصلب وهو يقبض الآن الثلاثين من الفضة أجرة خيانته، لا نتردد في تفضيل الأول على الثاني، لأن التلجلج دليل على بقية من الوطنية والضمير خلافاً للخيانة الصريحة التي هي تجديف على الروح القدس.

إذا كان السعد قد تاب الآن عن خطاياه الوطنية وألقى قرعته في كيس الوطن، ووقف وقفة صريحة مع الواقفين بجانب صليب لبنان، وأعرض عن استخدام الوطنية سلماً للأغراض الشخصية والزعامة القومية، وأخلص الخدمة لقومه بجرأة وصراحة وإخلاص، فكما غفر المسيح لتوما كذلك يغفر لبنان لحبيب وإن كان قد جاء يعمل في حقله في الساعة الثانية عشرة.

لا نطلب منه أعذاراً ولا إيضاحات عن ماضيه لأن الماضي للتاريخ، أما الحاضر فلنا. وفي سبيل الوطن المقدس نتجاوز عن سيئات السعد، وفي سبيل الاتحاد الذي هو قوة نقبله في صفوف أحرار اللبنانيين إذا أخلص العمل بجرأة وصراحة لأن من يخدم وطنه يجب أن يكون رحيب الصدر مضحياً بعواطفه، والتضحية بالعواطف في سبيل الوطن من أعظم الخدم الوطنية.

نقول ما تقدّم لأننا علمنا أن السعد انضم بعد استقالته إلى رصيفنا الحزب الوطني اللبناني وأنه طُلب منه أن يكون رئيساً للحزب المذكور، وأن العرائض توقّع في سائر أنحاء لبنان للاحتجاج على الاستبداد وأن اللبنانيين يرحبون بهذه العرائض ويلاقون حامليها بالحماسة والحداء. فالنهضة المباركة آخذة في الانتشار والثورة على الأبواب إذا لم يرجع عمال فرنسا عن أعمالهم الجائرة ونظاماتهم الظالمة.

بقي علينا أن نرى ما يكون عمل السعد تجاه كل ذلك، وهل يتخذ الزعامة المقبولة ذريعة للعودة إلى رئاسة مجلس الإدارة تحت تحكم فرنسا ورجالها، فينهي عمله ويكون سقطاً قبل أن يولد طفلاً.

هل يريد السعد أن يسير مع الأحرار في الطريق الضيّق السير المملوء أشواكاً واضطهادات وغنائم أم يريد السير في الطريق الواسع الذي يسير فيه العادمو الإيمان، الضعيفو القلوب، القليلو العزائم.

هل يريد أن يضحي بالوطنية والاستقلال التام المطلق أو على الأقل بالاستقلال بوصاية محدودة الأجل معروفة الاختصاص مع بقاء سيادة الشعب على نفسه في سبيل زعامة مجلس إدارة لبنان المقبل تحت أوامر فرنسا واستبدادها؟

وبعبارة وجيزة، هل يريد أن يسير معنا إلى النهاية، أم يرتدّ على عقبه في منتصف الطريق؟ هذا ما سيجلوه المستقبل وعندئذٍ فلكل شأن حديث.

أما عمون، فقد وقف بجانب يهوذا الأسخريوطي وسائر اليهوديين الأسخريوطيين ـ عمون لم يكتفِ بإسلام لبنان إلى الصلب، بل تناول المطرقة بيده ودقّ المسامير في يديه ورجليه. ولما أحنى لبنان رأسه وهو على الصليب بعد مصائب الجوع والأوبئة التي أفنت نصف سكانه وقال بعد نظام لبنان الحالي «قد أكمل!» طعن عمون جنبه بحربة فسال منه دم وماء!

عمون يقبض الآن الثلاثين من الفضة أجرة خيانته، فهو رئيس اللجنة الإدارية، ولكن ثمر الخيانة مرّ كثمر صادوم وعامورة.

نقش عمون اسمه بجانب إسم يهوذا الأسخريوطي والخائن اليوناني الذي دلّ الفرس على الطريق، ففاجأوا الأحرار الثلاثمائة من اليونانيين الذين صدوا في مضيق ترموبيل جيش الفرس كله فأتاهم الفرس من الوراء. ولكننا لسنا ثلاثمائة ولا ثلاثة آلاف ولا ثلاثين ألفاً فقط، بل المواطنون بأسرهم خلا الخائنين والمأجورين.

قطع عمون هضاب لبنان من الطرف الواحد إلى الطرف الآخر حاملاً عريضة ليوقعها المواطنون طالبين حاكماً فرنسياً عليهم لأنه لا يوجد في طول لبنان وعرضه مَن يصلح أن يكون حاكماً!

الخيانة البسيطة قبيحة جداً، أما الخيانة المتفلسفة فلا يوجد في قواميس اللغة نعت كافٍ لقبحها!

حاكمية سوريا وحاكمها الجديد

وافانا أمس نبأ برقي مآله أن الحكومة الفرنسية أوقفت الحكومة السورية عن العمل، وعينت حاكماً على سوريا صديقنا ورفيقنا القديم في الجهاد حقي بك العظم[18].

أعاد هذا النبأ إلى ذاكرتنا الاجتماع الأول الذي عقدناه وفريق من الأصدقاء في القاهرة للمداولة في شأن استقلال سوريا، وكان في الاجتماع المذكور عبد الحميد الزهراوي ورفيق العظم وحقي العظم وداود بركات ورشيد رضا وإبراهيم نجار.

كان السلطان عبد الحميد لا يزال حينئذٍ في إبان مجده وعنفوان قوته، وقد دانت له البلاد ليستبد بها ما شاءت أهواؤه، ويتحكم في أهلها ما شاءت خيلاؤه، فاقترحنا على المجتمعين أننا إذا أردنا القيام بعمل جدي وجب علينا اتخاذ وسائل جدية بواسطة فدائيين، فكل حاكم يظلم الشعب وجبت معاقبته أي يجب دفع ظلم الحكام بعدل الأمة ودفع الإرهاب بالقوة. فالتفت حينئذٍ المرحوم الزهراوي إلى الحضور وقال لهم «اسمعوا ما يقول الدكتور سعاده الرزين الهادئ؟» فأجبته بقول الشاعر:

وللحلم أوقات وللجهل مثلها   ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب

---

18 [حقي العظم (1866-1955) سياسي ومؤرخ سوري من مواليد دمشق، تلقى دروسه في مدرسة اللعازاريين في دمشق ثم تابع دراسته في المعهد العسكري في اسطنبول. تولى مناصب حكومية منها منصب مفتش عام في وزارة الأوقاف. انتقل إلى القاهرة حيث شارك في تأسيس حزب اللامركزية العثماني عام 1911. اتهم من قبل حزب الاتحاد والترقي بعمالته للفرنسيين والبريطانيين وحكم عليه بالإعدام مع آخرين عام 1913. بعد الحرب العالمية الأولى انتقل إلى دمشق حيث تمت مكافأته من قبل قوات الاحتلال الفرنسي بتعيينه حاكماً لحكومة دولة دمشق سنة 1921. تعرض لمحاولة اغتيال عندما كان برفقة الجنرال غورو في منطقة قريبة من القنيطرة. واصل خدماته للفرنسيين إلى أن رفض الوطنيون السوريون وجوده على رأس الحكومة ما بين 1932 و1934 حيث تمت ازاحته عن الحكم].

كان حقي العظم أول مؤيد لنا في هذا الرأي، ورأى مثله أيضاً بقية المجتمعين. لذلك عقدنا النية على تمهيد الطريق للثورة، واتفقنا على ترشيح المرحوم شفيق المؤيد حاكماً على سوريا.

في تلك الأيام وما بعدها، لم نرَ من حقي إلا الحماسة في خدمة الاستقلال، ثم انصرف إلى الجمعية اللامركزية التي كان رئيسها حينئذٍ رفيق بك العظم، وكان هو أمين أسرارها. ونظن أن أكثر الذين ذهبوا في فجر الحرب شهداء اللامركزية والحرية العربية بسبب علاقتهم مع الجمعية المذكورة قضي عليهم لعدم تحفظ حقي في مراسلاته لأن «البضاعة البغدادية» التي كان يذكرها في كتبه إلى أعضاء الجمعية في بيروت، ذهبت بأرواح كل من بقي منهم في البلاد. وقد نشر جمال باشا مراسلات حقي بك بعد صدور الحكم بالإعدام على الشهداء تبريراً لأحكام الشنق.

في أواخر عهد السلطان عبد الحميد قبل إعلان الدستور، جاء أحمد رضا بك القاهرة من باريس للمداولة مع بعض أعضاء تركيا الفتاة الذين اتخذوا مصر ملجأهم، فخابره أعضاء اللامركزية هناك في إمكانية اتفاق العرب والأتراك على خطة ترضي الفريقين لتوحيد العمل، فلم يرضَ إلا بأن تكون السيادة في الدولة للعنصر التركي. لذلك لم يترتب على هذا نتيجة مرضية، وكانت هذه العقبة العائق الأكبر في سبيل الاتفاق بين السوريين الذين كانوا يسمون حينئذٍ عرباً والأتراك العاملين لخلع نير عبد الحميد، وهو دليل آخر على عقم سياسة الأتراك فيما يختص بعناصر الدولة. وأحمد رضا المذكور أشهر رجال تركيا الفتاة وهو الذي انتخب رئيساً لمجلس الأمة بعد إعلان الدستور، وكان قبل ذلك ينشئ جريدة في باريس. ولم يتمكن عبد الحميد من مشترى أحمد رضا رغماً من أن هذا كان في حال فقرية اضطر معها إلى السكنى في غرفة ملاصقة لسقف المنزل كان يكنسها بيده. ولكن أحمد رضا وحزبه اضطرا بعد إعلان الدستور إلى الاعتراف بحقوق بقية العناصر وفي صدرها الأمة السورية والعربية.

لذلك لما أعلن الدستور، حاول الأتراك إرضاء المتكلمين بالعربية جهد الطاقة، وكان حقي في عداد الذين شغلوا وظيفة في الحكومة الجديدة وهي وظيفة مفتش في ديوان الأوقاف في

ناحية من نواحي تركيا أوربا، ولكن لم يطل به الحال حتى استقال وعاد إلى مصر حانقاً على تركيا الفتاة وتركيا العجوز.

في هذا الطور، تفرغ حقي للحركة العربية تحت ستار اللامركزية يدفعه إلى ذلك دافعان، أولهما حب الوطن وثانيهما كره الأتراك. ونظن أنه خدم الحركة المذكورة خدمة كبيرة جرى فيها على شيء من الروح العصري، فجعل لكل مشترك «دوسييه» أي محفظة خاصة، وانقطع إلى هذا العمل حتى جعله شغلاً شاغلاً له.

لذلك كان إعراضه عن الحركة العربية بعد نشوب ثورة الحجاز أمراً دعانا إلى الاندهاش والاستغراب لأن حقي لم يكن قط من عباد فرنسا ولا غيرها من الدول الأوروبية، وكان يفضل الاستقلال العربي على كل ما سواه، خصوصاً بعد اضمحلال تركيا. فانحيازه إلى الدولة الفرنسية وطلبه حمايتها في إبان نجاح الثورة العربية دون سبب شخصي أمر لا يقبله منطق أو عقل سليم على الإطلاق. والرواية القائلة إن حقي فعل ذلك لأن الأمير فيصلاً لم يعينه أمين أسراره أقرب إلى العقل من الخرافة القائلة بأنه طلب حماية فرنسا عن اعتقاد بعطف الأم الحنون.

ردّد حقي بك في كتاباته من حين إلى آخر الخرافة القديمة الرثّة البالية أن السوريين لا يصلحون لحكم أنفسهم. ولا نرد عليه من هذا القبيل إلا بما قصه علينا هو نفسه بعد عودته من الأستانة وهو قوله ما يأتي: «كنا نظن البلقانيين أرقى منا بكثير، فإذا بهم دوننا بمراحل، فقد وجدت السربيين الذين التقيت بهم أثناء تجولي وحوشاً، ولا أثر للتمدن بينهم إلا في المدن الكبرى». فإذا كان السربيون أهلاً للاستقلال يوم كانوا أشد توحشاً منهم الآن، أفلا يجوز لنا ونحن أرقى من السربيين الحاليين بمراحل ما جاز لآباء هؤلاء «الوحوش» منذ عقود من السنين؟

إن تعيين حقي حاكماً على سوريا أظهر الآن هذا السر المكنون وفقهنا لماذا تحوّل عن الحركة العربية في عنفوان قوتها بعد أن خدمها نحواً من خمس عشرة سنة، ولماذا يرى السوريين غير أهل للاستقلال؟ ولماذا يرى العصر الذهبي السوري في قدوم الأم الحنون؟

بيد أن حقي أخفى ضربات فرنسا على سوريا، ولما كان ويل أهون من ويلين كان تعيينه على سوريا أفضل بكثير من تعيين ضابط إفرنسي حاكماً على لبنان الكبير.

إن زارع السنبلة في العلم الفرنسي قد حصد غلة سنبلته قبل أن تنبت!

دولة دمشق

بعث نائب المندوب السامي بلاغاً إلى حاكم دمشق يقول له فيه إن عنوان حكومة دمشق يكون من الآن فصاعداً «دولة دمشق» على حد «دولة حلب».

نظن أن صديقنا حقي العظم كان قبل ورود هذا البلاغ أريح بالاً منه بعده، لأنه كان يمضي منشوراته وبياناته السابقة ويلي الإمضاء بعد ذلك «حاكم مقاطعة دمشق»، وهو لقب يدل على القناعة بما قسمه الله له من النصيب رغماً من أن المجرّب الذي أغوى فيصلاً كان يتجلى لحقي من حين إلى الآخر في أثناء أحلامه الذهبية ويناديه: صاحب الجلالة!

أما الآن، فإن رفع دمشق إلى مقام «دولة» بعد أن كانت مقاطعة أوقع حقي في حيص بيص لأنه لا يقدر الآن أن يضيف إلى توقيعه «حاكم دولة دمشق». وفضلاً عما تقدم فإن التعويض عن لقب الوزارة بلقب مديرية يدعو إلى الهزؤ لأن لقب «مديرية دولة دمشق» لا يقل سخرية عن لقب «وزارة مقاطعة دمشق»!

ومهما يكن من الأمر فإن الرواية الهزلية التي يمثلها الفرنسيس في وطننا فيما يختص بألقاب سوريا التي سلخوا جلدها وفككوا مفاصلها، لا نهاية لها رغماً من أنها بلغت درجة الغثيان، فلنا الآن دولة لبنان الكبير ودولة دمشق ودولة حلب ودولة جبل حوران وسيكون لنا عما قليل دولة بيروت ودولة طرابلس!

لا يمكن عقل بشري مهما كان عقيماً أن يبلغ العقم الفرنسي الباهر!

حاكم «مقاطعة» دمشق

[1]

لما جاءتنا الرسالة البرقية المنبئة أن حقي بك العظم تعيّن حاكماً على سوريا، عقدنا مقالة في العدد السادس عشر تحت عنوان «حاكمية سوريا وحاكمها الجديد» أتينا فيها على ذكر نزعة حقي الأولى الاستقلالية وتعيينه بعد ذلك مفتشاً للأوقاف في ضواحي الأستانة إلى أن أقاله الاتحاديون من وظيفته، فتفرغ حينئذٍ للحركة العربية وتعين أمين أسرار الجمعية اللامركزية في القاهرة. وقلنا حينئذٍ إن «البضاعة البغدادية التي كان يذكرها في كتبه إلى أعضاء الجمعية في بيروت ذهبت بأرواح كل من بقي منهم في البلاد، وقد نشر جمال باشا مراسلات حقي بك بعد صدور الحكم بالإعدام على الشهداء تبريراً لأحكام الشنق».

ولقد أظهرنا حينئذٍ استغرابنا انقلاب حقي على الحركة العربية التي ظل يخدمها سنين طوالاً، وقلنا إن انحيازه إلى الدولة الفرنسية وطلبه حمايتها في إبَّان فلاح الثورة العربية دون سبب شخصي أمرٌ لا يقبله عقل.

وقد عثرنا في رصيفتنا جريدة «الوطن» الغراء التي تصدر في سنتياغو تشيلي على مقالة نشرتها جريدة «العقاب» الدمشقية بتوقيع «عارف» تحت عنوان «رجل المبادئ والإخلاص حقي بك العظم» أثبت فيها كل ما جاء ذكره أعلاه من مقالنا المشار إليه. والظاهر أن الكاتب كان من الذين كانوا يترددون إلى السبلندد بار الذي كان مجمع الأدباء، ولقد سمع بأذنه ما كنا نسمعه نحن من حنق حقي على فرنسا وغيرها من دول الاستعمار ونزعته الاستقلالية التي وفيناها حقها في مقالتنا واغتفرنا له نقطة الضعف بالطموح إلى حاكمية دولة مستعبدة ولم نحلم أنه يمسخ تلك الدولة «مقاطعة» ويتدلّى إلى هذا الحد من العبودية. أما مقالة الكاتب فكما يأتي:

«لا يزال حقي بك العظم الكاتب المسلم الكبير ـ كما تسميه صحف الاستعماريين ـ ينشر

درر أقواله من منبر «الجامعة السورية» التي تصدر في بيروت. وكنا نطالع دائماً تلك الدرر ونجتنب الإشارة إليها والرد عليها لسببين عظيمين أولهما أننا لم نرها جديرة بالمناقشة لما فيها من التغرض الأعمى، وثانيهما الصداقة التي كانت تربطنا بحضرة الكاتب وكنا من أحرص الناس عليها.

«أما ألآن وقد تمادى حقي بك في غيه ولم يقف عند حد معقول في تشيعه الأعمى، فليسمح لنا حضرته ببسط الأسئلة التالية على مسامعه حتى إذا ما أخذنا عليها الجواب الشافي بالصراحة التي نتوقعها من أمثاله تمكنا من أن نخوض معه في أي موضوع شاء.

1 ـ لماذا كنت يا حقي بك تركياً تفاخر بالانتساب إلى العنصر التركي وبأنك لا تتكلم إلا التركية في منزلك يوم كنت مفتشاً للأوقاف في الأستانة في عهد خليل باشا حماده، ولماذا لم تنقلب على الترك إلا لما أبلغك الشريف حيدر خبر العزل من مفتشية الأوقاف أي قبل أن تتلقى الأمر رسمياً بأربعة أيام فقط؟

2 ـ لماذا انحزت من ذلك اليوم إلى القائمين بالفكرة العربية حتى صرت علماً من أعلامهم، وهل منشوراتك الثورية وبضاعتك البغدادية والاستقلال الذي نفخت ببوقه والحرية التي طالما تغنيت بها كل ذلك كان يرمي إلى النتيجة التي تطلبها اليوم؟

3 ـ أتظن أن الشهداء الذين بذلوا أرواحهم على المشانق وفي ساحات القتال تأييداً للمبادئ التي كنت تجاهر بها والذين ساقتهم كتاباتك ومنشوراتك وبضاعتك البغدادية إلى السجن والمنفى والإعدام يرضون اليوم عن أعمالك؟ ألا ترى خطتك الحالية خيانة لمبدأك القديم ولأرواح الشهداء التي كنت السبب في إزهاقها؟

4 ـ ألم تكن من محبذي الاحتلال الإنكليزي في بدء الحرب؟ ألم تعاكس السياسة الفرنسوية بكل قواك؟

إننا نعهدك رجلاً شريفاً لا تخشى الصراحة، فقل لماذا كنت كذلك؟ أنسيت أنك اتهمت أحد أصحابك بمشايعة الفرنسيس لأنه أراد أن يبعدك عن الإنكليزية بقوله: «إذا لم تستقل سوريا استقلالاً تاماً، فالفرنسيون أقرب لاحتلالها من الإنكليز». إن هذه العبارة أفقدتك الرشد فصحت بأعلى صوتك: «وأنت أيضاً تسعى لفرنسا»، وقد كان ذلك أمام

قهوة الغلوب بمصر على مسمع من كثيرين، فهل نسيت ذلك؟

5 ـ لماذا تركت السياسة الإنكليزية وصرت من محبي الاستعمار الفرنسي بعد ما أعلن اتفاق سيكس بيكو؟ ألم تكن المصلحة الشخصية رائدك الوحيد؟

6 ـ قضي الأمر وجاهرت أخيراً بميلك السياسي وحبذت الاستعمار الإفرنسي على رؤوس الأشهاد، ولكن ما الذي دعاك بعد ذلك إلى زيارة العقبة وعرض واجب الإخلاص لسمو الأمير؟ وهل كنت تحبذ اليوم السياسة الفرنسية لو صحت الأعلام وعينت في سنة 1917 مندوباً للعرب في مصر؟

«إن الرجل الذي يتخذ خطة يرى فيها الخير لبلاده لا يعدل عنها ولو قلد أعظم الوظائف، وأنت تذكر يا حقي بك أنك قبلت أن تكون مندوباً للعرب في مصر وأقسمت اليمين بأنك لا تفعل إلا ما يرشدك إليه رفيق بك بعد موافقة مستشار الوكالة، ثم سافرت بعد ذلك إلى العقبة لعرض واجب الإخلاص على سمو الأمير، ثم عدت منها بعد بضعة أيام وأنت ترتل آيات المدح والثناء وتبني الأماني والآمال على براعة سمو الأمير. لقد بقيت على هذه الحال شهراً من الزمن تجاهر بالعداء للاستعماريين وتدافع عن استقلال سوريا التام إلى أن بلغك إصرار جلالة الملك الحسين على إبقاء الشيخ فؤاد الخطيب معتمداً له في مصر مراعاة لخاطر الإنكليز فقلبت حينئذٍ للعرب ظهر المجن وأنكرت على السوريين حق الاستقلال وزعمت أن لفرنسا في بلادهم حقوقاً أعظم من حقوقهم إلى غير ذلك من المزاعم والسخافات والأقوال.

7 ـ لماذا ينشرح صدرك عندما تنعتك صحف الاستعماريين «بالكاتب المسلم الكبير» أنت الذي قلت مرة في (السبلندد بار) على مسمع من 15 شخصاً إنك تفضل أن يكون أسقف كونتربري خليفة للمسلمين. لقد اخترت أسقف كونتربري حينئذٍ لأنك كنت إنكليزياً ولعلك تستعيض عنه اليوم بأسقف باريس. ألا تذكر هذه الحادثة؟ ألا تذكر أن أحد السامعين قال لك: «أنا مسيحي يا حقي ومع ذلك لا أريد أسقف كونتربري خليفة». فإذا بلغ بك التساهل إلى هذا الحد، فكيف تطيق أن تنعتك صحف الاستعماريين «بالكاتب المسلم الكبير» لولا أنك تجد في هذا النعت وسيلة لخدع الرأي العام وذر الرمال في العيون؟

«ولا ريب عندنا في أن حقي بك سيجيبنا على هذه الأسئلة بالصراحة التي نعهدها فيه لنتمكن بعد ذلك من مناقشته في الشؤون التي يريدها».

يسوءنا أن يكون حقي قد مرّ في خلال شهور معدودات على تلك الأطوار المتضاربات من عربي صميم إلى إنكليزي حميم إلى حجازي مقيم إلى فرنسي نظيم ولله في خلقه شؤون. سبحان من يغير ولا يتغير!

[2]

يطرفنا من حين إلى آخر صديقنا حقي بك العظم بآيات خالدات تستحق أن تسطّر بأقلام ذهبية لما فيها من الحِكم الباهرة والبلاغة الساحرة، ولا غرو فإن سعادته كاهن «إلاهة الحرية» الأعظم يخدم في قدس أقداسها ويبشر بما هبط عليه من وحيها. والمسلم الذي يفضل أن يكون خليفة نبيّه رئيس أساقفة كنتربري لا يرى شناراً في أن يكون هو نفسه كاهناً في هيكل وثن يريد أن يكون أبناء وطنه عباداً له.

قال حفظه الله ذخراً لوطنه عند الملمات ونصيراً له في النائبات ما يأتي وذلك في عرض خطاب ألقاه في مدرسة الشرطة الجديدة في دمشق، أتى في عرضه على وصف وظيفة الشرطي في العالم المتمدن، وختم خطابه الذي تسميه جرائد العبودية «خطاباً ممتعاً» بما يلي:

«إن بلادنا اليوم تحت الانتداب الفرنسي وقد ثبتت أهلية أهلها حقيقة للحكم الذاتي والاستقلال التام المطلق تمنحه الحكومة المنتدبة المعظمة مختارة. فواجب كل عامل اليوم أن يحسن سيرته وينقي سريرته من الشوائب ويعمل لمصلحة وطنه كما يعمل لمصلحة بنيه وذويه».

فإذا كان، يا صديقنا حقي بك، قد ثبتت أهلية أهل بلادنا وبلادك حقيقة للحكم الذاتي والاستقلال التام المطلق كما تقول، فلماذا لا تنال البلاد حقها؟ ولماذا تعفّر وجهك أمام عرش غورو؟ لماذا تسمي الدولة التي كانت على عهد «البدوي» دولة مستقلة محترمة «مقاطعة» دمشق؟ لماذا تقبل بإلغاء وزارتها وتحويلها إلى مديرية؟

إذا كانت أهلية السوريين للاستقلال التام المطلق ثابتة على ما تقول، فلِمَ جعلت نفسك خادماً للتبشير بهذا الانتداب الذي لا لزوم له؟ لماذا جعلت نفسك آلة صماء في يد خائنة وطنك؟ لماذا وضعت يدك في يدها المضرّجة بدمائهم في ميسلون؟ لماذا هذا التصاغر أمام الدولة التي رفضها قومك وقومنا بأكثرية ساحقة؟ لماذا لا تطالب بحقوق بلادك المسلوبة وأملاكها المغصوبة وولاياتها المبتورة؟ لماذا لا تقف في صفوف الأحرار الذين يخدمون وطنهم بأمانة وإخلاص؟ لماذا لا تطالب المحتلين بهذه الحقيقة التي تلقيها أنت من على منابر الخطابة؟ لماذا تقول شيئاً أمام الوطنيين وتفعل ضده أمام المحتلين؟ لماذا تخون وطنك؟

إذا كانت الحكومة المنتدبة «المعظمة» تمنح سوريا الاستقلال التام «مختارة» وكانت سوريا أهلاً لهذا الاستقلال التام المطلق كما تقول وكما هي الحقيقة، فلماذا لا تمنحها إياه تلك الدولة المنتدبة المعظمة؟ ألا ترى في أقوالك تناقضاً شائناً؟ ألا ترى أنك تريد خدمة هذه الدولة المعظمة على كل حال؟ وماذا رأيت من عظمتها في وطنك الذي رأيت فيه نور الحياة؟ أمعظمة هي لأنها خانت عهوده وغدرت بأبناء وطنك وأبناء مسقط رأسك؟ أمعظّمة هي لأنها سفكت دماءهم في ميسلون؟ أمعظمة هي لأنها ألغت الوزارة التي قادها سوء الطالع أن تكون أنت رئيساً عليها؟ أمعظمة هي لأنها قطعت بلادك إرباً إرباً؟ أمعظمة هي لأنها تعامل أبناء وطنك عموماً وأبناء مدينتك خصوصاً معاملة السيد المتغطرس للعبيد الأرقّاء؟ أمعظمة هي لأنها تعيّن الحكام في سورية كما يعيّن أمثالهم شيخ قبيلة بربرية في بلاده؟ أتمدحها مثل هذا المدح وساحة معركة ميسلون لا تزال رطبة بدماء مواطنيك وبعضهم من ذوي قرباك؟ أتحرق أمام مذبحها البخور بعد أن قدّمت وطنك قرباناً على مذبحها كما كان يحرق الوثنيون البخور أمام مولوخ بعد أن يقدّموا أولادهم وفلذات أكبادهم ضحايا يضعونها على ذراعيه النحاسيتين بعد إحمائهما وإحماء جوفه بنار مضطرمة؟ ألا تخجل من طيف نسيبك شفيق بك المؤيد الذي ذهب ضحية وطنه؟ ألا يحمرّ وجهك من خيال عبد الحميد الزهراوي الذي ذهب ضحية الاستقلال شنقاً؟ ألا يندى جبينك من روح العسلي الذي كنت تعمل معه في تعزيز النهضة الوطنية؟ ألا ترتجف أعضاؤك من ذكرى

المحمصانيين ورفاقهما الذين ذهبوا ضحية «بضاعتك البغدادية»؟ ألا تخشى أن تقوم عظام هؤلاء الشهداء من قبورها وتحاسبك على سيّئاتك الوطنية؟

لا بأس بأن تخدم الحكومة التي استخدمتك لأغراضها أثناء الحرب والتبشير بفضائل الاحتلال وفظائع الاستقلال. بيد أننا نرجوك أن لا تحرقك بخورك أمام مذبحها قبل أن يجف الدم الذي أهرقته من أجسام مواطنيك وأقربائك على مسافة رمية حجر من مسقط رأسك!

سكرتير حاكم لبنان

رأت حكومة فرنسا أن تتصدّق على لبنان بسكرتير لبناني تحت يد حاكمه العام الفرنسي، وقد اختارت لشغل هذا المركز أوغست باشا أديب[19].

ليست وظيفة السكرتير على ما حدّد اختصاصها المسيو ترابو حاكم لبنان بالوظيفة التي يتهافت عليها كبار الرجال الذين يرغبون في المحافظة على شرف وطنهم واستقلاله. فإذا كان أوغست أديب يرى في شغل هذا المركز شرفاً يناله، فنحن لا نتعرّض له ولم نأت على ذكره في هذا الموقف إلا لأن الرجل كان رئيس جمعية «الاتحاد اللبناني» في مصر، وهي جمعية اشتهرت بالمطالبة باستقلال لبنان التام المطلق بحدوده الطبيعية. لذلك كان انخراطه في حكومة لبنان على ما كانت حينئذٍ وعلى ما هي عليه الآن عملاً يدعو إلى الاندهاش لأن ذلك بمثابة إقرار منه بأن نوع الحكومة الحالي هو النوع الذي كان ينشده وهو خلاف الواقع. بقيت الحقيقة الناصعة وهي أن الرجل ضحى بمبادئه الوطنية في سبيل مصلحته الشخصية، وإذا رضينا هذا له ـ وقد نرضاه إذ لا معرفة شخصية لنا به ـ فلا نرضاه لجمعية «الاتحاد اللبناني» في مصر لأنها تعمل للبنانيين وتتكلم باسم أحرار اللبنانيين، ويسوءنا أن تكون رئاسة هذه الجمعية عبارة عن معمل كيماوي لإيجاد وظائف عالية لرؤسائها مهما كان هنالك من التنافر بين المبادئ واختصاص الوظيفة ونوع الحكومة.

خرج من هذه الجمعية إلى الوظائف حتى الساعة رئيسان أولهما اسكندر عمون وهو الآن راقد في قبره بسلام فلا نزعج عظامه. أما الثاني وهو أوغست أديب فلا يزال حياً يرزق، بل يريد أن يُرزق كثيراً لأن الضجة التي أحدثها حول بيته ورياشه الفاخرة وهي تساوي بضعة آلاف ليرات على حساب خزينة لبنان لا تلتئم (.........) ومن فوق كل مصلحة والمنطق الذي استعمل (.......) على مجاراة النفقات الكبيرة لرياش منزل سعادة الباشا

19 [أوغست أديب (1860-1936)، أول رئيس حكومة لدولة لبنان الكبير التي أعلنها الاحتلال الفرنسي. تولى رئاسة الحكومة لأول مرة في أيار سنة 1926، وللمرة الثانية سنة 1930. كان خادماً مطيعاً للفرنسيين].

(.....) وثير يجب أن يظهر بمظهر فخم يلتئم مع منصبه السامي (.......) والمتوحشة أن الأمة لا تقدّم منزلاً ولا رياشاً إلا لرئيس جمهورية كما يجري في الولايات المتحدة وفرنسا نفسها، أما تقديم شيء من هذا القبيل لأمناء الأسرار فبدعة سياسية غريبة.

وفضلاً عما تقدم فإن منصب السكرتير أو أمين أسرار الحاكم العام ليس فخماً إلا بالراتب الذي يتقاضاه السكرتير من خزينة لبنان الفارغة التي يريدون أن يملأوها من جيب الفلاح اللبناني المسكين الذي يحصل خبزه بعرق جبينه، ومن الضرائب الفادحة التي يريدون أن يثقلوا بها كاهل لبنان المسكين الذي أصبح بقرة حلوبة، ولكن البقرة نفسها لا تقدر أن تعطي من اللبن أكثر مما في ضرعها. فإذا جار عليها الحلاب فقد يقطر ضرعها دماً، وهذا ما يريدون فعله بلبنان لأن الضرائب الماضية والحالية ليست إلا عبارة عن قطرات دم من قلبه.

كان الأولى بأوغست أديب أن يترفع عن هذا الموقف الذي هو ليس من الوطنية في شيء، ويأبى أن يكون رياش منزله على حساب حكومة لبنان حتى ولو كانت اللجنة الإدارية هي التي اقترحت ذلك.

بيد أن وجه الانتقاد ليس فقط في ما تقدم بيانه، بل في ما ألمعنا إليه سابقاً وهو أن أوغست أديب يشغل مركزاً سياسياً في حكومة لم تصادق عليها جمعية «الاتحاد اللبناني» في مصر ولن تصادق عليها إلا إذا أبدلت مبدأها السياسي من مبدأ آخر لا يتفق قط مع الاستقلال التام المطلق الذي تريده لوطنها.

والوجه الآخر من الانتقاد أن اللبنانيين الأحرار يشعرون أن جمعية الاتحاد اللبناني في مصر تتخذ ظهورهم سلماً لإبلاغ رؤسائها وظائف عالية، وذلك لا يلتئم قط مع مبدأ الجمعية ولا مع ما رسخ في أذهان اللبنانيين من غيرتها وخدمتها الوطنيتين للبنان. وإذا ظلت الجمعية المشار إليها على هذه الخطة العوجاء دون أن تحتج على خطة رئيسها وتتنصّل من تبعة عمله الذي هو بمثابة اعتراف من جمعية الاتحاد بصلاحية شكل الحكومة الحالي خسرت ثقة اللبنانيين دون أدنى ريب لأن هؤلاء لا يريدون قط أن يكونوا وسيلة لجر مغنم شخصي ولا أن تكون ظهورهم سلالم لتسلم الرتب العالية.

ولا ندري من هو الرئيس الحالي لجمعية «الاتحاد اللبناني» في القاهرة ولكننا من أجل الجمعية نفسها ومن أجل وطننا الذي نعمل له نرجو أن لا يجري مجرى سلفه وأن لا يكون آخذاً في تمهيد الطريق للحصول على منصب في لبنان طالما حكومته لا تلتئم قط مع الغرض السامي للجمعية المشار إليها.

نريد أن نضع حداً للمتاجرة على ظهورنا وأن لا يتخذ رؤساء الجمعيات اللبنانية أو السورية مراكزهم السياسية وسيلة لقضاء لباناتهم الشخصية.

أوغست أديب

أوغست أديب، وهو السكرتير اللبناني الذي تصدقت به فرنسا على لبنان، آخذ في الهبوط رويداً رويداً إلى درجة الجليد في الوطنية، وهي درجة 32 بميزان فاهرنهايت ودرجة الصفر بميزان سنتيغرام. وهو الميزان الذي يجب أن نعوّل عليه لأنه الميزان الذي تستعمله الدولة المنتدبة في بلادها، فاستعمال غيره قد يُعد جريمة لأننا لا ندري الآن على عهد غورو ما هو بجريمة وما ليس هو بجريمة.

أوغست أديب دخل حكومة لبنان وهو على درجة الغليان، أو الدرجة مائة. وقد انتقاه غورو إرضاءً للمهاجرين على ما أفادنا فخامته في خطابه الذي ألقاه في مصر لأن رأس المهاجرين مصر ورأس مصر جمعية الاتحاد اللبناني ورأس جمعية الاتحاد اللبناني أوغست أديب.

الرجل كان موظفاً كبيراً في مالية مصر وأظهر جدارة كبيرة في وظيفته، فهو من الأخصائيين الذين لبنان وسوريا في حاجة إليهم. لذلك لما بلغنا خبر تعيينه مديراً لمالية لبنان تسامحنا في قبوله هذه الوظيفة ولم نشأ حينئذٍ انتقاده علماً منا بأن الرجال الأخصائيين فينا قلائل فلا يجوز لنا التعنُّت، بل ضربنا صفحاً على ما كان في قبوله الوظيفة ومبدأ الجمعية التي كان رئيساً لها من التضارب، زاعمين أن الخادم المخلص الأمين القدير يمكنه أن يفيد وطنه ولو تحت حكومة احتلالية إذا تصرّف بجرأة وإخلاص وحكمة. وظللنا على هذا الرأي إلى أن بدت السكرتيرية العامة التي حسبها أوغست أديب قبلة آماله ومحط رحاله فإذا هي الصخر الخائن الذي تكسّر عليه مركبه، وهو آخذ الآن في الغرق باطمئنان ومتى استقر به المركب وجد نفسه في قاع البحر!

قلّما شغل لبناني مركزاً تعلّقت بصاحبه آمال مواطنيه من حيث الجدارة كما تعلّقت آمالي اللبنانيين بأوغست أديب، وقلّما حبطت آمالهم بواحد من الموظفين كما حبطت به. ويهمنا أن نبحث في أمر الرجل من الوجهة الوطنية لأن غورو عيّنه إرضاءً لنا ولغيرنا من المهاجرين.

ولما كان أوغست أديب يشغل مركزاً في مالية لبنان، كان يشغل مركزاً يصلح لصاحبه وصاحبه يصلح له. فلما أدغم الفرنسيون لبنان بسوريا رغماً من الاستقلال السخري الذي أعلنوه ورغماً من التصريحات الكاذبة التي لا يزالون يصرحون بها على رؤوس الأشهاد، ولم يبق لأوغست أديب مجال للعمل بصفته الأخصائية لأن الفرنسيس أنفسهم تولوا وضع ميزانية لبنان وسوريا معاً على الطريقة التي توافق مصلحتهم واستئثارهم، لذلك وجدوا وظيفة السكرتير العام ليدهنوا فم لبنان باللبن كما فعل القرد مع الدب، ويقولوا للبنانيين أوجدنا لكم موظفاً لبنانياً.

نظن أن هذه الوظيفة عرضت أولاً على حبيب السعد فرفضها، وإذا كان السعد لم يحافظ على كرامة وطنه كما يجب يوم كان رئيس مجلس إدارة لبنان، فقد عرف كيف يحافظ على كرامة نفسه يوم انسحب من اللجنة الإدارية.

لم ننتقد قبول أوغست أديب الإنخراط في سلك حكومة لبنان لأننا شعرنا حينئذٍ أن الواجب الوطني يقضي علينا بعدم انتقاده ـ شعرنا انه أشبه بجرّاح ماهر وجوده ضروري في مستشفى لبنان سواء كان ذلك المستشفى تحت إدارة لبنانيين أو إفرنسيين، ولكن لم يخطر لنا قط في أن الجراح يتسفل إلى قبول وظيفة تمرجي.

إن لبنان ليس تكية للموظفين ولا مطيّة للراكبين، فاختصاص وظيفة السكرتير العام اختصاص وظيفة كاتب ثانوي من الطراز الثالث، ولا يهمنا الآن أن الرجل برهن على أنه خالٍ من كل وطنية ـ كنا نحسبه أولاً قائداً كبيراً فضّل أن يكون على رأس فرقة من جيش بلاده على أن يكون جنرالاً في بلاد كبيرة. ولكن البطل تضاءل بين أيدينا وتبخّر أمام عيوننا كما يتبخّر الغمام. لم يبق منه إلا الرجل الذي جاء لبنان ليكون مع أمثاله عالة عليه، فضلاً عن أن الضجة التي أحدثها حول رياش منزله وهو عمل كان يجب عليه أن يترفّع عنه، إن لم يكن بدافع الوطنية فعلى الأقل بدافع السياسة والمصلحة وحسن الذوق.

نقابل الضجة حول رياش أوغست أديب باقتراح حسين بيهم منذ بضعة أشهر أن يكون أعضاء اللجنة الإدارية فخريين أي خدّاماً لوطنهم دون مقابل. فلم يقبل المسيو بتي هذا الاقتراح لأنه يعلم جيداً متى تربع في اللجنة الإدارية أعضاء في غنى عن الرواتب خرجوا

من قبضة يد فرنسا وهي تريد أن تبقي الرواتب بمثابة لجام تكبح به كل من تسوّل له نفسه خدمة وطنه بأمانة وإخلاص، فلا توافق فرنسا على أعضاء فخريين في اللجنة الإدارية رغماً مما في هذا من الاقتصاد الكبير والإخلاص العظيم لأنها تفقد نفوذها عليهم وتأثيرها فيهم، بل تفقد الزمام الوحيد الذي به تقودهم.

ونقابل ضجة رياش أوغست أديب أيضاً باقتراح عمر الداعوق منذ بضعة أسابيع بوجوب تخفيض راتب أعضاء اللجنة الإدارية خمسة وعشرين بالمائة، وهو اقتراح لا يزال حتى الساعة تحت النظر.

نتخذ هذه الفرصة للثناء على وطنيينا حسين بيهم وعمر الداعوق ونرجو أن يكونا مثالاً ينسج على منواله بقية الأعضاء في الوطنية الحقة والتضحية الشخصية في سبيل المصلحة العامة.

فرنسا لا تريد أمثال هؤلاء، بل أمثال أوغست أديب الذين يقلقون راحة السماء والأرض في سبيل منفعتهم المادية ومصلحتهم الشخصية ورياشهم المنزلية.

حقي العظم يقص حادث القنيطرة

لما وردتنا الأنباء البرقية بخصوص حادثة القنيطرة مبتسرة خالية من كل تفصيل، تبادر إلى ذهننا أن الحادثة أخطر مما أذاعته الأنباء المشار إليها، وأن حقي العظم أصيب بجراح خطيرة. ولكن الأخبار التي وردت أيضاً من سوريا ضربت على نغم النبأ البرقي، وأن ما أصاب دولة حقي بك العظم حاكم سوريا العام أو حاكم مقاطعة دمشق كما يسمي نفسه، لم يتعدّ كونه جروحاً خفيفة أصابته في أنفه وشفته. وكان أهم خبر تناولناه بعد ذلك أن إحدى الرصاصات شرمت أنفه وشوّهت جماله. ولكن حقي من المتشبثين بحبل الحياة أيّما تشبُّث، فهو لا يبالي بأنف أو شفة إذا كان من وراء فقدهما سلامته.

بيد أن انشغال بالنا بالصديق القديم كان يصور لنا على الدوام أنه أصيب برصاصات في جسمه رأت السياسة إخفاءها عنا، وقد تأكد لنا الآن أننا كنا مصيبين في زعمنا وأن خوفنا كان في محله لأنه بينما كانت الأنباء البرقية والبريدية تطمئننا عنه وتقول إنه على أتم الصحة والسرور، كان دولته طريح الفراش يعاني آلاماً مبرحة من جرّاء بضع رصاصات ارتزّت في جسمه وبلغت حاله حداً خطراً وارتفعت حرارته ارتفاعاً أقلق بال ذويه، وقد منعه أطباؤه من مقابلة أحد على الإطلاق وكان إلى بضعة أسابيع خلت منقطعاً عن أعماله انقطاعاً تاماً.

بيد أن أحد الرصفاء تمكن من مقابلته بالرغم من ذلك وكان حقي لا يزال طريح الفراش، فسأله الرصيف أن يقص عليه حادثة القنيطرة كما جرت تماماً، فتفضل بإعطائه التفاصيل الآتية. ومنها يستنتج أن حقي بك العظم وفخامة الجنرال غورو قاما أثناء تساقط الرصاص عليهما ببعض مناورات حربية لا تخلو من النبوغ، وعوضاً عن أن يكون غورو مدرّباً لحقي أثناء وجودهما في السيارة أثناء ذلك الحادث السيئ، تولّى حقي نفسه إدارة الحركات الحربية وكان الجنرال غورو يأتمر بأمره، وهو دليل آخر على النبوغ السوري لأن حقي استفاد من مطالعة معارك الدردنيل أكثر مما استفاد غورو من مشاهدتها بنفسه

واختباره لها، ونظن أنه لولا نصيحة حقي لخسرت البشرية الجنرال غورو إلى الأبد!

أما حقيقة ما جرى على ما رواه حقي بك العظم، فهو على ما يأتي ويؤخذ منه أن الجنرال غورو فقد رباطة الجأش بالمرة وأصبح في ذهول تام حتى أنه ذهل عن إصدار الأمر إلى السائق بمتابعة السير، فقام بذلك حقي نفسه وإن لم يكن جندياً جريئاً على المثل المأثور «الحاجة تفتق الحيلة»، وكل ما فعله غورو نفسه أنه تمدّد على مقعد السيارة شاغلاً محله ومحل حقي الذي تعرّض ظاهراً للخطر في سبيل إنقاذ سيده. والحقيقة أنه تصرّف تصرّف قائد بارع لأنه بجلوسه على باب السيارة المفتوح جعل ظهر السيارة وجسم الجنرال غورو نفسه المتمدد على المقعد ترساً له ـ قال حقي:

«بدأت رحلتنا إلى القنيطرة بصورة حسنة جداً وكان الناس يتهافتون في القرى التي مررنا عليها في طريقنا لأخذ سلام فخامة الجنرال إلى أن وصلنا إلى مكان يبعد بضع كيلومترات عن سعسع وقريب من قرية جباتا الخشب، وقد كانت الأراضي خالية من الناس ما عدا بعض الرعيان يرعون مواشيهم في محال بعيدة، وكان بيننا وبين سيارة سعادة الجنرال غوايه ما يقرب من ثلاثة كيلومترات، ولم نكن نراها. وقبل أن نصل إلى منعطف الطريق رأيت خمسة فرسان يعدون أمام السيارة واضعين بنادقهم على أفخادهم. وبعد بضع دقائق تنحى أربعة منهم من الجادة ونزلوا في الأراضي الصخرية وظل الواحد منهم يعدو على الجانب الأيسر من السيارة وعلى بعد مترين فقط، وقد رأيته تماماً، وإذا رأيته الآن أعرفه حالاً. وفي هذه اللحظة سقطت منه إحدى الركابتين وهي من الركابات المستعملة في السروج العربية، وكان اثنان من الأشقياء متزيين بزي الدرك. ولما انعطفنا في الطريق وسرنا بخط مستقيم، سمعت الطلقة الأولى فظننت أن الفرسان قادمون من القنيطرة لاستقبالنا، فهم يحيوننا بإطلاق النار كما هي العادة عند الشرقيين ولا سيما السوريين. إلا أنه أعقب ذلك عدّة طلقات، فسمعت صدم الرصاص وصوت وقعه على حديد السيارة، فعلمت أن هنالك مكيدة. فالتفت إلى الوراء لأستطلع جلية الخبر فرأيت الأشقياء يطاردوننا على بعد ثلاثين متراً ويطلقون علينا النار بلا انقطاع، فقمت من مكاني في الحال ونزلت إلى سلم السيارة وجلست على مكان الباب المفتوح وطلبت من الجنرال أن ينام في مكاني اتقاء

الرصاص. وفي هذه اللحظة أوقف السائق السيارة فالتفت حينئذٍ إلى الوراء فشاهدت الأشقياء يطاردوننا على بُعد أربعين أو خمسين متراً فقط، وهم يطلقون النار علينا، فقلت حالاً للسائق إلى الأمام وهكذا كان».

ولقد عهد الجنرال غورو إلى الحكومة الدمشقية في التحقيق عن مسألة محاولة اغتياله، فاهتمت هذه كثيراً فيها واستنتجت بناء على الاعتقاد السائد في القرى المجاورة لمحل الحادثة أن الخيالة الأربعة الذين تعرضوا لفخامة الجنرال أتوا من وراء الحدود الفاصلة بين سوريا وشرقي الأردن، كما رآهم البعض وأفاد عنهم وأنهم ينتسبون إلى أحمد مريود زعيم جباتا الخشب وأنهم هم الذين قتلوا في ما مضى علاء الدين بك الدروبي وعبد الرحمن باشا اليوسف في حادثة خربة الغزالة، وقد أرادوا بذلك معاكسة الاحتفال الفخم الذي جرى لفخامة الجنرال في دمشق تسويداً لصحيفة فرنسا في سوريا في نظر أوروبا.

أما الأشخاص المسند إليهم الجرم، فهم خليل بن علي المريود ومحمود حسن من أهالي جباتا الخشب وشريف شاهين من أهالي جباتا الزيت ومحمد ضاهر من قرية شبعة وصادق حمزه ورجل حوراني مجهول الاسم حضروا من جهة الجنوب يوم الأربعاء 22 حزيران ومروا في أراضي خربة مجدو وذهبوا نحو الشمال وناموا يوم الخميس في قرية أوقانية عند أشخاص معروفة أسماؤهم، ويوم الخميس صباحاً ذهبوا إلى الطريق السلطاني وارتكبوا الجناية ثم هربوا نحو الغرب ودخلوا قرية طرونجة وأكلوا فيها ثم بعد حلول الظلام دخلوا الحرج الواقع بجوار قريتي طرونجة وجباتا الخشب ثم اختفى أثرهم.

غانم وفيصل وسوريا

اختفى غانم[20] من مسرح سياسة سوريا كما تختفي الكواكب فجأة، ولكنه يظهر من حين إلى آخر ظهور مذنّب غريب. والذنب في ذلك ليس ذنبه، بل ذنب الحكومة الفرنسية التي قضت على الجمعية السورية المركزية في باريس قضاءً مبرماً لأنها أدركت بعد خراب البصرة أنها اتخذتها آلة لتنفير السوريين منها وإيغار صدورهم حقداً عليها.

ولقد جرى لبعض مراسلي جرائد بيروت حديث معه في باريس صرّح في خلاله أنه قابل فيصلاً حال وصوله إلى العاصمة المذكورة وبسط له أمانيه وهي استقلال سوريا تحت الانتداب الفرنسي مع الاعتراف باستقلال لبنان، ولكنه يقول إنه حدث بعد تتويج فيصل «تطور مدهش» حمله على العدول عن الوحدة السورية والاجتزاء من كل ذلك باستقلال لبنان.

التطور المدهش حدث في دماغ غانم نفسه لأنه كان أولاً رئيس جمعية لبنانية تطالب باستقلال لبنان على حدة. فلما عقدت الحكومة الفرنسية تلك المعاهدة السرية السيئة الطالع مع بريطانيا وروسيا أولاً ثم مع بريطانيا وحدها ثانياً، استقدمته آلة لتنفيذ أغراضها وهي أن تكون البلاد كلها تحت حمايتها دون فارق بينها. وهذا ما اضطره إلى الاستقالة من رئاسة الجمعية المذكورة وإنشاء اللجنة السورية المركزية، وكانت ترمي وقتئذٍ إلى

---

20 [شكري غانم (1861-1929) كاتب باللغة الفرنسية وسياسي عاش معظم حياته في فرنسا وخدم الفرنسيين حتى وفاته. كان، كما تشير الوثائق الديبلوماسية الفرنسية، يتلقى تمويلاً من الحكومة الفرنسية قبيل وبعد الحرب العالمية الأولى. أسس الجمعية المركزية السورية في باريس، وأصدر «المستقبل» لسان حال تلك الجمعية التي كانت واجهة للسياسة الخارجية الفرنسية التي كانت تعمل جاهدة للسيطرة العسكرية على سورية. أرسل غانم بتمويل من الفرنسيين وفوداً زارت الجوالي السورية في الأميركيتين بهدف حثهم على إرسال جنود للقتال مع الفرنسيين في الحرب الأولى، إضافة إلى إرسال البرقيات إلى مؤتمر الصلح مطالبين بالحماية الفرنسية. حقق غانم أمنية حياته ورفرف العلم الفرنسي فوق بيروت. كرمته الحكومة اللبنانية بإطلاق اسمه على ثكنة عسكرية في الفياضية قرب بيروت، وعلى أحد شوارع بيروت أيضاً].

الوحدة السورية التامة ولبنان من جملتها. وظل على هذه الحال إلى أن ظهر فيصل على مسرح السياسة وأدركت (........) وزاد الطين بلة طلب السوريين الاستقلال (........) الأميركية على رؤوس الأشهاد.

لم يبق في يد فرنسا غير اللبنانيين (........) حينئذٍ لبنان ضمن سوريا لكانت الأكثرية ضدها، لذلك أصبح من مصلحتها أن (...) باستقلال لبنان حتى تصبح دعواها أن لها حقاً في الوصاية عليه باعتباره شعباً مستقلاً عن السوريين، ثم تتخذه بعد ذلك قاعدة للأعمال ضد سورية إلى أن يتم بعدها بسط وصايتها على هذه أيضاً وحينئذٍ تدغم البلاد الواحدة في الأخرى كما فعلت بعد معركة ميسلون.

لذلك شرع غانم ورفاقه حينئذٍ في نقض أقوالهم السابقة وأخذوا يبشرون باستقلال لبنان على حدة. ولما بلغ فيصل أوج مجده، تقدم غانم بطلب إلى مجلس الشيوخ بأن يسمحوا له أن يبني وطنه الصغير حجراً حجراً!

ولكننا لا نريد أن نبخس الرجل حقه في الحديث المشار إليه، فقد أتى على ذكر المرض العضال الذي لا يزال مستولياً على فريق كبير من المواطنين وهو التعصب الديني الذي كان علّة شقائنا في الماضي ولا يزال علة شقائنا في الحاضر، فقد قال في عرض كلامه «نعم لقد تركت البلاد منذ زمن طويل ولكنني ولدت فيها ولا أزال من بنيها، ولي عادات أهلها وأخلاقهم. وكيف تريد أن لا أعرف طباعهم وهم كل يوم يراسلونني ويظهرون لي من حيث لا يدرون أنهم لا يزالون منغمسين بالتعصّب الديني والمصلحة الذاتية، وتراهم كل يوم يرسلون لي البرقيات باسم فئة مخصوصة أو حزب ديني وهم لا يزالون إلى اليوم يؤلفون الأحزاب الدينية والجامعات التعصبية التي تزيد البلاد شقاءً وتؤدي بها إلى الفناء والخراب. ولو علم أهل بلادي ما يفكر بهم الإفرنسيون عندما يرون منهم هذه الأعمال لنبذوا التعصب الديني خجلاً وحياءً. ولي رجاء واحد أقدمه لأبناء بلادي من لبنانيين وسوريين، أقدمه بعد أن صرفت عمري مختبراً أحوال الدنيا عارفاً حقائق عديدة وهو أن يتركوا التعصب الديني جانباً ويبتعدوا عن تأليف الأحزاب والجامعات التي تأمر بالدين وتسمّى باسمه».

هذا الكلام يشفع بكثير من مساوئ غانم ونرجو أن يكون له صدى في قلوب الذين كانوا يأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه، وأن تعدل الجمعيات التي سداها التعصّب ولحمتها التعصب عن اتخاذ الدين وسيلة للتغرير بالبسطاء من الشعب وأن تحل الجامعة الوطنية محل الجامعات الدينية أرثوذكسية كانت أو مارونية أو درزية أو إسلامية، وأن يكف رجال الأكليروس عن النفخ في هذه النار والمداخلة في شؤون الشعب السياسية وتأجيج لهب الخلافات الطائفية، وأن يقف المواطنون الذين يريدون أن يقذفوا بالشعب إلى مهاوي العبودية لاعتبارات دينية إن لم يكن من الوطنية والإخاء، فعلى الأقل من الخجل والحياء.

وكان الأحرى بالمسيو غانم أن يحتج لدى الحكومة الفرنسية على الخطة الخرقاء التي جرت عليها عمّالها في لبنان وسوريا، وهي توزيع الوظائف على الطوائف فتبطل هذا القانون الذي لا يراد به إلا إثارة الخصام والشخصيات في قلوب الأهلين وبنيان نظام لبنان وسوريا على التعصُّب الديني وهو تعصُّب يضحك منه الفرنسيس في بلادهم ضحكاً شديداً ولكن حكومتهم تؤيده بكل قواها تأييداً!

شكري غانم
والقضية الوطنية ومجلس لبنان

جاءتنا أنباء الوطن بخبر لم نندهش منه وهو أن مجلس لبنان النيابي أقر بإجماع الأصوات على منح مواطننا الكريم شكري غانم مبلغ ثلاثين ألف فرنك سنوياً اعترافاً بما له من الخدمات الجلى في سبيل لبنان السيء الطالع.

لم نندهش له لأن مجلس لبنان عودنا كل عجيب غريب. وهل هنالك أغرب وأعجب من أن يمنح مجلس راتباً سنوياً كبيراً لرجل صرف عشر سنين من بقية حياته في سبك سلاسل العبودية لوطنه وأغلال الرق لشعبه، وهي السلاسل التي يرسف بها أعضاء هذا المجلس أنفسهم، والأغلال المشدودة حول أعناقهم شداً إذا كان قد أبقى على تنفسهم فقد خنق أصواتهم.

لا نعترض على هذا المبلغ من الوجهة الاقتصادية وإن كانت الألعوبة التي يسمونها دولة لبنان رازحة الآن تحت أثقال هائلة من نفقات هائلة، ولكننا نعترض عليه من الوجهة السياسية المعنوية لأن هذه الهبة السنوية إقرار صريح من أعضاء المجلس الذين نصبتهم الدولة المحتلة فزاعات لتمثيل لبنان بأن أعمال غانم التي كانت في عداد الأسباب التي أفضت إلى العبودية الحالية أعمال لا يعترف الأعضاء بصوابيتها فقط بل يدفعون أجرة من أجلها رغماً من أنهم ملأوا العالم ضجيجاً على هذا الاستقلال والنيابة السخريين، والآن ينقدون غانماً ثلاثين ألف فرنك سنوياً لأنه أنقذ لبنان من الاستقلال، وحرر سورية من الحرية!

غانم على مسرح السياسة

لم يبرز غانم إلى مسرح السياسة إلا في أوائل حرب الأمم، فقد كان معروفاً بكونه مترجم رواية عنتر التي لم تعرف في مسارح باريس إلا عن طريق الأوبره المصرية.

ولكن للرجل مواهب سياسية لم تظهر للوجود إلا بعد شبوب الحرب العالمية، وكما لم يكتشف دانتي الشاعر الإيطالي الشهير مواهبه الشعرية إلا بعد أن ترك السياسة وأقام في المنفى كذلك لم يكتشف غانم مواهبه السياسية إلا بعد أن ترك الشعر وأقام في شارع لافاييت.

نشأت الجمعية السورية المركزية في باريس كما نشأت يقطينة يونان ولكنها شذت عن نواميس اليقطين في كونها ظلت حية خمس سنين وفي شيء آخر أيضاً وهو أنها لما فتحت وجدت فارغة من كل شيء حتى اللباب والبزور التي توجد في كل يقطينة.

تمرّن غانم على السياسة في الجمعية اللبنانية التي كان لها رئيساً في باريس كما يتمرن النوتي على سلك البحار على زورق صغير، ولكنه في تلك الأثناء اكتشف حماية فرنسا لسورية كما اكتشف كولمبوس أميركا.

في ذلك الزمان وقع خلاف بينه وبين صديقنا خير الله. ولما كان غرض الجمعية التي كان يرأسها استقلال لبنان استقلالاً تاماً، استقال منها لأن الاكتشاف الخطير الذي وقع عليه لا يلتئم مع غاية الجمعية. فترك زورق لبنان وأنشأ شركة بحرية كبرى اسمها الجمعية السورية المركزية، وهي شركة تجارية كلفت فرنسا خمسة ملايين فرنك قبل أن قدمت «طابق» افلاسها السياسي.

دعاوى غانم ومناوراته

إدعى غانم حينئذ أنه يتكلم باسم السوريين، وبلغت منه هذه الدعوى الطويلة العريضة مبلغاً أثار عليه سخط الرأي العام حتى اضطر ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا إلى تنبيه كليمنصو إلى هذا الخطأ خصوصاً ولسن حيث وقف في وجه كليمنصو في إحدى جلسات المؤتمر يوم ادعى رئيس وزراء فرنسا ان جمهور السوريين يطلب الحماية الفرنسية بدليل ما لديه من عرائض غانم، فأنكر ولسن على غانم حق التكلم باسم السوريين وأنكر على كليمنصو ادعاءه أن جمهور السوريين يطلبون حماية فرنسا. ولما سأله كليمنصو إقامة البرهان على ذلك، فتح ولسن محفظته وأراه

تلغرافاتنا وتلغرافات الأحزاب الاستقلالية في سائر أنحاء العالم محتجة على غانم وحماية فرنسا، فسكت كليمنصو ولم يحر جواباً.

ولما رأى مؤتمر الصلح إيفاد لجنة إلى سوريا لتقف على رغائب السوريين ونوع الحكم الذي يريدونه، أدرك غانم أن هذه اللجنة سوف تقضي على اكتشافه العظيم والدعوى الطويلة العريضة التي كان يدعيها فيما يختص بنيابته عن سوريا، فرفع احتجاجاً إلى الموسيو كليمنصو قائلاً فيه إن إرسال هذه اللجنة خطأ كبير لأنه يؤخر بركات الاحتلال الفرنسي لسوريا وبسط نعمة الحماية الفرنسية عليها!

غانم ووفود لبنان

ولما أصاب سياسة غانم في سوريا الإفلاس التام وقدم «طابقه» إلى الحزب الاستعماري الفرنسي في باريس رأى أن يوجه عنايته مرة أخرى إلى لبنان المسكين الذي كان قد شعر بشيء من الراحة أثناء انصراف غانم عنه وتحويل مواهبه السياسية إلى سوريا جملة، فرأى أن تكون له أصبع في الوفد اللبناني الأول التعس الذي ذهب تحت رئاسة عمون، فأفسد الغرض الشريف الذي كان الوفد مبعوثاً لنيله وهو الاستقلال التام وأغراه بخيانة الوطن بأن يطلب الاستقلال الإداري تحت حماية فرنسا، كأن الاستقلال الإداري هارب منا. ولما عاد الوفد إلى لبنان أعلن رئيسه أنه بعد محادثته مع غانم رأى أن يحيد عن الخطة التي رسمها له مجلس الإدارة وأن يطلب الاستقلال الإداري تحت حماية فرنسا، وأنه إذا تناولت هذه الحماية المباركة سائر أجزاء سوريا شعر لبنان بغبطة ليس من ورائها غبطة وتدفق عليه الخير تدفق ميازيب السماء.

لا ندري كيف بقي هذا الوفد في قيد الحياة بعد أن سجل على نفسه الخيانة ولم يرجمه الشعب لأن اللبنانيين ليسوا بأقل وطنية من الشعوب التي هي أهل للاستقلال. ولكننا نرجح أن الاحتلال الفرنسي هو الذي ضمن حياة الوفد وضمن له فوق ذلك بقاءه في مركزه وسط الشعب الذي خانه، بل وسط ممثلي ذلك الشعب.

بيد أن وطنية الموسيو غانم وعنايته بلبنان لا تعرفان حداً، فأعاد الكرة على لبنان السيء

الطالع مرة أخرى أثناء وجود الوفد الثاني الذي كان يرأسه بطريرك الموارنة. ولكن من حسن حظ لبنان اتفق قدوم الوفد إلى باريس أثناء وجود غانم في الحمامات المعدنية، فبعث غانم يسأل الموسيو بيشون وهو حينئذ وزير الخارجية إذا كان وجوده في باريس أثناء هذه الأزمة ضرورياً فطيب الموسيو بيشون خاطره وسأله أن لا يزعج نفسه بالحضور سريعاً بل أن يبقى حيث هو إلى أن يتم استشفاؤه، وأخبره أن فرنسا لا تهمل لبنان وسوريا، والموسيو بيشون يدرك جيداً أن مصيبة لبنان وسوريا كائنة في اهتمام فرنسا بهما!

ولكن ما نريد أن نقوله في هذا الصدد إن غانماً عاد إلى العناية بأمر لبنان منفصلاً عن سوريا مرة أخرى، وانتحلت الجمعية السورية المركزية لنفسها صفة لبنانية محضة بل تجاوزت هذه الصفة إلى حد تمثيل لبنان فأرسلت في عداد وفد البطريرك أحد أعضائها وهو الدكتور سمنه[21] ليقول شيئاً بخصوص لبنان. وحضرته ليس بلبناني وجمعيته ليست لبنانية، ومهمة وفد البطريرك المطالبة بالاستقلال التام المطلق خالياً من كل حماية أو وصاية أو رعاية أو غيرها من الكلمات المطاطة. فلا ندري بعد كل هذا كيف جاز لأحد أعضاء الجمعية السورية المركزية أن يكون في عداد الوفد الذي قابل الموسيو كليمنصو. ولكن هذا ليس بعجيب لأن الجمعية التي مرت ورئيسها بهذه التطورات الغريبة المتناقضة المتنافرة ليس بكثير عليها أن تقطع طوراً آخر غريباً من تطوراتها السياسية.

ومن غرائب تقلب غانم أنه أمّن على معاهدة سيكس وبيكو في حينها، وإذا لم تخنا الذاكرة فقد كان حضرته في عداد الحضور لما جاء سيكس إلى باريس من قبل حكومة بريطانيا لتعميد هذه المعاهدة أو المؤامرة على حرية السوريين حيث جرى احتفال رسمي ألقيت فيه الخطب التي أعلنت اتفاق فرنسا وإنكلترا. وألقى علينا أولئك الخطباء الأفاضل من النصائح الأبوية ما كنا ولا نزال في غنى عنها، فأفادونا من فيض لطفهم وعطفهم على الإنسانية أن الاتفاق بين الدولتين تام طبقاً للمعاهدة المشار إليها التي قطعت سوريا تقطيع الجزار للشاة المذبوحة، ثم وعظنا بأن نكون متحدين في طلب الاستقلال وقالوا لنا إن

21 [المقصود جورج سمنه زميل شكري غانم في الجمعية المركزية السورية الموالية لفرنسا والتي كانت تطالب بالحماية الفرنسة على سورية ولبنان].

خلاصنا بيدنا! وكان الموسيو غانم في عداد الخطباء، ولم يعلق في ذهننا شيء من الدرر التي ألقاها في تلك الحفلة ولكننا نذكر أنه أرسل بُعيد ذلك بلاغاً يدعو فيه المواطنين إلى الرضوخ لحكم الإعدام، فإذا لم نرضخ أرغمنا على ما لا نريد. ولا ندري أي ارغام يكون شراً علينا من الرضوخ لمعاهدة سيكس وبيكو التي حُبل بها في الظلام وولدت في الظلام وكانت أشأم معاهدة على سوريا.

تقاليد الفاتيكان ومحامي الشيطان

للفاتيكان عادة تقليدية قديمة غريبة جرى عليها المجمع المقدس منذ قرون متطاولة في القدم ولا يزال جارياً عليها حتى الساعة وهي أنه متى عُرض عليه اسم شخص ميت اشتهر بالصلاح والتقوى وطلب منه تطويبه أو رفعه إلى مرتبة القديسين، أحال الطلب على لجنة خاصة للبحث في سيرة حياته وجمع كل ما يمكن جمعه بخصوص الشخص المطلوب تطويبه. ثم تعرض اللجنة نتيجة بحثها واستقصائها على المجمع المقدس وهو يبحث في كل ذلك بحثًا دقيقاً المرة بعد المرة والسنة بعد السنة. وبعد أن يمر هذا التحري على أطوار متعددة قد تستغرق سنين طويلة أو قروناً كما حدث في تطويب جان دارك، ويرى المجمع المقدس أن ليس هنالك مانع قط من رفع ذلك الشخص إلى مرتبة القديسين، يعمد المجمع في الدرجة الأخيرة إلى تعيين محام وظيفته تسوئة سمعة الميت وتشويه حياته واظهار سيئاته وتقديم كل ما يمكن العقل البشري تصوره من الاعتراضات لكي يقنع المجمع المقدس أن الشخص المطلوب تطويبه غير أهل للشرف الكنسي المطلوب وأنه لا يجوز له رفعه إلى مرتبة القديسين. وقد اصطلح الباباوات والمجامع المقدسة على تسمية هذا المحامي «محامي الشيطان».

هذه هي الوظيفة التي تولاها وطنينا غانم أمام الحلفاء ومؤتمر الصلح فيما يختص باستقلال سوريا الشهيدة ورفعها إلى مرتبة القديسين. وكلما رأى ميلاً وانعطافاً من الحلفاء والولايات المتحدة لمنح سوريا الاستقلال شرع في تسوئة سمعتها وتشويه حياتها وإظهار سيئاتها وقال لهم إن سوريا متوحشة بربرية لا تصلح لحكم نفسها فنحن لسنا إلا أطفالاً رضعاً في السياسة وقد عشش التعصب الديني في أدمغتنا فإذا نلنا الاستقلال قام النصارى

والمسلمون بعضهم على بعض وذبحوا بعضهم بعضاً والاستقلال يضرنا بل هو في يدنا كالمدية في يد الطفل لا يعرف كيف يستعملها.

إن تلقيب غانم بمحامي الشيطان لا يقدح فيه على الإطلاق لأن محامي الشيطان في الفاتيكان قد يكون رجلاً اشتهر بالفضل وسمو الأخلاق كما اشتهر بهما غانم، ولكنها عادة جرى عليها الفاتيكان لشدة الحرص حتى لا يكون هنالك أدنى اعتراض على تطويب قديس. وقد رأت حكومة فرنسا النسج على هذا المنوال فيما يختص باستقلال سوريا خصوصاً لأنها قد أعادت الآن علاقاتها مع الفاتيكان ولا تزال تذكر أنها ابنة الكنيسة البكر.

غانم ومجلس لبنان

لولا قرار مجلس لبنان الحالي لما عدنا إلى ذكر غانم وبسط الدور السياسي الممقوت الذي لعبه على مسرح الوطن، فلقد كنا أول من حمل عليه يوم كان في أوج مجده تنحني أمامه المواكب والهام وتكاد ترفع إليه الصلاة والسلام، يوم بددنا سحائب الترهات والأضاليل واستصرخنا السوريين للمطالبة بحقوقهم الطبيعية وفندنا المزاعم القائلة بقصورنا عن حكم أنفسنا، وحملنا على الحماية حملة قوّضت أركانها وزعزعت بنيانها، واحتججنا إلى مؤتمر الصلح والرئيس ولسن ولويد جورج على ادعاء غانم تمثيل ستمائة ألف سوري في المهاجر ارتفعت في خلال أربع وعشرين ساعة إلى مليونين ونصف مليون كما يرتفع ميزان الزئبق إذا أدنيته من النار!

كلا، لم نكن لنعود إلى ذكرى تلك الأيام السوداء التي وقف فيها شكري غانم أمام مؤتمر الصلح الذي كان راغباً في منح سوريا الاستقلال وقوف محامي الشيطان أمام لجنة الفاتيكان لتسوئة اسمنا وسمعتنا أمام الحلفاء والعالم المتمدن، رامياً الوطن الذي رأى فيه نور الحياة بالجهل الفاضح والهمجية، واصماً شعبه وأمته بالتوحش والبربرية- ماذا عسى أن يفعل أكثر من ذلك «محامي الشيطان» في الفاتيكان؟

إن الأدوار الغريبة المتقلبة المتذبذبة التي لعبها غانم على مسرح السياسة لا تبقي مجالاً

للشبهة قط في أن غانماً كان يتاجر بوطنه، فكان كيفما دارت فرنسا يدور معها دون تفكير قط وإذا فكر لكي يعلل تذبذبه ويبرر تقلبه حتى أصبح مضغة في الأفواه ولماظة بين الشفاه.

لا نلوم غانماً الذي اتخذ المداخلة في شؤون وطنه السياسية وسيلة للإثراء وإرضاء للدولة التي ينتمي هو إليها، ولكننا نلوم كل اللوم ونوجه سهام الانتقاد إلى ذلك المجلس اللبناني المأجور الذي سمى نفسه مجلساً نيابياً لتسجيله على وطنه العبودية وتسجيله على نفسه الذل والعار لأنه رضي في أن يكون آلة في يد الدولة التي احتلت وطنه وأرهقته ظلماً وجوراً لم ير العالم مثلهما إلا في أظلم العصور الهمجية. وبدلاً من أن يحل نفسه احتجاجاً على تلك المظالم يكلل الآن أعماله بمنح شكري غانم ثلاثين ألف فرنك سنوياً، وهو عمل تنتفض له عظام شهدائنا في قبورها.

منذ تلك المأساة الكبرى التي حدثت على جبل الجلجلة منذ نحو ألفي سنة قلما أسلم رجل وطنه إلى العبودية كما أسلم شكري غانم لبنان وسوريا إليهما، ورغماً من كل ذلك يترتب على لبنان أن يدفع هو ثمن صلبه!

هكذا شاء مجلس لبنان الكلي المعرفة والفائق الحكمة، هذه هي الحكمة التي أخفيت عن العقلاء والحكماء وأعطيت للجهال!

المجد لله في العلا ولعقم مجلس لبنان على الأرض!

أعلام وشخصيات مصرية

هبة أحمد زكي باشا للأمة المصرية

عرفت أحمد زكي باشا[22] منذ نحو سبع سنين وهو لا يزال بيكاً، وكان تعرّفي بسعادته بطريق الصدفة، وذلك أني كنت ذاهباً مع صديقي السيد عبد الحميد الزهراوي ومحمد أفندي كرد علي صاحب مجلة «المقتبس» لتهنئة بعض الأصدقاء بحلول عيد الفطر، فقالا لي تعال معنا لنزور أحمد زكي بك سكرتير مجلس النظار فأنه من جلّة الأدباء. فأجبتهما: لا سابق معرفة لي به وإني أود كثيراً التعرّف بالأدباء، ولكن على شرط أن لا يكونوا شاغلين مراكز سامية لأنهم يصبحون إذ ذاك آلهة أو أنصاف آلهة ولا طاقة لبشر فان مثلي على المثول بين أيديهم. فضحكا وقالا لي إن أحمد زكي بك أبعد الناس عن ادّعاء الألوهية، وإذا وجدت نفسك مغبوناً بهذه الزيارة دفعنا لك أجرتها. فذهبت معهما وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى حتى بلغنا منزله، فدخلنا عليه وإذا هو رجل ربعة القامة ممتلئ الجسم، صبوح المحيا، براق المقلتين، يرى الناظر إليه لأول وهلة أنه شعلة ذكاء. فقدماني إليه على عجل بسبب كثرة الزوار وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث. ولما انصرف الزائرون ولم يبق سوانا، دعانا إلى الجلوس بجانبه على مقعد وشرع يقرأ علينا ترجمة فصل في علم النفس اقتضت ترجمته عناء كبيراً نظراً لدقة التعبير والفروق الدقيقة بين وضع وآخر، فعجبت لشدة تدقيقه في انتقاء الأوضاع العربية. وحدث في أثناء البحث أن صديقي محمد أفندي كرد علي عرفني به مرة ثانية، وقال له إني مشتغل بتأليف قاموس إنكليزي ـ عربي أتيت فيه على موضوعات شتى في العلوم العصرية. فلمّا سمع إسمي وقف وصافحني وقال «قرأت مقالتك التي نشرتها في «الأهرام» تحت عنوان «استحالة المادة» فأعجبت بها جداً وعقدت النية على زيارتك والتعرف بك، ولكن حال دون ذلك مشاغل». وكانت المقالة

22 [أحمد زكي باشا (1867-1934) لغوي مصري تولى عدة مناصب حكومية. أتقن اللغة الفرنسية وعمل محرراً ومترجماً لـ «الوقائع المصرية». كان عضواً في معهد مصر والجمعية الجغرافية الملكية البريطانية والجمعية الملكية الآسيوية في لندن. كتب أبحاثاً في الأصول العربية للغتين الإسبانية والبرتغالية. تحول منزله في مدينة الجيزة إلى ملتقى للمثقفين العرب. قدم مكتبته التي تحوي كتباً ومخطوطات نادرة إلى دار الكتب المصرية].

المذكورة عن اكتشاف عنصر الراديوم وصفاته الغريبة وأسراره العجيبة التي وقف أمامها العلماء حيارى، وقد تولاهم الذعر والذهول حتى كشفوا القناع عنه وعن استحالته إلى عنصر آخر يسمّى الهليوم، فتحقق بذلك حلم جابر الكيماوي العربي في إمكان استحالة معدن إلى آخر، أو استحالة المعادن ذهباً إلى غير ذلك من الاكتشافات العلمية التي قلبت مذاهب العلماء في خواص المادة والقواميس الطبيعية. فكانت تلك المقالة أول مقالة في العربية عن ذلك النبأ الذي اهتز له العالم وكانت جريدة «الأهرام» من أسبق الجرائد العربية إلى نشره.

وبعد الانتهاء من هذه المباحث، دعانا أحمد زكي بك إلى تناول الغداء معه، ولم يقبل منا عذراً، فأكلنا هنيئاً وشربنا مريئاً وكله لطف ودماثة أخلاق. ولما انتهينا دعانا إلى مكتبته فإذا نحن في وسط مكتبة ملأى بالكتب القليلة المثال النادرة الوجود، ولقد أرانا في جملتها كتباً لا يوجد منها في العالم إلا نسخة أو نسختان، فصرفنا فيها وقتاً من أشهى الأوقات كأنما نحن في جنة أدب نتنقل فيها من فاكهة شهية إلى فاكهة أشهى. ثم أفادنا بعد كل ذلك أنه عقد النية على أن يجعل هذه المكتبة وقفاً على الأمة المصرية.

خرجت من لدن أحمد زكي بك وأنا معجب من أمرين: أولهما غيرته الشديدة على اللغة العربية وهي غيرة لم أر لها نظيراً إلا في فقيد الشرق المرحوم العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي. وثانيهما وجود رجل في مصر يفكّر في أن يهب مواطنيه مكتبة ثمينة صرف حياته ونشاطه وماله في ادخار كتبها النادرة.

ولقد برّ الآن أحمد زكي باشا بوعد أحمد زكي بك وجعل مكتبته وقفاً على الأمة المصرية، وزاد على ذلك بأن وقف لها قطعة كبيرة من الأرض في بقعة من القاهرة جميلة الموقع نفيسة، تبنى عليها دار فسيحة تسع تلك المجلدات الثمينة التي يصح أن تسمى كنزاً من أثمن كنوز القاهرة.

خطا أحمد زكي باشا الخطوة الأولى في تعليم المصريين ما يسميه الفرنساويون بالغيرية، أي إيثار الغير على النفس والتفاني في سبيل نفع الأمة ووضع الندى في موضعه ومجاراة محسني الغرب في أن يقف أغنياء الأمة ثروتهم على المنفعة العامة، فهو إذا لم يكن غنياً

كروكفلر فإنه قد فاقه جوداً وكرماً لأن الأول منهما يهب من فضلات أمواله، أما أحمد زكي باشا فقد وهب أمته كل ما يملك.

إن المكاتب العامة التي في البلدان المتمدنة أشبه بمنائر تضيء ما حولها من الظلمات المتراكب بعضها فوق بعض، وإذا كان داء الشرق العقام الجهل، فخير دواء له إنشاء مكاتب يؤمها الشبان الذين يعرفون قيمة العلم ومعنى الحياة وثمن الوقت، فيرون بين أيديهم ذخائر العلماء والفلاسفة واكتشافات المتقدمين والمتأخرين واختراعات النوابغ والمفكرين وتواريخ الأقدمين والمحدثين، بل تكون للأدباء أنفسهم موسوعات علوم يرجعون إليها في كل مشكل ويهتدون بها في حل كل غامض. والمكاتب العامة في كل أمة ميزان تنورها ومقياس ارتقائها ودليل تمدنها، فكلما كثرت دلّت على ارتقاء الأمة في معارج الحضارة والعمران.

وإنا لنذكر لزكي باشا في هذا المقام ما له من الأيادي البيضاء في نهضة الأمة العصرية وما آل من التنقيب والمشاق في إحياء آداب اللغة العربية واكتشاف آثارها الدارسة ومعالمها العامة غير مدخر في كل ذلك جهداً ولا نفقة ولا طالب جزاء ولا شكورا.

اختط زكي باشا بهبته طريقاً جديدة للمصريين ونسج على طراز نرجو أن يتخذه كثيرون من المحسنين حتى تعم المكاتب العامة جميع المدن المصرية على حد البلدان المتمدنة وتتألق هذه المنائر بنورها الباهر فتبدد ظلمات الجهل وينتشر العلم في طول البلاد وعرضها وتهب الأمة من ضجعة الخمول وسبات الرقاد إلى يقظة الحياة وعالم الجهاد، وينصرف الشبان عن أماكن اللهو إلى مطالعة المؤلفات العلمية والآثار الأدبية والحقائق التاريخية والمجلات والجرائد العصرية ويعرفون كيف ترقى الأمم وكيف تسير الشعوب في سبل العمران الصحيحة ويعدون أنفسهم لتنازع البقاء في هذا الوجود الذي أصبحت فيه الحياة عراكاً هائلاً يسقط فيه الضعيف ويثبت القوي.

الأمة المصرية أشد أمم العالم احتكاكاً بغيرها، لأن القطر المصري طريق تجارة العالم، فتلتقي فيه قارتان من أكبر قارات الكرة الأرضية وهما آسيا وأفريقيا وتكاد قارة أوربا تمسه، وهو صلة التمدن بين الشرق والغرب. وقد أصبحت تربته التي تفيض لبناً وعسلاً ونيله

الذي يجري لجيناً وذهباً مطمحاً لأبصار الغرباء ومسرحاً للأجانب يهبطون من جميع أنحاء العالم فتنازع البقاء فيه بين الوطنيين والأجانب أشد منه في كل مستواه، فإذا لم ترق الأمة المصرية إلى مستوى الغربيين النازلين في ديارها، دارت عليها الدائرة ووجدت نفسها في هذا العراك مغلوبة على أمرها. والسلاح الذي يقوى به خصم على خصم في هذا القرن إنما هو سلاح العلم، فكلما يؤول إلى ترقية العلوم ونشر المعارف في بلاد زاد في قوتها وصلاحيتها للغلبة في تنازع البقاء. والمكاتب العامة من أفعل الذرائع في نشر العلوم وترقية العقول، فهي بالنتيجة من أفضل الوسائل لترقية الأمم التي تعرف كيف تنتفع بها حتى تصير أقدر على الثبات في تنازع البقاء وأصلح للبيئة العصرية التي أوجدتها فيها نواميس الطبيعة وشرائع العمران.

لذلك كانت هبة أحمد زكي باشا للأمة المصرية وسيلة فعالة لنشوئها وارتقائها وذريعة حيوية لصيرورتها، صالحة لبيئتها العصرية وحياتها العمرانية، فعلى الأمة أن تقدر هذه الهبة حق قدرها وأن تكافئ من أحسن إليها بها بإقامة أثر خالد له يليق بقدره وقدرها. وأفضل أثر أن يصنع لزكي باشا تمثال ينصب في باحة المكتبة التي وقفها على أمته لكي يكون شاهداً بفضله ونبله وأثراً يشهد أيضاً بوفاء أمته ومعرفتها جميله، وحتى يعرف الذين في وسعهم نفع البلاد أن الأمة لا تجحد فضل أبنائها وأنهم إذا أحسنوا إليها فإنما هم يحسنون إلى أنفسهم.

الحفلة التأبينية للمنفلوطي

رزئ الأدب بوفاة كاتب كبير من كتّاب العربية هو السيد مصطفى لطفي المنفلوطي[23]، أحد مشاهير كتاب مصر. تخرّمته المنية يوم حاول أحد الشبان المصريين اغتيال صاحب العطوفة سعد باشا زغلول رئيس الوزارة المصرية في محطة السكة الحديدية للقاهرة، وهو على أهبة السفر في القطار إلى الاسكندرية ذاهباً إلى لندن لمخابرة حكومتها بشأن الخلاف السياسي بين الدولتين، فأطلق عليه الشاب المصري الرصاص أمام جمهور المودعين، فجرحه جُرحاً انتهى بالشفاء. لذلك لم يبرز مأتم المنفلوطي البروز الواجب حتى لم تكد تشعر العامة بهذه الخسارة الأدبية لانشغال الصحف المصرية بوصف الاعتداء واتجاه أفكار الرأي العام إلى هذا الحادث الفجائي.

كان المنفلوطي أديباً كبيراً لو ألمّ بلغة أجنبية واطلع على كتابات الفلاسفة العصريين لكان في وسعه أن يكون أكبر مما كان، كان في وسعه أن يكون كاتباً اجتماعياً عمرانياً يبحث في لباب الاجتماع ويخوض في معضلات العمران على طريقة ترفعه إلى مرتبة مشاهير الاجتماعيين الشرقيين الذين أحدثوا أثراً بارزاً في بيئتهم. أما وقد أعوزه ذلك ولم يفكّر في العمران تفكير الفيلسوف، فإنه فكّر فيه تفكير الشاعر باحثاً في شؤونه التي هي أدنى إلى العواطف منها إلى العقل، فرسمها بقلم رشيق وتعبير دقيق أصابا هوى في قلوب كثيرين من القرّاء. وكتاباته على الجملة تنمُّ عن شعور راقٍ وأخلاق كبيرة وعواطف سامية. فلقد كان حاد التصور يعطف دائماً وأبداً على الضعيفِ والبائس من أفراد الهيئة الاجتماعية وينفخ في صدور قارئيه عاطفة الحب والحنان والرحمة، لذلك كانت مباحثه على وجه الإجمال في العواطف والشؤون الاجتماعية السطحية ترسمها ريشة رسّام اعتمد على

23 [مصطفى لطفي المنفلوطي (1876-1924) قصصي مصري تلقى دروسه في جامعة الأزهر على يد الشيخ محمد عبده. اعتقل لمدة سنة بسبب انتقاداته لخديوي مصر عباس الثاني وللاحتلال البريطاني. تميز بأسلوبه النثري الفريد، وبترجمة بعض الروايات الفرنسية إلى اللغة العربية].

اختباراته الشخصية ومواهبه الفطرية الرقيقة الشعور. وقد جرى في ذلك كله على أسلوب رشيق العبارة، فصيح اللغة، يبقي في النفس أثراً جميلاً.

ولقد رأى النادي الحمصي في سان باولو جرياً على عادته الحميدة أن يقوم بحفلة تأبينية لفقيد الأدب، لا لمجرّد قيام النادي بالواجب الأدبي الذي فرضه هو على نفسه تجاه البارزين من كتّاب العربية في أمثال هذا الموقف، بل قياماً بغرض أعمّ وواجب أتمّ ألا وهو زيادة توثيق عرى الإخاء بين النصارى والمسلمين عموماً، وبين السوريين والمصريين خصوصاً، وهو إخاء يربط الوطنيين بعروة الجوار واللغة والعادات والأميال ربطاً يشعر معه الفريقان أنهما وطن واحد، وهو ما أشار إليه حضرة رئيس النادي الحمصي السيد شكيب جراب في الحفلة التأبينية التي أقامها له النادي في مساء الرابع والعشرين من شهر أكتوبر وهي حفلة كانت على وجه الإجمال جميلة وأمكننا الإتيان على ذكرها في هذا الجزء من «المجلة» لتأخر صدوره عن موعده بسبب الثورة.

تعاقب الشعراء والخطباء في وصف آثار الفقيد الأدبية ومواهبه الإنشائية متكلّمين بشعور وحماسة فاستغرقت الحفلة زهاء ساعتين. فنثني على النادي الحمصي لإحيائه هذه الحفلة التي لم يقم فيها بخدمة أدبية فقط، بل أدى بواسطتها خدمة وطنية جليلة.

أحمد باشا تيمور

رزئ العالم وذووه والأدب وعارفوه بوفاة أحمد تيمور[24]، أحد أعلام الأمة المصرية وكوكب من كواكب نهضتها العصرية. وكل ما يدمي مصر يجرح سورية، خصوصاً لأن للفقيد فضلاً عليها يبقى أبد الدهر. فلقد اتصل بنا أنه أهدى مكتبته التي تبلغ عشرين ألف مجلد إلى المجمع العلمي السوري في دمشق، وكثير من هذه المجلدات مخطوطات ثمينة نادرة المثال، كان يبعث ببعضها في البريد إلى المؤلفين والبحاثين للاطلاع على ما فيها والاستعانة بكنوزها، وهو غاية الكرم بل كرم نادر بين غواة الكتب.

أربت هذه المخطوطات على أربعة آلاف مجلد بين لغوية وتاريخية وأدبية وعلمية، كلها من نخبة الأقلام وثقات الباحثين. والغريب من أمرها أنه قرأ كل كتاب منها وعلق عليه من الحواشي، ما جعله كنزاً ثميناً لكل كاتب في حاجة إلى الاطلاع عليه، ووضع له فوق ذلك فهرساً يسهل على المطالع طلب المادة التي هو في حاجة إليها. وقد اشتهرت هذه المكتبة التيمورية، وكانت مرجعاً لجمهور من المؤلفين وحملة الأقلام، يعودون إليها في كثير من أبحاثهم. وقد بلغ من شهرتها أن أصبحت مقصداً للمستشرقين الذين هبطوا مصر للسياحة أو قضاء فصل الشتاء فيها. بل كان فريق منهم يرجع في موضوعاته إلى ما فيها من الكتب الثمينة. ولما كان صاحبها مفطوراً على الكرم وشرف الأخلاق، فقد فتح أبوابها على مصاريعها للعلماء والباحثين من وطنيين ومستشرقين.

كان الفقيد في علمه وأدبه أكبر منه في شهرته، رغماً من اتساعها وذيوعها، فهو من الرجال القليلين الذين لم يثيروا حول أسمائهم عواصف من التبشير والتذييع، ولم يتزلفوا إلى

---

24 [أحمد تيمور (1871-1930): كاتب ومثقف مصري، كان جده ضابطاً عثمانياً رافق محمد علي باشا إلى مصر سنة 1801. اتقن الفرنسية والتركية والفارسية إضافة إلى العربية، واستضاف صالوناً أدبياً في القاهرة ضم نخبة من المفكرين والمثقفين السوريين والمصريين، وكان عضواً في المجمع العلمي العربي. أهدى قبيل وفاته دار الكتب المصرية مكتبته الضخمة].

أصحاب المقامات العالية ولا أصحاب الصحف السيارة، والشهرة التي نالها جاءته عفواً بطبيعة الحال وكان يجب أن تكون أكبر مما هي.

خدم العلم والأدب والمجمع العلمي المصري ووطنه خدمات جليلة، وكان قبل وفاته عضواً في مجلس الشيوخ، فاضطر إلى الاستقالة من عضوية المجلس لعلة قلبية أصابته على أثر وفاة نجل له. ونحن لا نعزي الأمة المصرية، بل نشاطرها المصاب في هذا الخطب الجليل، وإن لها ولنا عزاء بما خلفه الفقيد الكبير من الآثار الخالدات، وما أنجبته مصر من كبار العلماء وحملة الأقلام والأدباء والشعراء.

ذكرى ويصا واصف

من أنباء البرق نعي رجل كبير من كبار المصريين وسياسي شهير من ساستهم هو ويصا بك واصف[25] رئيس المجلس النيابي الأخير.

كان ويصا واصف قبطياً، رأى بعين بصيرته وجوب التضامن بين الأقباط والمسلمين لتأييد القضية المصرية ونيل الاستقلال المنشود، وذلك في زمن كان فيه العداء مستحكماً بين الفريقين استحكاماً كبيراً، فمن نادى حينئذٍ من الأقباط بالاستقلال كان يُعد خائناً من الطراز الأول.

فعل التعصب الديني فعله الذريع في مصر على حد سائر الأصقاع المتعصبة، بل كان التعصب فيها أشد منه في سوريا وكان الأقباط ينظرون إلى الإنكليز نظر الغريق إلى سفينة بجانبه جاءت تنقذه من الغرق.

اتخذ الإنكليز الأقباط حجة لبقائهم في القطر المصري، محافظة على الأقلية، مجاهرين أنهم إذا جلوا عن مصر قام المسلمون على الأقلية وذبحوهم. والحقيقة أن الأقباط لم يكونوا راغبين مطلقاً في جلاء الإنكليز عن القطر المصري، فقد كانت حينئذٍ بينهم والمسلمين هوّة عميقة.

وسط هذا التيار الهائل، زج ويصا واصف نفسه في الحزب الوطني المصري رغماً من ضيق

---

25 [ويصا واصف باشا (1873-1931) سياسي مصري تميز طيلة حياته السياسية بنضاله المتواصل ضد السيطرة البريطانية على مصر. تلقى دروسه في باريس وعاد الى مصر يمارس مهنة التعليم، ثم درس المحاماة وكتب سلسلة مقالات بالإنكليزية في «الإجيبشن غازيت». انتمى سنة 1906 إلى الحزب الوطني المصري بقيادة مصطفى كامل. لكنه ترك الحزب الوطني بعد الحرب العالمية الأولى وانتمى إلى حزب الوفد بقيادة سعد زغلول. وفي أعقاب نفي سعد زغلول إلى جزر السيشل في الأعوام 1921-1923 تولى ويصا باشا قيادة الحزب وشن حملة مقاطعة للبضائع البريطانية. اعتقل من قبل البريطانيين وصدر بحقه حكم بالإعدام، تم استبداله لاحقاً بالسجن ودفع غرامة مالية. خاض سعد زغلول بعد عودته من المنفى الانتخابات النيابية فحقق فيها حزب الوفد فوزاً ساحقاً. بعد وفاة زغلول في آب 1927 لعب ويصا باشا دوراً هاماً في السياسة المصرية].

أحواله المالية، فقد كان أولاً معلماً بسيطاً في مدرسة بسيطة، ثم اضطر إلى ترك التعليم وأصبح في فاقة شديدة، فأنقذه أحد أصدقائه من هذه الورطة بأن دبّر له صديقاً له يعلمه ويصا واصف في بيته بأجرة شهرية قدرها ثمانية جنيهات.

كنت ما أزال حينئذٍ في القطر المصري، ولكني لم أعرف شيئاً عن ويصا واصف في ذلك الزمن لأنه لم يكن من الرجال البارزين أو المشهورين، بل لم يكن من الرجال المعروفين إلا عند الدائرة الضيقة التي كان وقتئذٍ فيها. وأظن أن صديقي مصطفى باشا كامل رئيس الحزب الوطني المصري ذكره مرة أمامي حاسباً انخراطه في الحزب المذكور أمراً غريباً.

يرجع إنشاء الحزب الوطني المصري إلى صديقي عرابي باشا الشهير الذي لم يكن لي صلة معرفة به إلا بعد عودته من منفاه في جزيرة سيلان، وصرت بعد ذلك طبيباً له ولعائلته. وقد كان هذا الحزب في أول أمره عسكرياً للتخلص من سيطرة الضباط الشركسيين، ولكنه ألمّ بعد ذلك بالشؤون السياسية أيضاً.

وبعد الاحتلال الإنكليزي، رقد الحزب المذكور رقدة طويلة حتى أوائل القرن الحالي، فأحياه مصطفى كامل بمقالاته في جريدة «اللواء» وبخطبه في الاسكندرية والقاهرة، وكان له في أيامه صولة كبيرة. ولكن مصطفى توفي أبان الشباب، فانتخب خلفاً له محمد فريد ولم تطل إقامته في مصر بسبب الإجراءات الاستبدادية، فهرب من جورها إلى أوربا والأستانة، ولكنه ظل رئيساً للحزب حتى وفاته.

قبض حينئذٍ على أعنة الحزب المذكور سعد باشا زغلول بعد أن استعفى من وزارة العدلية، وكان قد أنشأ لنفسه إسماً كبيراً فالتف حوله الوطنيون من كل حدب وصوب، وكان ويصا واصف قد بدأ حينئذٍ بالظهور في الهيئة الاجتماعية والأندية السياسية خصوصاً لأنه كان قد درس أثناء هذه السنين في أيام ضيقه فن المحاماة ونال براءته وأصبح من رجال الحزب الوطني المعروفين.

كانت الحال السياسية بين الأقباط والمسلمين ما تزال متوترة، خصوصاً بعد مقتل بطرس باشا غالي رئيس الوزارة المصرية وعميد الأقباط لأسباب أخصها الاتفاق الذي عقده مع اللورد كرومر بشأن السودان، إذ صار بعد الاتفاق المذكور مشتركاً بين المصريين والإنكليز.

وكان القاتل شاباً عصبياً أشرب مبادئ الفوضوية في أوربا فتربص لبطرس باشا غالي وهو خارج من الوزارة وأطلق عليه رصاص مسدسه، فتوفي غالي بعد عملية جراحية وحُكم على القاتل بالشنق، فازداد العداء بين الأقباط والمسلمين ولكن مرور الزمن خفّف وطأته.

رأى سعد باشا زغلول أن يعزز الحزب الوطني بضم نجل بطرس باشا غالي إليه، وكان غالي وقتئذٍ في أوربا. وخيل أولاً إلى زغلول أن هذه الأمنية محال، ولكن ويصا واصف أخذ على عهدته تحقيقها وبعث برقية طويلة إلى غالي باشا في باريس فجاءه الجواب بالإيجاب وانضم غالي إلى الحزب الوطني المصري ناسياً في سبيل وطنه دم أبيه.

سمت بعد هذا منزلة ويصا واصف في الحزب الوطني المصري سمواً كبيراً، واصطحبه معه سعد باشا زغلول إلى أوربا عضواً من أعضاء الوفد. وكان ويصا بارعاً باللغة الفرنسية فضلاً عن أنه كان خطيباً مجيداً، فقدم لوفد الحزب الوطني المصري أثناء وجوده في أوربا خدمات جليلة، ومنذ ذلك الحين صار الحزب الوطني المصري معروفاً باسم الحزب الوفدي نسبة إلى الوفد المذكور، وأصبح أصحابه الآن معروفين باسم الوفديين.

ماتت على أثر هذا العداوة بين الأقباط والمسلمين وزالت التعصبات الدينية بينهم بالمرة. وحدث مرة أثناء الانتخابات للبرلمان المصري أن كان في عداد المرشحين للانتخاب اثنان، أحدهما مسلم والآخر قبطي، فوقف الأول منهما يدعو السامعين إلى مناصرته قائلاً: «أتناصرون قبطياً ولا تناصرون أخاكم المسلم؟» فأنزلوه عن دكة الخطابة وأهانوه وضربوه.

قدم سعد باشا زغلول خدمات جليلة لوطنه مدة رئاسته للحزب، وفي سبيل وطنه نفي وأصابه في منفاه ضيم ومرض. ولما عاد من منفاه إلى وطنه، أحفلت القاهرة بمهرجان لم تر له نظيراً. وكان ويصا واصف في كل أعماله الوطنية يده اليمنى وكانت الانتخابات للبرلمان تسفر عن أكثرية ساحقة للوفديين قلّما رأت لها المجالس النيابية مثيلاً.

كاد الوفديون ينالون مطالبهم كلها لولا تلك الجريمة التي ارتكبها بعضهم وهي الفتك بالسردار هنا، والغريب في ذلك كله أنه لم تكن هنالك أسباب وطنية لقتله، بل كان هناك أسباب شخصية كرفضهم من وظائف وما شاكل. فاتخذت الحكومة البريطانية هذه الجريمة حجة لإلغاء كثير مما وعدت به ووضعت يدها على السودان كلها دون أن يكون لمصر شراكة

فيها، فضلاً عن الغرامة التي وضعتها على مصر. وحاول سعد زغلول وويصا واصف وسائر أركان الوفديين تخفيف النتائج دون فائدة، واضطر بعد هذا سعد زغلول إلى تقديم استقالته وذلك ما زاد مرضه الذي انتهى أخيراً بوفاته.

كان ويصا واصف على عهد النحاس باشا أهم منه على عهد زغلول، فقد كان في عداد وفد مصري حضر في أوربا المؤتمر الدستوري، وهناك ظهر للمصريين أنهم أقل تعصباً وأرحب صدراً من كثير من الأمم الأخرى التي احتج نوابها في المؤتمر المذكور على الحيف الذي يقع على أقلياتها في بلادها. أما ويصا ورفقاؤه فإنهم كانوا يبتسمون ويضحكون لأن الأقلية في مصر وهي الأقباط نالوا أكثر كثيراً من حقوقهم. ففي وزارة سعد كان وزيران من الأقباط وهم جزء من أربعة عشر أو خمسة عشر جزءاً من المسلمين، ولو كانت الوظائف بموجب الأديان لما نالوا على الأكثر إلا وكالة نظارة. وهذا الحد في التسامح في بلاد خرجت حديثاً من التعصب الديني مما يدعو إلى الدهشة والإعجاب.

أنتخب ويصا واصف في البرلمان الأخير رئيساً له، وألقى من على منبر الخطابة خطاباً جميلاً دل على الرزانة والحنكة وسمو العقل وبعد النظر. والبلاد التي تنتخب من أقلية ضئيلة في بلادها كالأقباط وزيرين من وزراء دولتها ورئيساً لبرلمانها لبلاد يحق لها أن تفاخر بتسامحها وتباهي برحابة صدرها. رغماً من ذلك كله ما يزال المستعمرون يتهموننا بالهمجية والتعصبات الدينية الفظيعة، وأنهم إذا لم يحتلوا بلدان الشرق قام الشرقيون بعضهم على بعض وأكلوا بعضهم بعضاً!

سار ويصا واصف في سبيل كل حي. مضى رجل عصامي أنشأ لنفسه ولوطنه مجداً وفخراً.

يعجبني منه إقدامه على الاشتراك في الحزب الوطني المصري غير هياب ولا وجل، يوم كان يحسبه الأقباط كلهم خائناً، ففي الشجاعة الأدبية فضيلة قلما ترى مثلها في البسالة.

ويعجبني منه أنه احتمل الشدائد صامتاً، باسماً، وهو كبير القلب كبير النفس، لا تجد الصغارة إلى روحه طريقاً، ولا اليأس إلى فؤاده سبيلاً، يؤمن بنفسه، ويؤمن بوطنه، ويؤمن بمستقبله، دائساً الرأي العام بنعله متى علم أنه على صواب والرأي العام على خطل.

والوقوف في وجه الرأي العام من أخطر الإجراءات التي يقوم بها الرجال الكبار وهي من أدل البراهين على الشجاعة الأدبية.

ويعجبني منه أنه لم ييأس من الطبيعة البشرية، فحمل غالي باشا على التضحية بعواطفه على مذبح الوطن، والتضحية بالعواطف أثمن التضحيات على وجه البسيطة، ومتى كانت في سبيل الوطن كانت أشرفها!

ذكرى الاحتلال البريطاني للقطر المصري

[1]

اسماعيل باشا

في الرابع عشر من الشهر الفائت، انقضى خمسون عاماً من الاحتلال البريطاني للقطر المصري. مرت كأمس الدابر أو كهزيع من الليل، بل مرت كخمسين قرناً من الاستعباد.

كان إسراف إسماعيل باشا وبذخه العامل الأكبر لمداخلة إنكلترا وفرنسا في شؤون القطر المصري، فلقد كان رجلاً مبذراً تبذيراً لم يرَ له الشرق مثيلاً منذ زمن البرامكة، يصرف المال في سبيل كرمه وشهواته بلا حساب، ويسرف إسرافاً ذهب مثلاً في الشرق والغرب. فكانت بدر المال تذوب في يده كما يذوب الثلج في مرجل، فإذا حضر ليلة تمثيل في الأوبرا الخديوية وأعجبته ممثلة وهبها مالاً جزيلاً. ومن الحكايات التي قصها عليّ صديق من كبار المصريين أنه وهب مرة ممثلة ألفي جنيه وسلمها تحويلاً على الخزينة بذلك، فلما ذهبت صباح اليوم التالي إلى أمين الخزينة لقبض المبلغ، تأملها هذا وأدرك سر التحويل فأجابها «لا مال الآن في الخزينة»، فعادت إلى اسماعيل وقصت عليه الأمر، فأعطاها تحويلاً بمبلغ أربعة آلاف جنيه، فكاد أمين الخزينة يجن وقال لها «إذا لم يكن عندي ألفا جنيه فكيف أدفع لك أربعة آلاف؟» فعادت إلى إسماعيل مرة أخرى، فأعطاها تحويلاً على الخزينة بمبلغ ثمانية آلاف جنيه، فرأى أمين الخزينة أنها إذا ذهبت عادت مرة أخرى إليه وبيدها تحويل بمبلغ ستة عشر ألف جنيه، فدفع المبلغ وهو يكاد يحترق غيظاً.

ومن أقاصيصه المشهورة في مصر أن صحافياً سورياً تمكن بواسطة بعض رجال الحاشية من المثول أمامه، وكان إسماعيل يرغب في مناصرته وأن يهبه مبلغاً لتأسيس جريدة ومطبعة لا يقل عن عشرة آلاف جنيه، فلما مثل في حضرة الخديوي طلب منه هذا أن يقول ما يريد، فأجابه الصحافي بعد تردد طويل «أرجو مولاي أن يساعدني بمبلغ ثلاثمئة جنيه». فحنق منه اسماعيل وقال له «اسماعيل باشا يقول لك أطلب ما تريد فتطلب ثلاثمئة جنيه فقط.

انصرف عني ولا ترني وجهك بعد الآن». ثم التفت إلى أعوانه وقال لهم «أعطوه ما طلب ولا تدعوه يدخل قصري مرة أخرى».

ودعا مرة عائلة إلى قصر ابتناه حديثاً واشترى له أفضل الرياش، وأدّب لها ولبعض أخصائه مأدبة فخمة، ولما همت العائلة بالانصراف وقف اسماعيل وقال لأعضائها «أنا المودع لا أنتم فهذا القصر يخصكم وخدمته يقبضون رواتبهم من خزينتي»، ثم ودعهم بين انذهالهم وانذهال الحضور.

هذه بعض أمثلة من كرم اسماعيل، بيد أن إسرافه وعيوبه لا يجوز أن تكون مانعاً من ذكر حسناته الجمة، فمصر الحديثة ليست سوى إبنة اسماعيل باشا، وفي أيامه ازدهرت العلوم وأنشئت المدارس والجرائد، وكان للسوريين اليد الكبرى في تمدين مصر وترقيتها ونشر ألوية المعارف فيها وإحياء اللغة العربية وإدارة مصالح حكوماتها وبيوتها التجارية، حتى كان المصريون ينتظرون قطر السكك الحديدية في محطة القاهرة، فإذا نزل منها سوري ألقوا القبض عليه كما لو كان مجرماً، ورغبوا إليه في أن يكون مستخدماً في مصالح الدولة أو مصالحهم التجارية. وقد رأت بريطانيا منذ عشر سنين أن مصر أهل للاستقلال، أما فرنسا فترى أن الذين كانوا أساتذة مصر غير أهل للاستقلال.

إن إسراف اسماعيل وتبذيره أفضيا به أخيراً إلى الإفلاس، حتى اضطر إلى عرض أسهمه في قناة السويس للمبيع، فاستولت عليها إنكلترا بما عرف عنها من الدهاء وانتهاز الفرص. وكيفية ذلك أن جريدة مسائية في لندن نشرت خبراً مؤداه أن اسماعيل باشا خديوي مصر على وشك الإفلاس، وأنه يعرض الآن أسهمه الكبيرة في قناة السويس للمبيع، وكان رئيس الوزارة حينئذٍ دزرائيلي الشهير وهو رجل يهودي، فقادته غريزته اليهودية إلى القيام بصفقة تجارية رابحة لدولته، فأصدر أمراً إلى قنصل الدولة البريطانية في القاهرة أن يخابر اسماعيل بهذا الصدد، وكانت فرنسا في الوقت نفسه قد أصدرت أوامرها إلى قنصلها في القاهرة لهذا الغرض عينه. فتوجه هذا تواً إلى اسماعيل، ولما قابله أفاده الخديوي أنه جاء متأخراً بضع دقائق، وأنه باع أسهمه لإنكلترا بمبلغ خمسة ملايين جنيه، لذلك أصبحت هذه الدولة صاحبة السيادة على الشركة.

بيد أن إسراف اسماعيل لم يعرف حداً، فلم تلبث هذه الملايين بين يديه أن ذابت كما ذابت أخواتها من قبلها، وشرع بعد ذلك يقترض من إنكلترا وفرنسا القرض تلو القرض ويبذرها في سبيل شهواته، حتى أصبحت الحكومة المصرية مديونة لهاتين الدولتين بمبلغ هائل لا يقل عن مائة مليون جنيه.

طلبت حينئذٍ هاتان الدولتان أن يكون لهما ممثلان في صندوق الدين المصري وأن تسيطرا على مالية مصر، فكان ذلك الخطوة الأولى في استعباد القطر المصري، وهو الدليل البين على أن الاستعباد المالي يفضي إلى الاستعباد السياسي، وهو السبب الذي لأجله لا نريد أن يتوغل رجال فرنسا في مشاريعهم الاقتصادية في وطننا وتحكيم شركاتهم فيه، حتى لا يكون هذا ذريعة لاستعبادنا من حيث يزينون لنا أنهم يحسنون إلينا. فنحن نفضل أن نكون بدون سكك حديدية وبدون مصانع ومعامل، على أن تكون هذه في بلادنا ويستولي الفرنسيون على جماركنا ومصالحنا تأميناً لأموالهم. ونفضل الارتقاء التدريجي حسبما تسمح به مالية البلاد ونحن سادة أنفسنا، على الطفرة بمال الأجانب الذي يؤدي طبعاً إلى الاستعباد المالي والسياسي.

كان من وراء ما تقدم أن بريطانيا وفرنسا سيطرتا على مال الدولة، وبالتالي على موازنات مصالحها كوزارات المالية والداخلية والخارجية والأشغال العامة والحربية والمعارف. ولما كان المال أساس تلك المصالح، أصبحت كلها بالطبع تحت سيادتهما حتى أفضى بهما الأمر أخيراً إلى أنهما كفتا يد اسماعيل عن مصالح الحكومة بالمرة، وقبضتا هما على أزمّة شؤونها وعينتا لإسماعيل راتباً سنوياً قدره مائة ألف جنيه.

ولكن ما عسى هذا المبلغ الحقير بالنسبة إلى إسراف اسماعيل أن يسد من حاجات هذا المارد ويقوم بنفقات شهواته التي لا تصدق، فلجأ ذات يوم إلى طريقة غريبة جامعة بين الفكاهة والفظاعة، وهي أنه بعث نفراً من رجاله اعترضوا على الطريق عمال الحكومة الذين كانوا عائدين من الداخلية بصناديق الذهب المجموعة من ضرائب الأرياف، وأوسعوهم شتماً وضرباً واستولوا على الصناديق المذكورة وجاؤوا بها خلسة إلى اسماعيل.

لما درى المستشاران الإنكليزي والفرنسي بما حدث ذهبا تواً إلى سراي عابدين لمقابلة

الخديوي والاحتجاج على ما حدث، فاعترضهما في ساحة عابدين فريق من الضباط المصريين وأهانوهما وضربوهما، واسماعيل واقف على شرفة القصر ينتهر الضباط ويقول لهم إنهم بعملهم هذا يخربون مصر. ولكن الحكماء أدركوا أن أولئك الضباط لم يجرأوا على ارتكاب هذا العمل الفظيع إلا بناء على إيعاز اسماعيل.

عاد المستشاران تواً إلى منزليهما وأبرقا إلى حكومتيهما بما جرى، بعد مخابرة إنكلترا فرنسا بهذا الصدد، فوردت اسماعيل منهما رسالة برقية تأمرانه بها أن يتنازل عن عرش مصر ويغادرها في خلال أربع وعشرين ساعة، فاضطر إلى الإذعان مرغماً وسافر من القطر المصري في نهاية المدة المعينة متنازلاً عن عرشه لولي عهده توفيق. وكان آخر جملة فاه بها اسماعيل لابنه توفيق حين تنازل له عن العرش وودعه، قوله:

«احذر عرابي».

ذكرى الاحتلال البريطاني للقطر المصري

[2]

عرابي باشا

هو أحمد عرابي الذي اشتهر بعد ذلك باسم أحمد عرابي باشا، مثير الثورة العرابية الشهيرة، وهو رجل طويل القامة، مجدول العضل، كبير المطامح، حربي النزعة، مقدام جريء. كان بعد عودته من المنفى في جزيرة سيلان من أصدقائي الحميمين، وكنت طبيباً له ولعائلته حتى وفاته، وقد ألف في الثورة العرابية كتاباً في مجلدين لم يطلع أحد عليهما سواي ونجله البكر، وقد فوض إلي ترجمتهما إلى الإنكليزية. وبعد اطلاعي عليهما أعدتهما إليه على أن أتفرغ بعد ذلك لترجمتهما، ولو أجازت الأقدار لي ذلك لأحدث هذا المؤلف دوياً كبيراً في الأندية الإنكليزية. بيد أني علمت بعد ذلك أن الخديوي عباس، وهو الساعي الآن إلى عرش سورية وفلسطين، تطيّر من عزمي على نقل هذا الكتاب إلى اللغة الإنكليزية، وتمكن بالتهديد والإرهاب والرشوة أو الشراء من وضع يده على هذين المجلدين فاختفى أثرهما كل الاختفاء.

كان يقصّ عليّ عرابي أحاديث ثورته الشهيرة بلسان طلق وصوت جهوري، وكان للرجل ذلاقة لسان غريبة في سرد الأحاديث. وكثيراً ما كان يدعوني إلى الإفطار معه في شهر رمضان وحوله أعوانه القدماء من رجال الثورة ورفقاؤه في المنفى، ولم يكن يأتي على ذكر الثورة من نفسه بل إجابة على سؤال مني، وحينئذٍ يتدفق في أخبارها كالسيل. وكان فخوراً على نوع خاص بالموقف الحربي الذي وقفه في ساحة سراي عابدين وهو على رأس الجيش المصري ومن حوله ضباطه يأتمرون بأمره وينتهون بنواهيه، وقد وقف توفيق على شرفة السراي الكبرى أصفر الوجه مرتجف الأعضاء مضطرباً كل الاضطراب. ومما حدثني به عرابي باشا وأنا على مائدته في ليلة من ليالي رمضان ما يأتي:

«لم يجرؤ توفيق في هذا الموقف على النزول إلى ساحة السراي، فشجعه المستشار

الإنكليزي ونزل برفقته ووقف بجانبه، وكنتُ والضباط رفقائي قد أقسمنا في الليلة السابقة إيماناً مغلظة على القرآن الشريف أن نقوم بمهمتنا حتى النهاية، وتعاهدنا على أن نموت أو نظل أحياء معاً، وعلى أن يثأروا لي من توفيق إذا اغتالني. وكان الضباط والجيش طوع بناني، فأصدرت أوامري تلك الليلة إلى الجيش في العباسية للقدوم إلى ساحة عابدين. وفي صباح اليوم التالي وفي الوقت المعين كانت كل فرقة في الموضع الذي عينته لها، فلما نزل الخديوي توفيق والمستشار الإنكليزي تقدما إلى الموضع الذي كنت واقفاً فيه، والسيف مشهور في يدي، فشرعت أخاطب الخديوي بلهجة شديدة ووجهي عابس محتقن بالدم، فالتفت إليّ حينئذٍ المستشار وقال لي «أتخاطب مولاك بهذه اللهجة وأنت شاهر سيفك؟» فأجبته «نعم، وإذا اقتضى الأمر استعملته في سبيل وطني!» وكنت كلما كلمت الخديوي بحدة وعنف استكبر المستشار الإنكليزي الأمر، وتراجع الخديوي خطوتين أو ثلاثاً. وفي أثناء مخاطبتي إياه بهذه الجرأة والصراحة تقدم إليه المستشار وأشار عليه بأن يطلق النار عليّ من مسدسه قائلاً له إني ثائر، فإذا ما فتك بي هدأت الفتنة وقتل الثورة في مهدها، ولكن توفيقاً أحجم عن ذلك فلم يفعل. وفي ختام هذا الموقف أجابني الخديوي إلى مطالبي، وفي خلال أربع وعشرين ساعة أسقط الوزارة وعين مكانها وزارة جديدة».

ومن الأسرار التي باح بها وظلت طيّ الخفاء حتى هذا العهد، أنه توجه ورصفاؤه عند اشتداد الأزمة إلى راغب باشا واستشاروه في أمرهم فأجابهم «اقتلوا الخديوي أولاً ثم تعالوا بعد ذلك إلي». قال عرابي عند هذا «فتعوذنا بالله العلي العظيم من هذه المشورة».

أكد لي عرابي باشا المرة بعد المرة أن من أمر بمذبحة الاسكندرية إنما هو توفيق باشا خديوي مصر نفسه ليجعل للأجانب وسيلة للتداخل في شؤوننا، لأنه أصبح بلا حول ولا طول «حتى أن الأجانب في القاهرة لما اضطروا إلى طلب الأمان على حياتهم، لم يتقدموا إلى الخديوي، بل جاء قناصلهم إليّ فأمنتهم على أرواحهم وأموالهم وأرواح وأموال أبناء وطنهم، ولم يصب أحد بسوء قط».

كان عرابي يرمي في ثورته على ما صرح لي تكراراً إلى إعلان الدستور المصري وتحرير البلاد من سيطرة الشراكسة، خصوصاً الوظائف الحربية، وتحرير مصر من مداخلات الأجانب.

في موقعة التل الكبير خسر عرابي كل ما علقه من الآمال على ثورته، لأن الأعناق كانت مشرئبة إليه وقلوب المصريين معقودة على حبه وولائه. ولو أفلحت ثورته لكان حل على الراجح محل خديوي مصر، لأن الدولة العثمانية نفسها كانت مؤيدة له، وهي لم ترسل جيشاً إلى مصر لإخماد الثورة كما رغبت إليها بريطانيا، وهي لو فعلت لما كان هنالك احتلال بريطاني، ولم تعلن أن عرابي باشا عاص إلا بعد أن أرسلت إليها الدولة الإنكليزية بلاغاً نهائياً تطلب إليها فيه نشر بيان بهذا الصدد وإلا شهرت عليها الحرب.

كانت مذبحة الإسكندرية المتقدم بيانها العذر الأول الذي انتحلته بريطانيا لضرب المدينة واحتلال القطر المصري. وكانت الدولة الفرنسية قد اتفقت مع إنكلترا على أن يقوم أسطول مختلط من مدرعات الدولتين لضرب الإسكندرية، ولكن عندما حلت الساعة انسحب الأسطول الفرنسي لسبب لا يزال حتى الساعة طيّ الخفاء، فخسرت فرنسا بذلك حقها في مشاركة انكلترا بالاحتلال، وترتب على هذا نفور بين الدولتين وتعارض في الآراء والمصالح كاد يفضي أثناء اشتداد أزمة فاشوده إلى حرب طاحنة بينهما. بيد أن فرنسا اضطرت بعد ذلك إلى الإذعان، وبقيت هذه الحادثة في صدرها جرحاً نعاراً إلى أن عقدت معها إنكلترا اتفاقاً أعطتها بموجبه السيادة على مراكش، وكان من وراء هذا تداخل المانيا في الأمر وقدوم الإمبراطور غليوم إلى طنجه، وإلقاؤه خطاباً حماسياً شد به إزر سلطان مراكش، وأعلن أن شؤون العالم لا يمكن أن يجزم في أمرها بمجرد اتفاق يعقد بين فرنسا وإنكلترا. وأمر الإمبراطور حينئذٍ بإرسال مدرعة ألمانية إلى ثغر أغادير بحجة حماية الأمان فيها، فنشأت عن ذلك معضلة مراكش التي كادت تنشب بسببها الحرب بين فرنسا وإنكلترا من جانب وألمانيا من الجانب الآخر. وانتهى أخيراً الخلاف بعقد مؤتمر الجزيرة، فكان الإجماع في جانب فرنسا خلا النمسا فإنها ألقت صوتها مع ألمانيا، وكانت إيطاليا حليفة ألمانيا حينئذٍ في عداد الدول التي ألقت صوتها ضد ألمانيا بعد أن استرضتها فرنسا، ووافقت على احتلالها طرابلس الغرب التي نشبت بسببها الحرب بين إيطاليا والدولة العثمانية على ما هو معروف، وظهر فيها أنور على مسرح سياسة العالم للمرة الأولى.

من سوء حظ مصر وتركيا معاً أن الدولة الثانية، وهي صاحبة السيادة على القطر المصري،

لم تعرف كيف تستفيد من تساهل بريطانيا. ومما حدثني به صديقي صائب بك صهر مختار باشا الغازي مندوب تركيا السامي في مصر، وكان قبلاً أمين أسراره ما يأتي:

«اتفقنا وإنكلترا على أن تسترد جنودها من مصر وتحل جنود عثمانية محلها، فأبرقنا بذلك إلى الباب العالي وجلسنا ننتظر الجواب على أحر من الجمر، وبعد انتظار سبعة أيام وردنا الجواب.

أتدري يا دكتور ما كان؟ كان مفاده أن شابين هربا من إحدى مدارس الأستانة، يجتمعان في مقهى بالقاهرة وطلبوا منا أن نسترضيهما... إني وإيم الله كدت أجن من الغيظ... مضى الوقت واستردت إنكلترا ما عرضته علينا».

ذكرى الاحتلال البريطاني للقطر المصري

[3]

مصطفى كامل

كان توفيق باشا خديوي مصر على خلاف مع والده اسماعيل في الشؤون السياسية، وكانت حادثة صناديق الذهب التي وضع اسماعيل يده بالقوة عليها في عداد بواعث الشقاق بينهما، وكادت تفضي إلى قتل صحافيين كبيرين في القاهرة هما المرحومان سليم وبشارة تقلا صاحبا جريدة الأهرام الشهيرة. تولى الأول منهما رئاسة تحريرها وتولّى الثاني إدارة شؤونها، وكان ذا نفوذ كبير مع رجال الدولة وكبار المصريين، أخص منهم بالذكر توفيقاً نجل اسماعيل وولي عهده. فكان بشارة باشا تقلا موضع سره يكثر التردّد إليه ويتسقط منه أخباراً على غاية الخطورة، في عدادها أن توفيقاً باح له بمسألة صناديق الذهب ووضع أبيه الخديوي يديه عليها، وهو ما لم يدر به أحد خارج القصر. ومن الغريب أن اسماعيل زار نجله توفيقاً أثناء ذلك، فلما درى توفيق بقدومه خبأ بشارة تقلا تحت المقعد، مسدلاً ستاره الحريري كما كان يفعل قبلاً في مثل هذه الظروف عندما يزوره والده، وبشارة تقلا في غرفته الخاصة. وفي اليوم التالي صدرت جريدة الأهرام وفيها خبر على غاية البساطة والإيجاز لا يتعدى سطرين أو ثلاثة، مفاده أن صناديق الذهب لم تصل محلها، بل خطفها لصوص على الطريق.

لم يكد اسماعيل باشا يقف على هذا النبأ منشوراً في الأهرام حتى كاد يجن من الغضب والحنق، وأصدر أمراً مشدداً بإحضار الصحفيين إليه. وكان قد انتشر خبر حنقه عليهما، فقال بشارة لسليم «استتر أنت عن الأبصار وأنا أقدم نفسي للخديوي وأحتمل المسؤولية». فلما مثل بشارة أمام اسماعيل باشا انهال هذا عليه بقوارص الكلام، ثم التفت إلى رجاله وقال لهم «خذوا هذا الخائن واقتلوه». ومن الغريب أن بشارة عندما بلغ باب القاعة وهو خارج منها تحف به حاشية اسماعيل، التفت إلى الخديوي وقال له بجرأة نادرة: «سيكون دمي إنذاراً لك بخلعك عن العرش وزوال ملكك».

بهت اسماعيل عند سماعه هذا التهديد وحسب له ألف حساب، زاعماً أن بشارة تقلا لم يجرأ على التفوه به إلا معتمداً على قنصل دولة فرنسا التي كان بشارة ينتمي إليها ويخدم مصالحها، فتردّد دقيقة صامتاً قال بعدها لأتباعه «أبقوه سجيناً في القصر». والحقيقة أن هذا التهديد لم يكن مبنياً على أساس مطلقاً، وقد تفوّه به بشارة مدفوعاً بالموقف الرهيب موقف الموت. ولقد أنقذت هذه الجرأة النادرة بشارة تقلا من الهلاك، إذ لم يمض يومان أو ثلاثة حتى عفا الخديوي عنه.

لذلك لما خلف توفيق والده اسماعيل وجلس على عرش مصر، وكان على وفاق مع الإنكليز خصوصاً لأنهم أنقذوا حياته وعرشه من ثورة عرابي، فضلاً عما كان مفطوراً عليه من اللطف ودماثة الأخلاق، فلم يحدث أثناء جلوسه على العرش حادث خلاف بينه والإنكليز يستحق الذكر، ولقد قضى نحبه على أثر علة قيل أن أطباءه أساؤا فيها علاجه.

كان إذ ذاك نجله ووليّ عهده عباس ما يزال فتى يتلقّى دروسه في فيينا، حيث تعرف بالإمبراطور جوزف ولقي منه عطف الأب على إبنه. وكان أثناء وجوده في عاصمة النمسا تحت رعاية الإمبراطور وعنايته، وظل الإمبراطور عاطفاً عليه كل حياته.

ارتقى عباس سرير الدولة على أثر وفاة والده توفيق، وكان شاباً كبير المطامح، ميالاً إلى الاستبداد، جانحاً إلى السؤدد عن أي طريق كان. ولقد عاد إلى مصر وقلبه مفعم آمالاً كباراً، عاقداً العزيمة على أن لا يتحدى أباه في الانصياع إلى أوامر الإنكليز. وكان الاحتلال ما يزال إذ ذاك حديثاً والمصريون حانقين عليه حنقاً شديداً، وهزائم الإنكليز ما تزال في السودان حديثة العهد، وتركيا تحاول أن تسترد بالسياسة الخرقاء ما فقدته بالسياسة العرجاء.

لم يدر عباس في عرين أي أسد ألقى بنفسه يوم دخل عرين اللورد كرومر. ومنذ اليوم الذي التقى فيه هذان الرجلان، قامت بينهما حرب عوان كان فيها سلاح الأول منهما الدهاء والمواربة، وسلاح الثاني القوة والصراحة. فكان عباس إزاء كرومر أشبه بصبي يطاول جباراً، وكانت خشية عباس من كرومر خشية التلميذ من الأستاذ.

لما اشتد الخلاف بينهما واستحكمت حلقات الأزمة، وأضرب الموظفون الوطنيون عن العمل في مصالح الحكومة، وأصاب الإدارة شلل تام، وقف الجيش الإنكليزي في ساحة

عابدين ضارباً حول القصر نطاقاً من حديد. وصعد كرومر إلى القصر فقابل عباساً وأنذره أنه إذا ظلّ على خطة المقاومة والعناد فالجنود الواقفة في الساحة ـ وأشار إليهم من النافذة بيده ـ مستعدون لأن يذهبوا به في طريق جده اسماعيل، فاضطر عباس إلى الإذعان. ولكنه ملأ صدره حقداً وقلبه غلاً، وكان مفطوراً على الدهاء خلافاً لأبيه توفيق، لذلك أصبحت مناوأته للإنكليز غريزة طبيعية فيه.

كان النضال الحاسم بينهما يوم توجه عباس إلى حدود السودان لاستعراض الجيش، وكان على رأسه حينئذٍ كتشنر قبل أن يصير معروفاً بين قواد الجيوش، فزين لعباس أحد رجال بطانته أن ينتقد حركات المناورات. ولما مثل كتشنر في حضرته راكباً جواده والخديوي مستو على مطهمه في ساحة المناورات، انتقده عباس انتقاداً مراً، والجيش رافع سلاحه محيياً. وعاد عباس في طريقه إلى القاهرة فبعث كتشنر برسالة برقية إلى اللورد كرومر يستقيل بها من خدمة الجيش، ذاكراً السبب الذي دعاه إلى ذلك، فبعث كرومر برسالة برقية إلى عباس طالباً منه استرداد انتقاده والاعتذار إلى كتشنر. ودارت بينهما وعباس على الطريق مخابرات برقية، أنذر كرومر عباساً في نهايتها بأنه لا يقدر على العودة إلى القاهرة إلا إذا اعتذر أولاً إلى كتشنر، فاضطر عباس مرة أخرى إلى الإذعان وبعث ببرقية إلى كتشنر.

كان صديقي مصطفى كامل باشا أول مصري هبّ إلى المطالبة باستقلال وطنه بعد عرابي باشا، وقد تشبث به الخديوي عباس وهو يناضل اللورد كرومر كما تشبث الغريق بخشبة، فتوجه مصطفى أولاً إلى باريس يناصره الخديوي بالمال والنفوذ. وكان من حسن حظه أن تعرف هناك بسيدة إفرنسية جليلة ذات منزلة رفيعة في عالم الأدب تسمى مدام آدم، عرفته بفريق من كبار الصحفيين، فشرع يكتب في جرائد باريس الكبرى مقالات متتابعة يبسط فيها قضية وطنه أمام الشعب الفرنسي والعالم المتمدن، ثم ما لبث أن عاد إلى القاهرة وأنشأ جريدة اللواء، فكانت لسان حزب الأحرار وأحدثت في مصر دوياً كبيراً.

أحيا مصطفى بعد هذا الحزب الوطني المصري، الذي كان قد أنشأه عرابي، فأنعش آمال المصريين وثأر لعباس من كرومر، خصوصاً بعد حادثة دنشواي الشهيرة، حتى كادت

تشب ثورة تأكل الأخضر واليابس، فرأى كرومر أن يطلب من الحكومة البريطانية إنزال الخديوي عباس عن العرش، بيد أنها لم تجبه إلى طلبه فاضطر إلى الاستقالة.

منذ الساعة التي انتظم فيها الحزب الوطني المصري، أصبحت المسألة المصرية نضالاً بينه والحكومة البريطانية على ما هو معروف ومشهور. وإذا كان صديقي مصطفى كامل باشا قد قصفته المنون في ربيع الحياة، كما تقصف العاصفة زنبقة الحقل، فإن روحه ما تزال فوق وطنه، وتوحي إليه الجرأة والشجاعة والتضحية والثقة والإقدام جرياً على شعاره وشعاري: «لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة».

أعلام وشخصيات شرقية

مصرع طلعت باشا

سقط طلعت باشا[26] قتيلاً في برلين في رائعة النهار بيد فتى أرمني يسمى سليمان كاليريان لا يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر وذلك انتقاماً منه للمذابح الأرمنية أثناء الحرب التي كان هو سببها الأكبر، وكان أبو سليمان القاتل في عداد ضحاياها.

ترصد سليمان طلعت إلى أن أبصره يوم مقتله ماراً في أحد شوارع المدينة، فأسرع إليه وزحمه بمنكبه فالتفت طلعت ليرى من الزاحم فابتدره سليمان بطلقتين من مسدسه أرداه بهما قتيلاً. وكان برفقة طلعت زوجته فأصيبت هي أيضاً بجرح بالغ، ولا تفيد الأنباء البرقية ما إذا كان هذا الجرح حصل عمداً أو خطأ، والراجح الأول.

ولقد تألب الشعب على القاتل وكاد يفتك به لولا أن بادر رجال الأمن إلى إنقاذه فاقتادوه إلى أقرب إدارات الأمن، ولما حاولوا استنطاقه أبى أن يفوه بشيء قبل حضور الترجمان رغماً من أنه يحسن اللغة الألمانية. وقد أنكر أن لأحد من الناس أدنى علاقة بعمله.

ولا شبهة في أن الأرمني تخير للأخذ بثأر قومه وأبيه الرجل الذي كان سبباً للمذابح الأرمنية أثناء حرب الأمم. وقد تكون ضحايا طلعت أكثر كثيراً من ضحايا عبد الحميد، وقد صرح مرة أثناء الحرب لأحد كبار الرجال الأجانب «أننا اتخذنا الاحتياطات اللازمة حتى لا تبقى بعد الآن مسألة تسمى المسألة الأرمنية»، وهو يريد بذلك أنه قد اتخذ الإجراءات اللازمة لإفنائهم عن بكرة أبيهم.

وكان طلعت قليل التحفظ من هذا القبيل، ولم يكن هذا منه عن جهل سياسي، بل عن ثقة كبيرة بنفسه والنصر الهائل الذي كان يثق بإمكان إحرازه مع حليفته ألمانيا. لذلك

26 [محمد طلعت باشا (1874ـ1921) أحد كبار المسؤولين الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى. شغل منصب الوزير الأول عام 1917، وعندما تولى منصب وزارة الداخلية سنة 1915 أمر باعتقال الزعماء الأرمن في اسطنبول وترحيلهم، ثم تمت تصفيتهم في ما عرف بالمذابح الأرمنية. قتل في برلين على يد أحد الناجين من المذابح].

كان يصرّح على رؤوس الأشهاد بأنه عازم على الإجهاز على الأرمن إجهازاً تاماً.
كان طلعت قبل الانقلاب العثماني وظهوره على مسرح السياسة عاملاً بسيطاً في إدارة التلغراف لا يتجاوز راتبه الشهري خمس ليرات عثمانية. وقد أخبرنا من يعرفه شخصياً حق المعرفة أن سبب ارتقائه بعد إعلان الدستور الخدمات التي أدّاها لحزب الاتحاد والترقي يوم كان عاملاً في إدارة البرق، فإنه كان يرسل سراً إلى الحزب المذكور كل الرسائل البرقية التي تهمهم معرفتها، وكان واحداً منهم، لذلك قدّم لهم خدمات كثيرة لم يتمكنوا لولاها من معرفة كثير من الأسرار التي كانت هدى خطواتهم ومرشداً لإجراءاتهم الجريئة في ظروف شتى.

تقول الأنباء البرقية التي وردتنا مؤخراً إن طلعت كان أحد أركان النهضة العثمانية الثلاثة، وهم طلعت وأنور ونيازي. وذلك ليس من الحقيقة في شيء، فإن طلعت لم يتعدّ في طور الثورة التي اضطرت عبد الحميد إلى إعلان الدستور وظيفة الجاسوس، بل إن أنور نفسه لم يكن في هذا الطور إلا ممثلاً ثانوياً قليل الأهمية. أما نيازي فقد كان أشهرهم كلهم اسماً وأبطشهم فعلاً، ولكن مأتيه ومأتي أنور لم تتجاوز في هذا العهد أعمال العصابات. أما الحركة الثوروية الفعالة، فقد كان دماغها أحمد كمال في باريس وذراعها شوكت باشا في سلانيك. ولم يظهر أنور على مسرح السياسة الكبير إلا بعد أن قام بتلك الضربة السياسية الكبرى التي أسقط بها وزارة كامل وقتل وزير الحربية بمسدسه على باب مجلس الوزراء وأكره كمال باشا على التنازل عن رئاسة الوزارة، فحمل هذا الاستعفاء وسار به تواً إلى السلطان حيث أكرهه على تعيين وزارة جديدة من حزب تركيا الفتاة. ومنذ تلك الساعة تولى دفة المملكة مع نفر من أصدقائه وأقلع بمركب تركيا البالي إلى أن كسره على صخور حرب الأمم، وهو الذي كان سبباً للفتك بنيازي وشوكت باشا لأنه كان يخشاهما. أما طلعت فلم يكن له في كل ذلك ذكر على الإطلاق، وكان بدأ ظهوره كسياسي بسيط ولم تبرز مواهبه العقلية إلا بعد ذلك بزمن، وما زال يرتقي في سلم الدولة إلى أن تربع في دست الوزراء وهو أعظم مناصب الدولة.

كانت شؤون السلطنة تدار، بعد إعلان الدستور على وجه عام وفي أثناء حرب الأمم على

نوع خاص، بواسطة جمعية الاتحاد والترقي لا بواسطة الوزارة التي كانت تدير حكومتها الجمعية الثوروية حيث كانت تدور المناقشات ليلاً على شؤون الدولة والخطة التي يترتب على الحكام الجري بموجبها، وكان ما يقر عليه قرار الجمعية ليلاً ينفّذ نهاراً. لذلك كان حكام السلطنة العثمانية في قلب جمعية الاتحاد لا في قلب وزارة الدولة. وكان من مزايا أعضاء الجمعية المذكورة أنهم كانوا يسندون المناصب إلى أصحاب الكفاءة بقطع النظر عن كل شيء آخر، ومتى وثقوا به أطلقوا يده في دائرة اختصاصه.

برز أثناء الحرب ثلاثة رجال كان عليهم مدار السلطنة العثمانية، وهم طلعت وأنور وجمال. تولّى أولهم أزمتها السياسية والثاني شؤونها الحربية والثالث جيشها في الشرق. فكان طلعت دماغ المملكة المفكّر وربها المدبر. ومع أنه كان وأنور بحسب الظاهر صديقين حميمين، فالحقيقة أنهما كانا يتنازعان السيادة ولكن الخلاف بينهما ظل مكتوماً على الغير إلا أصدقائهم الحميمين. أما جمال فكان في سوريا بمعزل عنهما يستبد في أحكامه أنى شاءت أهواؤه، ومع أنه كان بالاسم تحت إمرة أنور، فقد كان على الحقيقة مستقلاً في شؤونه لا يسيطر على أعماله أحد، ولم يجرأ طلعت وأنور على عزله رغماً من مآتيه الجائرة وأعماله الاستبدادية. وقد بلغه مرة بعض أصدقائه في الأستانة إشاعة عزله فأجابهم «ليس جيش سالونيك بالجيش الوحيد الذي يهاجم الأستانة»، وهو يعني بذلك جيش شوكت باشا الذي زحف على الأستانة بعد فتنة 13 أبريل، أي أنه إذا عزلوه زحف عليهم بجيشه في سوريا.

كان طلعت كثير التشبث في آرائه متصلفاً عنيداً، وكان إذا أصر على رأي أو كلمة في محادثته سفيراً من سفراء الدول يبسط يده العريضة على مكتبه بشدة ويظل ضاغطاً بها حتى يكاد يخيل إلى الناظر أنها مسمّرة تسميراً. من ذلك ما حكاه بهذا الصدد المستر مورغنثو سفير الولايات المتحدة في الأستانة، قال ما مفاده «توجهت لمقابلة طلعت باشا الصدر الأعظم لأمر خطير، فرأيت معه صلابة في الرأي. وفي خلال الحديث بسط يده على المكتب كجاري عادته في كل أمر يبدو منه صلف في الرأي، فأدركت صعوبة الموقف ولكن تقدمت أخيراً إليه وقلت له «يا صاحب السعادة إن علة المعضلة التي نحن فيها الآن

إنما هي هذه الكف المنبسطة التي تبدو كأنها مسمّرة، فاسمح لي أن أزيحها قليلاً لأني على ثقة من أنه متى أزيحت هذه الكف من موضعها انحل المشكل»، ثم اقتربت منه وأخذت كفه بيديّ كلتيهما ورفعتها عن المكتب، فضحك الوزير عند ذلك وأجابني إلى سؤالي».

حادث مورغنثو طلعت بشأن المذابح الأرمنية غير مرّة دون أن يترتب على ذلك فائدة عميقة تستحق الذكر. والحقيقة أن طلعت كان عاقداً النية على استئصالهم بالمرة، ولو كانت الغلبة من جانب ألمانيا أو طالت الحرب لم يبقَ من الأرمن المساكين من يستحقون الذكر لدى مؤتمر الصلح. والفظائع التي أنزلها الأتراك بالأرمن فظائع تتقلص لمجرد ذكرها الأعضاء.

والواقع أن طلعت ورصفاءه اتبعوا خطة عقيمة وهي تسويد العنصر التركي بإفناء العناصر الأخرى. وقد جروا في ذلك على طريقة علمية منظمة لو طال أمرها لأودت بحياة كثير من الشعوب، بل أغرب من كل ما تقدم أنهم حاولوا إحياء اللغة الطورانية واستعمالها بدلاً من اللغة التركية، والطورانية هي لغة عنصرهم الأصلي. وكل ذلك من الغرابة بمكان.

الخطأ الذي ارتكبه طلعت خطأ السلطنة العثمانية منذ وجودها حتى الساعة، وهو عدم تمكنه من دغم عناصر الأمة الواحد بالآخر وعدم إيجاد أمةٍ من شعوب مختلفة يمتزج بعضها ببعض امتزاج الماء بالخمر. ومن البديهي أن من يحاول تسويد عنصره على بقية العناصر لا يمكنه أن يسعى لإرغامها إذا قدر، ولا يقدر إذا أراد. ومن يحاول قتل لغة حية ليضع مكانها لغة ميتة لا يقدر أن يتبع الأساليب العصرية الحرة في حكم الأمم.

كان طلعت أثناء الحرب الحاكم بأمره في تركيا، ولم يكن للسلطان سوى السلطة الإسمية. وظلّ كذلك حتى دارت الدائرة على ألمانيا وحلفائها، فشعر إذ ذاك طلعت وأنور وسائر رجال تركيا الفتاة بالخطر المحدق بهم، فسافروا سراً إلى وجهة لم يعلمها أولاً أحد ولم يدرِ العالم أنهم اتخذوا ألمانيا ملجأ لهم إلا بعد وصولهم إليها بزمن طويل، فكان طلعت بهربه من الأستانة إلى برلين كالساعي إلى حتفه بظلفه.

ومن الغريب أن طلعت لم يكد يرد له ذكر بعد التجائه إلى ألمانيا خلافاً لأنور الذي وردتنا أنباء شتى بشأنه لا نصيب لأكثرها من الصحة. والظاهر أن العلة المزمنة التي كان طلعت

مصاباً بها أقعدته عن الانهماك بالسياسة، ولكنها لم تصرفه عنها بالكلية. ولكنه كان من الرجال الذين لا يحدثون ضجيجاً في أعمالهم، بل أنه لم يحدث دوياً كبيراً حتى أثناء تربعه في دست الصدارة العظمى رغماً من الضجة الكبرى التي أحدثتها المذابح الأرمنية أثناء الحرب وهو الذي أوعز بها.

كان طلعت من مناوئي الحركة العربية أثناء وجوده في مجلس النواب، وجرت له مناقشات حادة مع السوريين الذين كانوا رصفاء في المجلس المذكور كشفيق المؤيد والزهراوي والعسلي. وحدث أثناء مناقشة عنيفة بينه وشفيق المؤيد في رواق المجلس أنه تطاول على المؤيد وأهانه بالكلام، فصفعه شفيق صفعة شديدة فكان لها دوي كبير.

جثمان محمد علي في المسجد الأقصى

أتينا في أعدادنا الماضية على ذكر الزعيم الهندي الكبير مولانا محمد علي[27] وسفره إلى لندن نائباً عن مسلمي الهند في المؤتمر الذي عقد هناك لحل المعضلة الهندية وإنهاء ثورتها التي ما زالت ناشبة حتى الآن. وأتينا أيضاً على خلاصة خطابه الناري الذي ألقاه في المؤتمر المذكور موجهاً كلامه إلى الحكومة البريطانية عموماً ورئيس وزارتها رمزي مكدونالد خصوصاً، وما كان له من الصدى الرنان. ولقد أظهر في هذا الخطاب الحماسي من الجرأة والبلاغة ما هو حقيق بأن يرفعه إلى مرتبة كبار الخطباء.

لم ينقض على ذلك سوى أيام معدودات حتى ورد نبأ وفاته فجأة، فكان لنعيه رنة أسف تجاوبت أصداؤها في الشرق عوماً والهند وفلسطين خصوصاً. فأقفلت المحال التجارية في بمباي وسائر الأصقاع الهندية والإسلامية التي أكبرت هذه النكبة وشاركها فيها عرب فلسطين الذين كان هذا الزعيم العظيم من أعظم مناصريهم في قضيتهم الوطنية. فلقد عقد المؤتمر الإسلامي في الهند جلسات خاصة للنظر في قضية البراق وبعث بقراراته إلى الحكومة البريطانية، وهي قرارات لم تنحصر في تأييد قضية البراق بل تعدتها إلى مسألة الانتداب، مصرّحة بوجوب جلاء الإنكليز عن فلسطين، قائلة إن مسلمي فلسطين ليسوا إلا وكلاء على آثارها المقدسة التي تخص المسلمين كافة.

نعتقد أن قرارات هذا المؤتمر كانت أفعل لتأييد القضية العربية في فلسطين من جهاد الفلسطينيين أنفسهم، وإليها يعود الفضل الأكبر في إصدار الكتاب الأبيض الذي أحدث ضجيجاً كبيراً ودوياً عظيماً بين يهود العالم في أصقاع الأرض كلها.

انتهز عرب فلسطين هذه الفرصة لإظهار شعورهم العميق نحو الفقيد واحترامهم لذكراه، فبعث سماحة الحاج أمين الحسيني مفتي الديار الفلسطينية ببرقية إلى آل الفقيد في

27 [محمد علي جوهر (1878-1931)، زعيم مسلمي الهند، مثقف، وناشط سياسي، وصحافي وشاعر كان من الوجوه البارزة في حركة الخلافة، وأحد مؤسسي رابطة مسلمي الهند].

لندن، مظهراً أسفه لهذه النكبة التي هي خسارة كبيرة ليس على العالم الإسلامي فحسب بل على الشرق طراً، ومقترحاً نقل جثمان الفقيد العظيم إلى القدس ليدفن في المسجد الأقصى وهو شرف عظيم للراحل الكبير لا يسدى إلا لأفراد ممتازين يعدون على الأصابع، وسيكون محمد علي المسلم الهندي الأول الذي أحرز هذا الشرف الخالد.

بُني المسجد الأقصى كما يقول المؤرخون ويؤكد الصليبيون على أنقاض الهيكل الذي شاده سليمان وأحضر خشبه من أرز لبنان، وحيث خبأ النبي أرميا تابوت العهد قبل أن استولى تيطس على أورشليم وخرّبها تخريباً، وفلح أرضها وزرعها ملحاً. ويعتقد المسلمون أن تحت أرض المسجد بئراً تسمّى بئر الأرواح تتضمن أرواح الأولياء تصعّد الصلوات مرتين في الأسبوع.

تبحر أرملة الفقيد وأخوه ورهط من كبار الهند في لندن إلى بورت سعيد حيث يلاقي النعش ألوف من رجال الدين وزعماء فلسطين وسواهم من وجوه وأعيان البلاد العربية، فيسيرون إلى القدس في موكب فخم لم يسبق له مثيل ويحتفلون بدفن هذا الزعيم الخطير في أقدس بقعة إسلامية بعد مكة. وهو زعيم أهل لهذا الشرف العظيم، فهو الرجل الذي كان يتألب حوله سبعون مليوناً من الهند يأتمرون بأوامره وينتهون بنواهيه.

نعتقد أن هذه الخطوة على بساطتها من أكبر الخطوات التي قام بها مسلمو فلسطين في سبيل البراق والقضية الفلسطينية، فإذا كان مسلمو الهند قد أيدوا قضية البراق وفلسطين غيرة منهم على الآثار المقدسة فيها، فإنهم يؤيدونها الآن مضاعفاً غيرة عليها وعلى ذكرى الفقيد الذي طبقت شهرته العالم الإسلامي، وهو الآن في طريقه إلى الرقاد في أقدس بقعة إسلامية في فلسطين.

نحن الآن على ثقة من أن القضية الفلسطينية أصبحت شطراً لازماً للقضية الهندية الإسلامية، وبدلاً من أن تفكر الحكومة البريطانية مرتين في إصدار قرار جازم بشأن عرب فلسطين والصهيونيين، ستفكر في ذلك مراراً عديدة طويلة. وإذا كانت تحسب حساباً لخمسة عشر مليوناً من اليهود متفرقين مبعثرين في أصقاع العالم، فبالأولى أن تحسب حساباً لسبعين مليوناً من المسلمين مقيمين في قلب الهند التي هي أعظم وأثمن درة في تاج الإمبراطورية البريطانية.

مدحت باشا[28] واستقلال سورية

[1]

أسباب ونتائج

رأت الرصيفة الكريمة «فتى لبنان» أن تجلو قلمي مما علاه من الصدأ فرغبت إليّ في كتابة مقالة بهذا العنوان وذلك بمناسبة ما جاءت على ذكره من القصيدتين السينية والبائية الثورويتين لرصيفي الطيب الذكر الخالد الأثر العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي فقيد العربية والشرق.

والحقيقة أن القصيدتين المنوه بهما نظمهما الشيخ إبراهيم قبل اتصالي به وظل ناظمهما طي الخفاء والكتمان ولم يذكر لي شيئاً عنهما في بيروت مع إنه لم يكن يخفي عني شيئاً بل لم يذكرهما أمامي قط رغماً من أن القصيدة السينية وهي أشهرهما كانت دائرة على الألسن ولم يبح لي بسرها إلا بعد قدومه إلى القاهرة، ولا غرو في ذلك التكتم لأن حياته كانت تتوقف عليه.

بيد أني أذكر أنه جرى له في بيروت حديث في بيته مع رصيفنا الدكتور زلزل كان فيه شيء من الغموض ثم التفت إليّ قائلاً: يجب إدخالك معنا في الماسونية حتى يتسنى لنا كلنا خوض بعض المواضيع معاً. وكان يرغب في دخولي «محفل لبنان».

ولكني سافرت بعد ذلك إلى الأستانة لنيل الشهادة الطبية، وبعد عودتي بزمن تعيّنت طبيباً للمستشفى الإنكليزي الشهير في القدس، وهناك انتظمنا في سلك الماسونية في «محفل

28 [مدحت باشا (1822-1883)، سياسي عثماني من أبرز الشخصيات التي قادت الحركة الدستورية الاصلاحية سنة 1876. تولى منصب حاكم ولاية سورية ما بين سنة 1878 و 1881. اعتقل سنة 1881 وحكم بالموت. أفلح الضغط البريطاني في إلغاء حكم الإعدام، لكنه أرسل إلى السجن في مدينة الطائف، حيث اغتيل في سجنه سنة 1883].

سليمان الملوكي» الذي تشرفت بعد ذلك برئاسته، وكثيراً ما كنا نعقد جلساتنا في مغارة سليمان إجابة لطلب من السياح الإنكليز والأميركان. والمغارة المذكورة هي التي قطعت ونحتت فيها المغارة لبناء هيكل سليمان الذائع الصيت الذي جاء ذكره في التوراة، وتعتبر مهد الماسونية ولا تزال قائمة فيها أعمدة من السقف إلى الأرض وصخور ضخمة غير تامة القطع أو النحت، ولا يعرف أحد سبباً لذلك والراجح أن نكبة أصابت المدينة إضطرت العمال إلى ترك أعمالهم فجأة. ففي هذه المغارة التاريخية العجيبة كنا نعقد اجتماعاتنا متى كانت خارج المحفل تضيئها مصابيح زيتية موضوعة على الأرض صفين، الواحد مقابل الآخر على جانبي ساقية من الماء لخريرها صدى لطيف، وعلى باب المغارة ضابط عثماني هو أخ ماسوني كان يقف بصفته حارساً خارجياً. وكان منظر الأعضاء بألبستهم الماسونية وسط تلك المغارة أرهب وأجمل وأبدع منظر ماسوني شاهدته في حياتي.

وفي هذه المغارة بلغ عدد الإخوان المجتمعين القادمين من إنكلترا واسكتلندا وأميركا نحواً من ثلاثمائة أخ أكثرهم من أعضاء (مجلس) النواب ومجلس اللوردات لبريطانيا العظمى وفريق من أعضاء الكونغرس للولايات المتحدة، وفي هذه المغارة رنّت في أذني أبلغ الخطب التي سمعتها في حياتي، وفي هذه المغارة التاريخية بعثنا على جناح البرق تحية إلى الملك إدوارد السابع وهو لم يزل ولياً للعهد بصفته الأستاذ الأعظم للمحافل الماسونية البريطانية. وفي هذه الحفلة اقترحت على الحضور إنشاء هيكل ماسوني عام في القدس يكون المرجع الأسمى للمحافل الماسونية في العالم أجمع، وتكون قرارات هذا الهيكل الماسوني السامي نافذة في بلدان العالم كلها لأن أورشليم أو القدس هي مهد الماسونية. ولما وضع هذا الاقتراح على بساط البحث وأقره أخيراً الأعضاء تجاوب صدى التصفيق والهتاف بالإنكليزية هورا ثلاث مرات في تلك المغارة الغريبة. وبعد انتهاء الحفلة خرجنا إلى الطريق وهناك أخذت صورتنا الفوتغرافية وكلنا بالألبسة الرسمية الماسونية.

شط بي القلم، والقلم كالفرس الجموح يجري بصاحبه خبباً وأهماجاً إلى حيث يريد ولا نريد، وجملة القول إن الماسونية جمعتني بالشيخ إبراهيم في القاهرة كما جمعني به قبل

ذلك العلم والأدب في بيروت فأفادني أنه نظم القصيدتين السينية والبائية إجابة لطلب مدحت باشا الذي رغب في ذلك إلى محفل لبنان وهو المحفل الذي ينتمي إليه الشيخ إبراهيم.

ومن فضائل الماسونية التي قلما نجدها في غير محافلها، بل في غير المحافل الراقية منها، أن هذا السر ظل مكتوماً بين أعضاء محفل لبنان حتى ذلك العهد رغماً من الشقاق الكبير الذي حصل فيه ورغماً من العداء الذي استحكمت حلقاته وبلغ العظم بين الشيخ إبراهيم ورفاقه وأنا واحد منهم وبين بعض أعضائه، وهو عداء لا مسوغ له على الإطلاق بين رجال العلم. وبعد وفاة الشيخ إبراهيم اليازجي والدكتور بشارة زلزل والأستاذ إبراهيم الحوراني والشيخ إسكندر العازار أمسيت أنا الوحيد الذي لا تسدد إليه سهام هذا العداء.

مدحت باشا

مدحت باشا أرقى وأسمى رجل ظهر في تركيا يوم كانت تسمى الدولة العثمانية، ولقد كان أغزر رجال الدولة علماً وأوسعهم إطلاعاً وأسماهم إدراكاً وأسرعهم أخذاً بالتمدن العصري وأميلهم إلى الحرية والديمقراطية. وإذا كانت لم ترسخ قدمه في الصدارة العظمى التي كان هو رجلها الأوحد فذلك لأن تصاريف الدهر وما نسميه أحياناً بالأقدار كانت معاكسة له هو مبدع الدستور العثماني ومنشئه وأبو الأحرار العثمانيين والحرية العثمانية وإليه يرجع الفضل الأول والأكبر في نهضة العثمانيين ووثوبهم إلى الدستور. ولما أحيينا حفلة الدستور في القاهرة كان رسم مدحت باشا في صدر القاعة.

كان قصير القامة بدين الجسم كثيف الحاجبين منبسط الجبهة براق المقلتين مهيب المنظر رزيناً وقوراً هادئاً، أما متى شرع في الكلام أبرقت أسارير وجهه وتألقت عيناه وتطايرت الكلمات من شفتيه الواحدة تلو الأخرى فكان يدرك حينئذ محدثوه الأوروبيون أنهم كانوا في حضرة الرجل الذي طارت شهرته في الآفاق.

لم تكن ولاية مدحت على سورية المرة الأولى التي عرفها بل جاء موظفاً مع فائق أفندي

بصفته سكرتيراً له قبل منتصف القرن الماضي وعمره حينئذ إثنتان وعشرون سنة، وظل في صحبته ثلاث سنين.

وبعد ذلك تقلب في مناصب الدولة فأخمد الإضطرابات في الروملي وأعاد الأمن إلى نصابه في البلغار وتعين والياً على نيش فبغداد. ثم عاد إلى الآستانة ورأى في خطة محمود نديم الرجعية خطراً على الدولة فعرض ذلك على السلطان مؤيداً خطة الأحرار، فعزل السلطان محمود نديم الصدر الأعظم وعين مكانه مدحت باشا. ولكن صدارته لم تطل أكثر من ثلاثة أشهر بسبب دسائس الرجعيين، ثم تعين والياً على سالونيك ثم استقال واعتزل السياسة حتى سنة 1875. وبعد ذلك لعب أدواراً خطيرة غريبة أشبه بالروايات الخيالية أشهرها خلع السلطانين عبد العزيز ومراد كما سنبينه.

كان ميالاً إلى المشاريب الروحية فإذا جلس إليها شرب حتى احمر وجهه ودبت إلى مواضع الأسرار فلا يقول لها قفي. وكان فخوراً ميالاً إلى المباهاة، وحدث أنه زار مرة طرابلس فأحيت له إحدى الأسر الشهيرة مأدبة بلغ فيها الشراب منه مبلغه وأثار فيه عاطفة المباهاة والفخر فقال في عداد ما قاله «أنا خالع الملكين»! وقد وشى به في ذلك أحد الحضور إلى الآستانة.

مدحت باشا واستقلال سورية

[2]

خلع السلطان عبد العزيز

كان السلطان عبد العزيز كثير الإسراف والتبذير شديد الميل إلى اللذات يصرف أوقاته بين الكؤوس والحلويات، وهو السلطان العثماني الوحيد الذي غادر عاصمة السلطنة وزار أوروبا. ولما كان لا يجوز للخليفة أن يطأ أرضاً لا تخصه وضعوا لحذائه نعلاً مزدوجاً بين طبقتيه تراب عثماني حتى يقال إنه كان في سياحته يطأ على الدوام تربة بلاده. ولقد لقي في أوروبا أعظم حفاوة خصوصاً في إنكلترا وذلك على عهد الملكة فيكتوريا.

كاد يفضي إسراف عبد العزيز بالدولة إلى الخراب. وفي أيامه جرت في باريس الفكاهة السياسية الآتية وهي أن سفراء الدول اجتمعوا في مأدبة وكان في صدر البهو كرسي فخم فقال أحد السفراء مازحاً لا يجلس على هذا الكرسي إلا السفير الذي دولته أقوى دول العالم، فوجم السفراء كلهم إلا سفير تركيا فإنه تقدم بجرأة وجلس على الكرسي غير هيّاب ولا وجل. فاندهش السفراء وسألوه «كيف يجوز لك ذلك»؟ فأجابهم «أن الدولة العثمانية لأقوى دول العالم لأنكم تهدمونها أنتم من الخارج ونحن نهدمها من الداخل ومع ذلك لم نقو كلنا على هدمها!»

أمست الدولة في أيام عبد العزيز على وشك الإفلاس فوجد عليه حزب الإصلاح. ويقال إنه اتفق وروسيا على أن تبعث بجيش إلى الآستانة لحمايته إذا دار في خلد رجال الدولة إنزاله عن العرش، فرأى مدحت وفريق من كبار السلطنة في الآستانة أن هذه الخطوة قد يكون من ورائها احتلال روسيا للعاصمة فعولوا على خلعه بعد استشارة شيخ الإسلام والحصول على فتوى منه. وكان الرجلان الكبيران البارزان في هذه المؤامرة مدحت باشا وحسين عوني باشا سردار الجيش الهمايوني.

مرّت بضعة أيام على المؤامرة دون أن يقوم حسين عوني باشا بتنفيذها فخشي مدحت باشا أن يكون من وراء هذا الإبطاء اكتشافها فذهب تواً إلى حسين عوني باشا وأنذره قائلاً «إذا لم تنفذ المؤامرة صباح غد فإني أذهب إلى السلطان وأبوح له بها».

قبيل فجر اليوم التالي كانت سراي السلطان عبد العزيز مطوقة بفرقة من الجيش والمدافع مصوبة إليها، فدخل ضابط الفرقة القصر وطلب مقابلة السلطان فقيل له إنه نائم فأجاب يجب إيقاظه فذعروا لذلك ذعراً شديداً وأوجسوا في أنفسهم خيفة. ولما أيقظوه دخل عليه الضابط وأعلمه أنه مخلوع، فهمّ السلطان عبد العزيز بصفعه فأخذه الضابط بيده إلى نافذة من النوافذ وأراه الجنود مطوقة السراي، فأدرك السلطان خطورة الموقف وخطره وأنه مخلوع لا محالة فأذعن للضابط ونقل تواً إلى السجن الذي كان قد أعد له وهو قصر خاص يشرف على البوسفور.

تنصيب السلطان مراد

كان مراد أفندي حينئذ في إحدى جزر الأمراء، والعادة التي جرت عليها الأسرة السلطانية العثمانية أن يكون ولي العهد سجيناً إلى أن يجلس على العرش. وكان مراد أفندي شاباً لطيفاً جميل الطلعة رقيق الأخلاق لين العريكة أديباً يكثر من مطالعة الكتب العلمية والأدبية والتاريخية قنوعاً قليل الطموح إلى المجد، فلما أبصر من قصره القارب الذي كان جارياً لإحضاره ورأى الضابط ينزل إلى البر ويصعد إلى قصره ذعر ذعراً شديداً وتوجس شراً. ولما أصبح الضابط في حضرته ألقى التحية العسكرية ولقبه بصاحب الجلالة ورجاه أن ينزل معه إلى القارب للذهاب إلى الآستانة حيث الجيش ورجال الدولة والشعب في انتظاره لتنصيبه سلطاناً وإجلاسه على العرش.

عندئذ بكى مراد أفندي بكاء مراً وقال له «بماذا أسأت إليكم؟ إذن تريدون قتلي؟ أقنع منكم بكأس ماء بارد ورغيف خبز يابس». فحاول الضابط إقناعه بالحقيقة وتوسل إليه أن يعجل في النزول إذ كل دقيقة ثمينة، وتضرع إليه أن يثق بقوله فلم يزد ذلك مراد أفندي إلا بكاء وانتحاباً وكرر له قوله السابق «لماذا تريدون قتلي؟» ولما أعيت الضابط الحيلة أخرج

أخيراً مسدسه ووضعه بين يدي مراد أفندي وقال له «عندما نجلس في القارب صوّب هذا المسدس إلى صدري وعند أول حركة تتوجس منها شراً أطلقه على قلبي». فرضي حينئذ عنه ونزل معه إلى القارب ولما بلغ الشاطئ ورأى الجيوش مصطفة أمامه وقد حيته التحية العسكرية ورجال الدولة وقوف أمامه مطأطئي الرؤوس، استيقظ من حلمه وأدرك أنه في عالم الحقيقة فنودي به سلطاناً على الأمة وأجلس على عرش الدولة وأطلقت المدافع من الأقلام وعم السرور لأنه كان محبوباً جداً واستبشر الشعب بقدوم عصر ذهبي للأمة.

مدحت باشا واستقلال سورية

[3]

إنتقام المرأة

كان للسلطان عبد العزيز إمرأة شركسية بديعة التقاطيع مشهورة بجمالها الفتان كان يحبها السلطان حباً مفرطاً ويفضلها على سائر نسائه، فلما مات أدركت أنه لم ينتحر بل قتل قتلاً فكان قلبها أصدق من تقرير الأطباء وعقدت العزيمة على الانتقام من قاتليه، وكان حسين عوني باشا سردار الجيش العثماني أبرز هدف لها. وكان لهذه الحورية الشركسية أخ ضابط في الجيش قوي البنية شديد العضلات جريء لا يحسب للعواقب حساباً فاستدعته إليها وأوغرت صدره غلاً وحقداً على قتلة السلطان وألهبت قلبه بنار الإنتقام، واسمه حسن الشركسي.

خرج حسن من عند شقيقته وصدره يغلي كالمرجل وصمم على القيام بعمل هائل فأخذ يترصد حسين عوني باشا ويتحين الفرص للفتك به، فذهب ذات يوم إلى بيت حسين عوني بحجة أنه يرغب في مقابلته ليستأذنه بالسفر إلى الحجاز إطاعة لأمر وزارة الحربية، وكان عوني باشا قد أمره قبل ذلك مراراً بأن يذهب إلى الحجاز بمهمة حربية فكان حسن الشركسي يختلق الأعذار للتأجيل. أما الآن فتظاهر بالانصياع للأوامر وأنه مستعد في اليوم التالي للسفر لذلك جاء الآن عوني باشا مستأذناً مودعاً كما يودع الضابط رئيسه.

توجه إلى بيت عوني باشا فقيل له هناك إنه توجه إلى بيت مدحت باشا لحضور جلسة رسمية للوزراء وكبار رجال الدولة، فتبعه حسن إلى هناك ولما بلغ مدخل القاعة أبصر مدحت باشا جالساً في الصدر وإلى جانبيه حسين عوني باشا وسائر عظام الرجال على شكل حلقة هلالية. ولما هم بدخول القاعة حاول الحارس منعه قائلاً له (يق)، فدفع حسن الشركسي الحارس بخشونة إلى جانب ودخل القاعة فجأة دون استئذان ثم أخرج مسدسه

وأطلقه على حسين عوني باشا فجرحه وآخرين. وبعد أن أفرغ ما في مسدسه من الرصاص إنتضى خنجره وشق به بطن عوني باشا من الجانب الواحد إلى الآخر فاندلقت أمعاء عوني إلى الخارج. ولكن ذلك لم يشف غليل حسن الشركسي فأخذ يقطع بخنجره أمعاء عوني باشا، وعوني لم يزل حياً وهو يئن ويجأر جأراً يفتت الأكباد. ثم ارتد حسن بخنجره على الباقين فأثخن بعضهم جراحاً، وخرج نفر من الخدام كانوا على مقربة من الباب الخارجي إلى الطريق واستغاثوا بالشرطة. ولكن هؤلاء لم يتمكنوا من إيقافه بل أعمل فيهم خنجره وأصابهم بجراح خطرة، ولم يتمكنوا من إلقاء القبض عليه إلا بعد أن جاءت فرقة برمتها من الجيش حملت أخيراً حسناً إلى المستشفى لأنه أصيب أثناء النضال بجرح في بطنه، وهناك أجرى له الجراحون عملية جراحية. ولكن حسن بعد أن أستفاق منها مزق العصائب التي وضعوها على بطنه ومات بعد أن قاسى آلاماً ليس في استطاعة قلم وصفها.

أما مدحت باشا فإنه هرب عندما أطلق حسن الشركسي الرصاصة الأولى من مسدسه على حسين عوني باشا وذلك بوجه الباب الذي يؤدي إلى دار الحريم وأوصده وراءه. وكان حسن الشركسي أثناء هذه المعركة الهائلة يقرع باب الحريم حيناً بعد حين منادياً مدحت باشا وهو يقول له «لا تخف إني لا أوقع بك شراً أنت أبو الأمة»، بيد أن مدحت ظل في دار الحريم حتى النهاية.

خلع السلطان مراد

لم يطل حكم السلطان مراد الخامس سوى بضعة أشهر خلع بعدها عن الملك، وقيل فيه حينئذ إن الحوادث الفجائية التي أفضت إلى خلع السلطان عبد العزيز وانتحاره وقيام مراد بعد ذلك بأعباء السلطنة في ظروف سياسية مالية حرجة أوهت قواه العصبية وأضعفت مداركه العقلية فأفتي بخلعه، وخلع.

والحقيقة أنه لم يصب بالجنون كما أذيع حينئذ عنه بل كان مالكاً قواه العقلية، ولكنه كان منذ أول نشأته قليل الحزم ضعيف الإرادة. ولقد قام أصدقاؤه بمؤامرات شتى بعد خلعه

لإنقاذه من السجن وتمكنت إحدى نسائه من الهرب إلى أوروبا رغماً من كل الاحتياطات التي كانت حوله. ولكن ذلك كله لم يسفر عن نتيجة قط وظل سجيناً في قصره إلى أن توفي فبعثت حينئذ من القاهرة بمقالة ضافية إلى «المجلة الشهرية» الإنكليزية عنوانها «السلطان مراد الخامس»، فنقلتها بعض الجرائد الإنكليزية وعلقت عليها «مجلة المجلات» الشهيرة وكان صاحبها حينئذ وليم ستيد الذائع الصيت.

مدحت باشا وعبد الحميد

كان عبد الحميد أفندي شاباً أنيقاً رقيق الأخلاق لين العريكة مكباً على مطالعة الكتب الأدبية والتاريخ متظاهراً بالميل إلى الدستور والحرية، فتوسم فيه رجال تركيا خيراً وأجلسوه على العرش بين طلقات المدافع وتهليل رجال الإصلاح وسرور الشعب.

ولما جلس السلطان عبد الحميد على العرش عيّن مدحت باشا صدراً أعظم ونثر وعود الإصلاح والحرية والدستور يميناً وشمالاً، فأنشأ مدحت الدستور العثماني وأنشأ عبد الحميد مجلس النواب العثماني. بيد أن ذلك كله لم يكن إلا سراباً إذ رأى عبد الحميد أن في بقاء مدحت أبي الدستور والبرلمان والأحرار على مقربة منه خطراً عليه فأقاله من الصدارة بعد ستة أشهر أو سبعة ونفاه من تركيا متهماً إياه بأن له أصبعاً في مقتل السلطان عبد العزيز، وألغى الدستور وحل مجلس النواب (موقتاً) إلى أجل غير مسمى. فتوجه مدحت إلى أوروبا وأقام ردحاً من الزمن في لندن يدرس نظام مجلس النواب البريطاني إلى أن رضي عليه عبد الحميد فاستقدمه إلى الآستانة وعينه والياً على سورية.

مدحت باشا واستقلال سورية

[4]

إستقلال سورية

كان موقف مدحت في سورية أشبه بموقف نابليون في مصر. فكما زعمت حكومة الديريكتوار في باريس أنها تخلصت من نابليون بإرساله إلى مصر كذلك زعم عبد الحميد أنه تخلص من مدحت بإرساله إلى سورية. وكما كان نابليون يطمح إلى انشاء مملكة أو خديوية سورية، أرجح أن مدحت تفاهم وإنكلترا بها الصدد، وإن لم يكن في التاريخ ما يؤيد هذا الزعم. فلقد كانت فرنسا تطمح إلى الاستيلاء على سورية منذ عصور خلت ولم تخرج منها بعد الستين إلا لمّا أرغمتها الدول الكبرى وفي صدرها إنكلترا على ذلك. وكانت روسية طامحة إلى الاستيلاء على القبر المقدس، وكان هذا الخلاف بين روسيا وفرنسا سبباً لنشوب حرب القرم الشهيرة. أما إنكلترا فلم تكن لها ذريعة تتذرع بها للاستيلاء على سورية لذلك كان من البديهي أن تكون مؤيدة لكل حركة ترمي إلى استقلال سورية خصوصاً متى كان القائم بها مسلماً كبيراً. ومدحت باشا كان بلا مشاحة أكبر رجال عصره بين المسلمين وأكثرهم نفوذاً وأعرضهم جاهاً، فاستقلال سورية يقيها الوقوع تحت سيادة روسية أو فرنسة وهو ما ترمي إليه إنكلترا. ومثل هذه النظرية لا تفوت طبعاً مدحت باشا السياسي الكبير المحنك.

الماسونية والتحريض

كان مدحت باشا ماسونياً يدري بداهة أن الماسونية أقرب الطرق المؤدية إلى الحرية، فرأى أن يتوسل بالمحافل لهذا الغرض. وكان «محفل لبنان» في بيروت أشهر المحافل الماسونية وأهمها وكان أعضاؤه من جلة الرجال وأشهرهم وأغزرهم علماً وأدباً وأميلهم إلى الحرية الفكرية والسياسية.

ونظم حينئذ الشيخ إبراهيم اليازجي، وكان عضواً في «محفل لبنان»، قصيدتيه السينية والبائية الثورويتين، وألصقت على جدران الشوارع منشورات ثوروية بل كثيراً ما كانت تلصق على بوابة الكلية الأميركية فإذا استيقظ التلاميذ صباحاً وجدوها هناك. وكان الذي يلصقها ليلاً أحد أساتذة الكلية الوطنيين المقيم فيها وهو الآن في عالم الأبدية، وهي منشورات مخطوطات فيها غالباً ألفاظ عامية تضليلاً للقراء، أو رسم سيف أحدب أعلاها لم يكن راسمه رساماً فنياً.

كانت هذه المنشورات تدعو العرب والوطنيين إلى النهوض لنزع نير الأتراك عن أعناقهم وتحرضهم على الثورة، والناس يطالعون هذه المنشورات بمزيد من الإندهاش، وكان أشدهم اندهاشاً وانذهالاً أولئك الذين ألصقوا تلك المنشورات بأيديهم.

مدحت باشا ورستم باشا

رأى مدحت باشا أن لا بد لفلاح حركة الثورة وتمرد الجنود العثمانية في سورية من انضمام لبنان إليها فخابر سراً رستم باشا متصرف لبنان. وكان رستم من أصدق رجال الدولة وأشدهم إخلاصاً لها وغيرة عليها رغماً من كونه مسيحياً ومن كون مسقط رأسه أجنبياً، فتظاهر رستم بإجابة مدحت إلى طلبه ولكنه وشى به إلى الآستانة. ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإن الدولة أحست بما يضمره مدحت باشا. ولقد قال لي مرة أحد وجهاء دمشق أثناء وجودي فيها بعد ذلك بسنين إن فيها بلاطة أعدها مدحت يوم كان والياً عليها وقد نقش على البلاطة الكلمات الآتية: مدحت باشا خديوي سورية، أي أنه أراد التشبه بمحمد علي باشا خديوي مصر.

لم تكن القصائد والمنشورات الثوروية إلا ذراً للرماد في العيون وتبريراً للعمل الخطير الذي كان يرمي إليه مدحت أمام دول أوروبا، فقد كان على ثقة من أن السوريين لا قبل لهم بالوقوف أمام الجيش العثماني إذا أضرموا الثورة منفردين. لذلك كان جل اعتماده على الفيلق العثماني الذي كان تحت إمرة المشير في دمشق، وكان قد تواطأ والمشير على إيقاد نار الثورة.

حادثة إزمير

لم يكن هنالك ما يثبت أن لمدحت باشا أدنى علاقة بالمنشورات الثوروية السورية أو أنه يرمي إلى استقلال سورية، ولكن الباب العالي إتخذ الاحتياطات اللازمة ومن البديهي أن الخطوة الأولى في مثل هذه الحال أن تأمن الدولة تمرد فيلق دمشق ولا يكون ذلك إلا بعزل المشير. وحتى لا تفسح مجالاً للارتياب لم تعزله والمشير في وقت واحد بل أظهرت رضاها عنه وارتياحها إلى أعماله وبعثت إلى دمشق بمشير جديد يحمل أمراً إلى المشير القديم بوجوب تسليمه قيادة الفيلق فأذعن المشير القديم ودفع إلى خلفه قيادة الجيش وغادر سورية.

بعد هذا ببضعة أسابيع صدر أمر الباب العالي بتعيين مدحت والياً على أزمير ونقل والي أزمير إلى سورية. ولم تكن هذه الخطة إلا الخطوة الأولى لإلقاء القبض على مدحت، إذ لم تطل ولايته على أزمير إلا عشرة أشهر حتى صدر بعدها الأمر بالقبض عليه لاتهامه بالإشتراك في قتل السلطان عبد العزيز، فالتجأ إلى قنصلية فرنسة وأعلن القنصل أنه ملتجئ سياسي أي أنه ضيف فرنسا هارباً من وجه عبد الحميد.

إني أكتب هذه المقالة دون أن يكون أمامي شيء من المستندات التاريخية، ولكن المشهور أن القنصلية قبلت مدحت باشا ضيفاً عليها ورفعت الأمر إلى وزارة فرنسا الخارجية. وظلت المخابرة دائرة أياماً بين الوزارة المذكورة ووزارة خارجية تركيا. والمقول إن فرنسا ساومت تركيا على مدحت باشا وأسلمته إليها مقابل ثمن فاحش وهو تنازل تركيا عن تونس لفرنسا. وقد كان لهذه الحادثة ضجيج في أوروبا كلها ودوي رددت صداه الأندية السياسية.

مدحت باشا واستقلال سورية

[5]

كان تسليم مدحت باشا إلى تركيا مخالفاً لتقاليد الضيافة الدولية التي اشتهرت فرنسا بالمحافظة عليها في مثل هذا الموقف، خصوصاً إذا قابل المطالع هذه الحادثة الخطيرة بحادثة أخرى جرت لسوري في مصر يسمى المخلع كان مثرياً وله زوجة ذات جمال رائع، فاتفق ذات ليلة أنه حضر وزوجته تمثيل رواية في الأوبرا كان حاضراً فيها إسماعيل باشا خديوي مصر. وكان إسماعيل إذا وقعت عيناه على امرأة جميلة ووقع هواها في قلبه توسل بكل وسيلة ممكنة للوصول إليها وحوادثه شهيرة. فلما أبصر زوجة المخلع هام بها، وفي صباح اليوم التالي جاء المخلع أحد حجاب إسماعيل يقول له: «إن أفندينا يدعو زوجتك إلى التشرف بالحضور إلى السراي». فاسودّت الدنيا في عين المخلع وضاقت به على رحبها لأنه كان يعرف ما تكون العاقبة إذا لم يبعث زوجته إلى الخديوي. فأخذ المخلع زوجته وذهب وإياها إلى قنصلية فرنسا، ولما قابل القنصل هطلت الدموع من عينيه فسأله القنصل عن السبب ولما علم بالحقيقة طيب خاطره وقال له «أنت وامرأتك ضيفان في بيتي». ثم أخذ زوجة المخلع إلى امرأته هو. وبعد الظهر درى إسماعيل أن المخلع وزوجته إلتجأا إلى قنصلية فرنسا فبعث يطلبهما بلجاجة قائلاً للقنصل إن المخلع ليس إفرنسياً فلا حق له بحمايته. فرد القنصل طلبه وأجابه أنه يحميه بالقوة، وأرسل تواً تلغرافاً إلى وزارة خارجية فرنسا يشرح حقيقة الحال ويقول «إن الجنود المصرية لا تقدر على إخراج المخلع وامرأته من بيته إلا بعد أن تمر على جثة قنصل إفرنسي». وفي اليوم التالي ورد القنصل جواب يقول «إن البرلمان الفرنسي منح المخلع الجنسية الفرنسية»، حينئذ قال للمخلع « كن الآن أميناً على نفسك وزوجتك». ثم كتب إلى إسماعيل باشا يقول له «إن المخلع أصبح الآن إفرنسي الجنسية، وأريد أن تعرف أن الأسد جريح ولكن لم يمت»، وهو يعني بذلك فرنسا بعد اندحارها في حرب السبعين إذ إن هذه الحادثة جرت بعد الحرب المذكورة بزمن قصير.

فالفرق بين تصرف فرنسا في هذه الحادثة وتصرفها في حادثة مدحت باشا الذي كان ملتجأ سياسياً من الطراز الأول واضح لكل ذي عينين.

محاكمة مدحت باشا

ألقي القبض على مدحت باشا وجيء به إلى الآستانة. وحين وصوله أقيمت عليه الدعوى الجنائية التاريخية وهي اشتراكه في قتل السلطان عبد العزيز، وهي أعظم دعوى أقيمت على رجل في السلطنة العثمانية وأعظم دعوى حضرها رجال السلطنة في الآستانة وسفراء الدول وقناصلها ومراسلو الجرائد الشهيرة في العالم خصوصاً الجرائد الإنكليزية.

أظهر مدحت أثناء هذه المحاكمة من الجرأة ورباطة الجأش والهدوء والإطمئنان ما حيّر القضاة الحاضرين معاً، وكان سريع الخاطر مفحماً بحجته مقنعاً ببرهانه، وأبدى من عدم المبالاة ما أدهش رجال السفارات والجرائد. بيد أنه على الرغم من ذلك كله وعلى الرغم من أن المحاكمة لم تثبت عليه الجناية المتهم بها، حُكم عليه بالقتل. ولقد أجمع السفراء وسائر الأجانب على أن الأسباب التي بُني عليها الحكم كانت هزءاً وسخرية.

نفي مدحت واغتياله

لما صدر الحكم على مدحت بالقتل قال: «لما كانت هذه المحكمة أسمى محكمة في السلطنة وليس في وسعي إستئناف الحكم إلى محكمة أعلى، أطلب العفو الشاهاني».
ولقد توسطت إنكلترا في أمره فأبدل حكم القتل بالنفي إلى الطائف في بلاد العرب.

صرف مدحت وقته في الطائف بتعليم الأولاد في مدرسة أنشأها لهم، وبلغ منه الفقر في أواخر أيامه مبلغاً لا يطاق. ولكن الاغتيال أنقذه من هذه التعاسة. والقول بأنه مات حتف أنفه كما جاء في بيان الحكومة العثمانية غير صحيح، فقد قيد ذات ليلة إلى السجن ودخل عليه فجأة نفر من الرجال خنقوه ورفيقين له، وكانت أصوات استغاثتهم تشق جدران السجن وتقع على آذان المارة. لقد قال لي أحد رجال الدولة إنهم بعد أن خنقوا مدحت قطعوا رأسه وبعثوا به إلى السلطان عبد الحميد.

كان مدحت من نوابغ الشرق الذين قلما يجود الزمان بأمثالهم، وهو الرجل الأوحد الذي كان بوسعه إنقاذ تركيا من الخراب الذي حل بها، ولكن أحكام الأقدار غير أحكام البشر وما أحراه أن يردد في قبره قول الشاعر:

قل للذي بصروف الدهر عيّرنا هل عاند الدهر إلا من له قدر

ففي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر

أعلام وشخصيات غربية

الإمبراطورة أوجني

[1]

تبلغ الإمبراطورة أوجني[29] في أول أيار القادم 89 سنة من العمر، ولكن رغماً عن كل ذلك لا تزال حافظة قواها حفظاً يدعو إلى الدهشة والاستغراب، وأغرب من كل ذلك أنها تمرّض الآن فريقاً من مرضى الضباط في قصرها الخاص في فاربروهل. ولقد زارها مؤخراً في الدرشوط ملك إنكلترا وملكتها أثناء وجودهما هناك.

ومن الأمور التي لا يعرفها إلا القليلون أن الإمبراطورة أوجني أغنى الملوك والملكات المتقاعدين طراً وهي فوق ذلك بارعة في إدارة أملاكها وأموالها.

ولقد أوصت في وصيتها بقسم كبير من أموالها إلى الملكة أنا الإسبانية، وذلك لأن هذه الملكة أقامت معها حيناً من الدهر يوم كانت لا تزال فتاة حديثة السن. ولكنها وهبت الجانب الأوفر من أموالها وأملاكها إلى البرنس فكتور نابليون وامرأته المشهورة بجمالها وهي البرنسس كليمنتين البلجيكية.

شاهدنا هذه الإمبراطورة الشيخة يوم قدومها القطر المصري منذ بضع سنين فإذا بالدهر قد شيّب شعرها وغضّن وجهها، فنزلت في نزل سافوي الشهير ثم توجهت بعد ذلك في سياحة إلى أعالي النيل.

ما أعظم الفرق بين الاستقبال البسيط الذي لقيته هذه المرة وذلك الاحتفاء الباهر الذي أقامه الخديوي اسماعيل يوم شهدت ترعة السويس وتدشين الأوبرا الخديوية حيث

29 [أوجني ماريا دو غوزمان (1826-1920) زوجة نابليون الثالث وإمبراطورة فرنسا ما بين 1853 و1870. إسبانية الأصل، كان لها الأثر الكبير في سياسة زوجها الخارجية. كانت كاثوليكية متعصبة دافعت بقوة عن البابوية، كما عارضت التوجهات النمساوية لملء فراغ العرش الإسباني الأمر الذي أدى إلى نشوب الحرب الفرنسية- الألمانية عام 1870. بعد معركة سيدان عام 1870 رحلت مع عائلتها إلى بريطانيا حيث عاشت في المنفى].

ضربت ألحان «عائدة» الشهيرة للمرة الأولى وكان قد نظمها الموسيقي الشهير فردي لذلك الاحتفال النادر المثال الذي حضرته أعظم ملوك أوربا وأمرائها.

كانت الإمبراطورة أوجني حينئذٍ في أبّان مجدها وجمالها تنحني أمامها رؤوس الملوك إجلالاً لمقامها وإعجاباً بجمالها.

كانت فرنسا حينئذٍ سيدة أوربا والإمبراطور نابليون الثالث أشهر ملوك عصره.

ولكن حرب السبعين قوضت عرش زوجها وقوّضت معه الملكية في فرنسا.

حاولت أوجني جهدها بما أوتيت من النفوذ لدعم ذلك العرش الذي كان متداعياً إلى السقوط ولكنها لم تفلح.

هاجت الأمة الفرنسية بعد معركة سيدان الشهيرة وتسليم الإمبراطور زوجها وقلبت الملكية ونادت بالجمهورية، فهربت أوجني من فرنسا وبقي الإمبراطور نابليون أسيراً في يد البروسيانيين إلى ما بعد انتهاء الحرب.

[2]

ذهبت الإمبراطورة أوجني في سبيل كل حي، وحضرتها الوفاة نحو منتصف الشهر الفائت في مدريد عاصمة البلاد التي رأت فيها نور الحياة وعادت إليها لتكون مرقداً أبدياً لعظامها. توفّيت عن خمس وتسعين سنة من العمر ذاقت خلالها خمر الحياة وخلّها وتقلبت بين نعيمها وبؤسها، وهي كريمة أحد شرفاء الأسبان رفعها الإمبراطور نابليون الثالث إلى العرش. وحكاية ذلك أشبه بالروايات كأكثر حكايات حياتها وهي أنها كانت مارة أثناء حفلة في قصر الإمبراطور بجانب امرأة أحد الأشراف، فطرق أذنها أثناء مرورها كلمات حسبتها هي إهانة لها، فتوجهت إلى الإمبراطور تواً وشكت إليه أمرها فأجابها «إني لمنتقم لك». وبعد ثلاثة أيام من هذا الحادث أصبحت خطيبته، ولكن هذه الخطبة لم تقع لدى الطبقة الأرستقراطية الفرنسية موقع الاستحسان، بل كانت داعياً إلى الانتقاد والتقوّل مما اضطر الإمبراطور إلى الدفاع عن ذلك في خطاب العرش الذي ألقاه بعيد هذا. ولم يمر

طويل زمن حتى أصبحت أوجني إمبراطورة فرنسا، وكان جمالها البالغ وذكاؤها النادر باعثاً على اشتهار البلاط الإمبراطوري في أوربا اشتهاراً قلّ نظيره.

تداخلت الإمبراطورة أوجني في شؤون الدولة تداخلاً لم يكن لملكة أخرى في عصرها سوى الملكة فيكتوريا التي كانت مضطرة إلى التداخل في شؤون مملكتها لأنها كانت الملكة الحاكمة.

كانت الإمبراطورة أوجني محبذة لشهر الحرب على روسيا، مما أفضى إلى حرب القرم الشهيرة. وفي هذه الأثناء ولدت البرنس أمبريال ولي العهد السيئ الطالع الذي رأى نور الحياة في أعظم بلاط أوربي ورأى ظلمة الموت في أدغال بلاد الزولوس البربرية على ما سنلمّ به بعيد هذا.

حملها حبها لوطنها الأصلي إسبانيا على تشجيع الإمبراطور على المداخلة في شؤون المكسيك، وكانت تزعم أن قوة الولايات المتحدة بلغت حد الانتهاك بواسطة الحرب الأهلية التي كان من ورائها قيام الولايات الجنوبية على الشمالية. وكانت على ثقة من أن مداخلة فرنسا في المكسيك تعزز مركز إسبانيا في العالم الجديد. أما نتيجة حملة المكسيك فمشهور أمرها ونتيجتها السيئة وفيها خابت آمال فرنسا وإسبانيا معاً.

بيد أن أهم أطوار حياتها كان طور الحرب السبعينية، وقد اختلفت روايات المؤرخين في ما كان للإمبراطورة من التأثير في إضرام تلك الحرب التي كانت شؤماً على الأسرة الإمبراطورية وفرنسا معاً. فمن قائل إنها لم تكن راغبة فيها ومن قائل إنها كانت الباعث الأكبر على تأجيج أوارها إلى حد أنها فاهت بالعبارة التالية وهي: «إن هذه الحرب لحرب أضرمت ضدي». وقد اتهمها آخرون أنها رغبت في شهر هذه الحرب لتقبض على أعنة الدولة أثناء غياب زوجها وقيادته الجيش الفرنسي، كما فعلت أثناء الحرب الإيطالية. ومهما يكن من الأمر، فإن فرنسا لم تفز في واحدة من هذه المعارك فوزاً يستحق الذكر إلا في المعركة الأولى حيث بعث إليها الإمبراطور بكتاب يقول لها فيه إن وليّ العهد قد تعمّد بالنار. ولكن الهزائم أخذت تتوالى بعد ذلك على فرنسا إلى أن انتهت بمعركة سيدان الشهيرة وتسليم الإمبراطور، فكان ذلك باعثاً على حنق الشعب الفرنسي فأسقط الإمبراطورية في خلال ثلاثة أيام من ورود خبر هذه الفاجعة ونادى بالجمهورية. فأصبحت

الإمبراطورة في خطر شديد ورأت الهلكة أمامها، فعزمت على الهرب وذلك بمساعدة طبيب أسنان أميركي في باريس يسمى الدكتور إيفانس ومناصرة سفير بريطانيا، فإنه دفع إلى الدكتور المذكور جواز سفر باسم طبيب إنكليزي يرافق سيدة مريضة إنكليزية. وبعدها تنكرت الإمبراطورة ودخلت عربة الدكتور المذكور التي جرى بها خبباً وأهماجاً حتى بلغ دوفيل حيث كان بانتظارهما يخت إنكليزي حملها إلى إنكلترا وأصبحت في مأمن من الثوار، فاجتمعت بولي العهد حيث كان قد سبقها إلى هناك. وبعد انتهاء الحرب وانطلاق الإمبراطور من عقال الأسر، ذهب تواً إلى إنكلترا حيث اجتمع بالإمبراطورة وولي العهد وقضى نحبه هناك بعد عملية جراحية أجريت له لاستئصال حصاة في المثانة.

كان ولي العهد شاباً جريئاً كبير المطامح، فانخرط في الجيش الإنكليزي، ولما نشبت حرب الزولوس توجه مع الفرقة التي أرسلت لإخضاع هؤلاء البرابرة، وكان القائد مزوداً بأوامر أن يحرص على حياة الأمير ولا يرسله في مهمة محفوفة بالخطر. ولكن دم نابليون الشاب الشجاع أبى عليه إلا أن يزج نفسه في مواقع العراك، فكان يلح بلجاجة على قائده أن يبعث به إلى ساحة القتال حيث تجري الدماء. فكان في عداد المهمات التي كلفه بها القائد إرساله مع بضعة جنود للاستطلاع واكتشاف موقع من مواقع العدو، فتوجه على رأس كوكبة صغيرة من كواكب الفرسان. وكان برابرة الزولوس في مكمن بين أدغال تسترهم عن العيون الأنجم والأشجار، فلما قربوا من المكمن المذكور هبّ رجال الزولوس وكانوا كثار العدد، فارتد الفرسان الإنكليز ونجوا بأنفسهم وأفلت فرس الأمير من يده ولم يتمكن من الارتداد لوجود نهر صغير يفصل بينه وموقع الجند الإنكليزي. فلما شاهد البرابرة مقبلين ارتد عليهم كالأسد استوثبه الصياد وناضل عن نفسه نضالاً مجيداً حتى انتهكت قواه بنزف الجراح التي أحدثتها سهام البرابرة. وهكذا قضى شهيد الشجاعة والطموح إلى العلى. ولما درت الإمبراطورة بهذه الفاجعة، كاد يقضى عليها ولكنها تجلدت وأقدمت على عمل غريب وهو أنها عقدت النية على زيارة بلاد الزولوس رغماً مما كان يعترض هذا السفر من المشاق التي لا يقوى من كان مثلها على تحملها، ففعلت غير حافلة بالمخاطر ولا بخشونة العيش. ولما بلغتها استقدمت نفراً من الزولوس أنفسهم الذين شاهدوا بأم عينهم

تلك الفاجعة وطلبت منهم أن يدلوها على البقعة نفسها التي سقط عليها وحيدها قتيلاً، ففعلوا. ولما وقفت عليها ركعت وصلت وأخذت بضع حفنات من التراب الذي صبغه دم ولي العهد.

ماتت بموت ولي العهد الآمال التي كانت لا تزال تتردد في صدر الإمبراطورة أوجني، فإنها كانت طامحة على الدوام إلى استرداد العرش والنفوذ الذي كان لها في فرنسا حيث بلغت قنة المجد وذروة السعادة.

بيد أنها رغماً من كل ذلك تغلبت على هذه العواطف واستعادت شيئاً من روح الزهو والطلاقة اللذين اشتهرت بهما، وكانت صديقة حميمة للملكة فكتوريا، وهي صداقة ظلت زهاء عشرين سنة حتى وفاة الملكة المنوه عنها. وكانت تراسلها على الدوام، وانتقلت هذه الصداقة إلى البرنسس ماري بتنبرغ إحدى كرائم الملكة ثم إلى البرنسس أوجني كريمة البرنس هنري وحفيدة الملكة فكتوريا، والبرنسس أوجني هي اليوم ملكة إسبانيا، وكان للإمبراطورة أوجني يد كبرى في الزواج المشار إليه.

كان للإمبراطورة أوجني قوة غريبة على سلخ أفكار الزمان الماضي عن أزمان الحاضر، ومن أمثلة ذلك أنها أطلت ذات يوم من نزل كونتننتال الشهير في باريس على جنينة قصر التوبلري حيث كانت مقيمة أيام مجدها وعزها، فالتفتت إليها إحدى وصيفاتها وقالت لها «إني لأعجب من صبر جلالتك على مشاهدة قصرك السابق». فأجابتها الإمبراطورة بكل هدوء وبساطة «إن المرأة التي كانت في هذا القصر أصبحت الآن في عالم الأموات ولم يبق شيء منها على الإطلاق». أما الموضوع الوحيد الذي لم يبرح من مخيلتها قط فإنما هو وفاة ابنها ووحيدها.

أمام الإمبراطورة أوجني كانت تنحني ملوك أوربا وأمبراطرتها ويتسابقون لنيل ابتسامة من ثغرها اللطيف، ومن أجل الإمبراطورة أوجني خصوصاً بنى الخديوي اسماعيل باشا الأوبرا في القاهرة يوم دعا إليها ملوك الأرض وأمراءها للاحتفال بفتح قناة السويس، وهناك مثلت للمرة الأولى رواية «عائدة» الشهيرة وصدحت موسيقاها التي تخلب الألباب. وفي القاهرة أقيمت أثناء وجود أوجني الولائم والمآدب ونشرت رايات الأفراح وجرت

الشمبانيا كالجداول وتسابق الأمراء الأوربيون والشرقيون للحظوة والمثول لديها، وأمام ترعة السويس انشق البحر الأحمر أمام هذه الغادة الفتانة كما انشق سابقاً أمام موسى، ولقد شاهدنا السرير الفخم الذي أعدّه لها الخديوي اسماعيل فإذا هو آية للناظرين.

شاهدنا هذه الفتاة الفتانة والإمبراطورة الغانية يوم جاءت أخيراً للقطر المصري في أوائل هذا القرن، فإذا هي عجوز شمطاء ذهب الدهر بعزها وجمالها، ولكنه لم يذهب بذكائها وجلالها، فإن الناظر إليها كان يرى في مقلتيها البراقتين بريق الذكاء النادر، وفي وجهها الهادئ صبراً يهزأ بالزمان وعوادي الأيام.

كانت من أغنى ملكات أوربا وملوكها رغماً من ضياع العرش وتدحرج التاج، ووهبت في وصيتها الجانب الأوفر من ثروتها إلى سميتها البرنسس أوجني ملكة إسبانيا الحالية.

ذهبت في طريق كل حي بعد أن رأت بأم عينها ملوك أوروبا وملكاتها يذهبون هم أيضاً في سبيل الأحياء، وإذا كان لم يزل في قلبها شيء من الأسى فإن تقوّض عرش الهوهنزاريين والهبسبورغيين سلوان وعزاء.

ماتت الإمبراطورة أوجني في عصر هوت فيه الملوك والملكات وتهدمت صروح الملكيات والإمبراطوريات.

وفاة الجنرال ليمان

حضرت الوفاة في أوائل هذا الأسبوع الجنرال ليمان[30] حامي لياج الذائع الصيت الذي أنقذ فرنسا من ألمانيا.

وقف هذا البطل العظيم والقائد الكبير النفس خمسة عشر يوماً أمام زهرة الجيش الألماني وهو في عنفوان قوته وإبّان حملته يوم كان يزعم غيليوم أن لياج لا تقف في وجهه سحابة يوم واحد.

وقف أمام تلك الزوبعة الهائلة التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في سائر حروب العالم وقفة جبل راسخ أمام ريح هوجاء، فوجّه إليه الألمان مدافعهم الضخمة وصبوا عليه قنابلهم الهائلة وحملوا على ذلك الحصن المنيع حملات شعواء بخيلهم ورجالهم لفتحه في خلال أربع وعشرين ساعة، فما أجدى الهجوم نفعاً ولا دفعت الشجاعة مقدوراً.

كانت أبصار العالم متجهة نحو لياج كأنه في مسرح هائل يشهد رواية هائلة، وكان كلما استفاق من رقاده يسائل نفسه قائلاً «هل سقطت لياج؟».

انصبت قنابل الألمان عليها انصباب الغيث كل يوم من الصباح حتى المساء، وحولوا ذلك الحصن إلى أتون هائل. ولكن الجنرال ليمان كان يتحول فيه من ناحية إلى أخرى ينفخ في صدور أتباعه روح الحماسة ويثير في رؤوسهم عاطفة الوطنية ويشدد عزائمهم ويشاطرهم مشقاتهم ويحملهم بقوة إرادته الفولاذية وبسالته الفائقة وإجراآته الباهرة على الثبات في موقف أحر نار الجحيم أبرده.

كان أمر الإمبراطور إلى قائده اَمخ الذي تولى قيادة الجيش الهاجم صارماً مستعجلاً مختصراً وهو «افتح لياج»، وهو أمر كان في ذلك الزمان كأمر الله لا يجوز أن يكون مردّ لحكمه ولا مانع لتنفيذه. فلما مرت الأيام الأولى دون جدوى استشاط الإمبراطور غيظاً

30 [الجنرال جيرارد ليمان (1851ـ1920) عسكري بلجيكي تولّى خلال الحرب العالمية الأولى قيادة مدينة لياج التي حاصرتها القوات الألمانية في 5 آب سنة 1914، ثم احتلتها في 16 آب بعد وقوع ليمان في الأسر].

وحنق على قائده، فعمد هذا إلى الخطة التي كان يلجأ إليها الرومان إزاء الفشل وهي الانتحار فقضى على نفسه بيده.

بيد أن قوات الجحيم نفسها لم يكن بوسعها أن تزحزح هذا البطل الخالد الأثر الصادق العزم، الفولاذي الإرادة، شبراً واحداً من موقفه، فثبت في حصنه المنيع كالأسد في عرينه وظل يدافع عن وطنه عاقداً العزيمة على أن يناضل عن لياج حتى آخر رمق من حياته.

أدهش ليمان العالم كله بجرأته وشجاعته وإجراآته، وخلد ذكر أمته في بطون التاريخ وكسا وطنه ثوباً قشيباً من المجد لا يبلى ولن يبلى.

أخيراً بعد معركة متصلة جهنمية تهدمت جوانب الحصن وتقوضت أركانه واختلط غباره بدخان المدافع المنعقد سحاباً في الجو وملأت جثث القتلى خنادق لياج واستحكاماتها وانكشف جيشها لمدافع الأعداء وأصبحت عبارة عن أطلال بالية وأبنية متردمة، فعلم ليمان أن ساعة الحصن الأخيرة قد دنت. ولما التفت إلى ما حوله من أشلاء القتلى وإلى المجاريح والقنابل المنفجرة والجدران المتهدمة أخذته الشفقة على بقية جنوده البواسل، فقال لهم «من أراد منكم أن يسلم فليسلّم أما أنا فأظلّ مناضلاً حتى الموت». فأحاط به حينئذٍ فريق من ضباطه الشجعان وأجابوه «نحن نظل معك حتى الرمق الأخير».

ولما لم تبق في الحصن قوة تدافع الأعداء، هجم عليها الألمان بعد أن أصلوها ناراً حامية زهاء ساعة من الزمن فوجدوا بطل لياج غائباً عن الصواب وهو في حال الاختناق بين ركام الحصن فأسروه وهو على هذه الحال وعالجوه فعاد إلى رشده، ولولا ذلك لما ألقوا القبض عليه حياً.

كان هذا الدفاع المجيد داعياً إلى إعجاب العالم كله بليمان والشعب البلجيكي الذي سطّر ببسالته صفحة خالدة في تاريخ الحروب والحرية.

في خلال هذه الفترة، أمكن فرنسا أن تتنفس الصعداء وتنقل جيشها من الحصون المنيعة الواقعة على الحدود بينها وألمانيا وهي النقط الحربية التي كانت تتوقع الهجوم الألماني منها وتبعث بها إلى حدود البلجيك، ولولا ذلك لسحقت ألمانيا فرنسا في مثل غمض الجفن واضطرتها إلى عقد الصلح على حدة وقضت بعد ذلك على روسيا وإنكلترا الواحدة تلو الأخرى.

كانت خطة ألمانيا أن تقضي على فرنسا قضاءً مبرماً في خلال بضعة أسابيع، ثم تتحول بعد ذلك إلى روسيا فتقضي عليها في خلال بضعة أشهر، ثم ترتدّ على إنكلترا أقوى عدوة لها فتطحنها بحرب الغواصات وتضرم في إيرلندا ثورة أهلية تشلّ قواتها البرية. وهي كادت تحقق هذه الأماني كلها، ولم يكن بينها وهذا النصر الباهر سوى قيد خطوة، فبلغت أسوار باريس بذلك الهجوم الصاعقي الذي لا مثيل له في تاريخ الحروب داكة الحصون والمعاقل وجارية إلى غرضها جريان الزوبعة هادمة شمال فرنسا كلها مقوّضة معاملها ومخربة مصانعها، بل شرعت تضرب باريس نفسها بذلك المدفع العجيب البعيد المرمى. وارتدّت بالرغم من وقوف فرنسا في وجهها على روسيا ففككت عراها بالإجراءات الحربية والدسائس السياسية معاً وأصلت إنكلترا بغواصاتها ناراً حامية كادت تقضي عليها بها، يدلك على ذلك تصريح الأميرال جليكو نفسه وهو الذي كان وقتئذٍ القائد العام للأساطيل البريطانية.

أمام لياج يجب على فرنسا أن تحني رأسها إجلالاً واحتراماً وأن تضع على ضريح هذا البطل إكليلاً من الأزهار لأنه لولا وقفته التاريخية الخالدة في لياج لم يتسنّ لها إحراز النصر في معركة المارن.

وفاة بثمان هولويغ

حضرت الوفاة بثمان هولويغ[31] وزير الإمبراطورية الألمانية في فجر حرب الأمم، وقد عينه الإمبراطور غليوم السابق في هذا المنصب سنة 1909 خلفاً لسلفه الأمير بيلو.

نقش بثمان هولويغ اسمه على صفحة التاريخ بالآية الخالدة التي فاه بها لسفير بريطانيا يوم جاءه هذا شاهراً الحرب على ألمانيا لأنها خرقت حياد البلجيك والمعاهدة التي بموجبها ضمنت الدول الكبرى استقلال البلاد المذكورة وحيادها، فأجابه بثمان هولويغ «أتشهرون الحرب علينا من أجل قصاصة ورق؟» فذهبت كلمته مثلاً عالمياً.

إن هذه الآية التي فاه بها بثمان هولويغ بطريق التهكم لمن أبلغ الآيات السياسية في العالم وستظل قاعدة السياسة في العالم، وستظل قاعدة السياسة في المستقبل كما كانت في الماضي إلى أن يبزغ على البشر عصر جديد يكون شعاره الحق والعدل الحقيقيين لا الحق والعدل الكاذبين اللذين استعملهما الحلفاء ذريعة لخداع البشر.

ألم تحسب فرنسا وإنكلترا المعاهدات التي عقدت أثناء الحرب وبعد الحرب قصاصات أوراق؟ ألم تخرجا فيصلاً من سوريا وتقذفا بالحجاز إلى مجاهل البادية؟ ألم تحسبا معاهدة فرسايل نفسها قصاصة ورق إلا فيما يختص بمطامعهما الاستعمارية؟ ألم تدوسا بندها الثاني والعشرين القائل إن لكل أمة من الأمم الضعيفة الراقية التي كانت تحت سيطرة تركيا حقاً في اختيار الوصية التي تريدها هي؟ ألم تمزقا هذا البند وغيره من البنود الأخرى في مؤتمر سان ريمو على مشهد من الله والعالم، ثم تهز الواحدة منهما يد الأخرى كأنهما قامتا بعمل مجيد في سبيل الحق والعدل؟

بذل الحلفاء جهدهم ليخدعوا العالم وحاولوا الحط من قدر بثمان هولويغ الذي نطق بهذه الآية التي لا تنطبق على عدلهم السامي، وملأوا العالم ضجيجاً بحديث «قصاصة الورق»

---

31 [ثيوبولد فون بثمان ـ هولويغ (1856ـ1921)، تولى منصب مستشار ألمانيا ما بين 1909 و1917. بعد تقاعده من العمل السياسي نشر مذكراته عن الحرب الكبرى في مجلدين ما بين 1919 و 1921].

وهم أنفسهم لم يكن تاريخهم قبل الحرب وأثناء الحرب إلا قصاصات أوراق كبيرة جداً لا تحسب بجانبها قصاصة ورقة بثمان هولويغ شيئاً مذكوراً.

أجل، إن فرنسا وإنكلترا جرتا ولا تزالان جاريتين على فلسفة «قصاصة بثمان هولويغ»، والظلم الذي انزلته الأولى في لبنان والفظائع التي أتتها في سوريا ليست إلا نتيجة من نتائج «فلسفة القصاصات». فالوصايات على الشعوب الضعيفة لم تضرب إلا على هذه الشعوب، ولم تثبت في معاهدة فرسايل إلا بناء على «فلسفة القوة»، ولم تضرب بعد ذلك وصاية فرنسا على سوريا إلا بناءً على «فلسفة القصاصة».

إن بثمان هولويغ بتعبيره الصريح على الطريقة الألمانية الصريحة جمع حكمة سياسة المتقدمين والمتأخرين، فالمعاهدات منذ بدء العالم حتى الآن ليست إلا قصاصات أوراق يعمل بموجبها الفريقان طالما تخدم تلك القصاصات مصالحهم. أما متى تعارضت واحدة منها مع مصلحة أحد الفريقين، أصبحت حالاً قصاصة ورق ـ ألم تحسب إيطاليا معاهدتها القديمة الشهيرة مع ألمانيا والنمسا قصاصة؟

ونحن اللبنانيين والسوريين مجتازون الآن في لبنان وسوريا عصر قصاصات أوراق سيكون كله ظلماً واستبداداً واستعباداً، ولكن يجب علينا أن ننتظر إلى أن ترسب طبقة السياسة كما رسبت الطبقات الجيولوجية في الأرض. وكما يعثر الآن علماء الآثار على حيوانات بائدة غريبة الشكل أشبه بالغيلان بين الطبقات المشار إليها، كذلك سيعثر علماء الآثار الآتون على غولة القرن العشرين.

بثمان هولويغ قال إن المعاهدات قصاصات ورق لأنه كان معتمداً على فيالق ألمانيا ومدرعاتها وغواصاتها واستعداداتها الحربية الهائلة، فلم يكن ثمة من موجب للمواربة والرياء والخداع. أما فرنسا وإنكلترا اللتان كانتا حينئذٍ تحت حجر الرحى الألماني، فأخذتا في النحيب والندب قائلتين للعالم «اسمعوا ما تقول ألمانيا الشريرة التي تحسب المعاهدات «المقدسة» قصاصات أوراق. أما نحن المحاربين في سبيل الحق والعدل والحرية فإننا ننتفض من سماع هذه الأقاويل الكفرية ـ يجب سحق ألمانيا حتى تصير صالحة لمسكن الحرية». أما الآن وقد سحقت ألمانيا، فقد جفت دموع فرنسا وإنكلترا التمساحية كما يقول التعبير

العربي وحلتا محل ألمانيا مع فارق واحد بين الفريقين وهو أن ألمانيا قالت الصدق، أما هما فصرحتا بالزور والبهتان.

بثمان هولويغ لم يكن بالسياسي المحنك في مدرسة السياسة العصرية، إذ لو كان كذلك وجرى على خطة فرنسا في لبنان وسوريا لأجاب سفير بريطانيا أن جيوشه إنما هي في البلجيك لتحميها من الهجوم الفرنسي عليها.

مذهب داروين والاعتراضات عليه

نشرنا في عدد سابق مقالة للكاتب الرصين ديب أفندي سمعان تحت عنوان «اعتراضات على مذهب داروين[32]» رغب فيها إلينا إبداء رأينا فيها، لذلك رأينا أن نقول كلمة مجملة في هذا البحث الخطير الذي كان موضوع مئات مجلدات وألوف مقالات.

وأول ما نريد تقريره بهذا الصدد أن مذهب داروين لا ينافي وجود إله، لأن داروين ورصفاءه بحثوا في الأحياء بقطع النظر عن كيفية وجودها سواء كان هذا الوجود بالتولّد الذاتي أو بالخلق.

والقول بالتولد الذاتي لا ينافي أيضاً وجود خالق لأن التولد المذكور يمكن أن يكون قد نشأ تبعاً لنواميس طبيعية أوجدها خالق ولا تزال حتى الساعة طي حجب الخفاء والإبهام.

بقي أن نرجع في مسألة وجود خالق أو عدمه إلى المادة الأصلية، والعلماء فريقان أحدهما يقول بوجود خالق لها وفريق آخر يقول بقدمها، أي أن المادة أزلية. وهنالك فريق ثالث وسط بين الإثنين وهو فريق اللاأدرية زعيمه الأكبر هربرت سبنسر وعنده أن المادة أوجدت نفسها أمر غير معقول وأن الله أوجد شيئاً من لا شيء أمر غير معقول أيضاً، لذلك يفضل اللاأدرية على ما سواها، فالدين بالإيمان والعلم بالبرهان.

لا يوجد الآن في طول العالم وعرضه عالم واحد يصح أن يطلق عليه هذا اللقب يقول بحرفية رواية التوراة، فخلق إنسان في دقيقة من حفنة تراب لا يجد طريقاً إلى دماغ أحد من العلماء. أما أن الله قادر على ذلك، فخارج عن الأبحاث العلمية لأنها تتناول ما هو معروف من نواميس الطبيعة لا ما هو شاذ عنها. كذلك لا يمكن التسليم بأن الله خلق العالم في ستة أيام لأن ذلك منافٍ لأولويات فن الفلك والجيولوجيا.

كانت العادة قديماً أنه متى تضارب العلم والدين، وجب على الأول أن يطابق الثاني. أما

32 [شارل داروين (1809-1882)، عالم بريطاني وصاحب نظرية التطور التي شرحها سنة 1859 في كتاب بعنوان «أصل الأنواع»].

الآن فقد انعكست الآية وأصبح من واجب الدين أن يطابق العلم إذا كان لا بد من بقائه حياً، لذلك يقول اللاهوتيون إن المراد بالأيام الستة أعصر جيولوجية، فكل يوم كناية عن عصر أو دهر. أما فيما يختص بخلق كائن راقٍ كالإنسان دفعة واحدة فلا يوجد الآن بين اللاهوتيين العصريين من يقول به.

ومذهب داروين لا يعني ضرورة مذهب «الارتقاء»، وهذه الترجمة للفظ الغربي خطأ وصوابه «التطوّر» على ما أثبتناه في أبحاث فلسفية في غير هذا الموضع، وهو ما يجب التنبيه إليه لأنه خطأ شائع. والتطوّر قد يعني الانحطاط كما يعني الارتقاء، ولكن الثاني أغلب كثيراً من الأول. ونشوء الإنسان بالتطوُّر المذهب العلمي الوحيد الذي يمكن العقل البشري قبوله.

بيد أن ما تقدم لا يعني أن مذهب داروين مذهب كامل لا يقبل جدلاً أو اعتراضاً، بل بالضد من ذلك اعترض على كثير من قضاياه فريق كبير من جلة العلماء أكثرهم من المعطلين الذين لا يعتقدون بالخلق ولا بوجود إله. ووجه اعتراضاتهم أن هذا المذهب لا يعلل عن كل مظاهر الارتقاء ولا يدفع كل ما يوجه إليه من الاعتراضات. ولقد تبين بعد أبحاث علمية دقيقة أن هذا المذهب ناقص في بعض النقط، ولكن هذا لا يجوز اتخاذه دليلاً على فساد مذهب داروين وأن الإنسان لم يتكون بالتطوّر أو بالنشوء والارتقاء، بل دلّت تلك المباحث على أن الطبيعة تستعمل في ترقية الأحياء طرقاً أخرى أيضاً لم يذكرها داروين.

المأخوذ من مذهب داروين، على ما وضع أولاً، أن الأحياء ارتقت بالتدريج كل طائفة منها مما هو دونها تواً. لذلك رسخ في الذهن أن الإنسان ارتقى من القرد، وظل العلماء زمناً طويلاً يفتشون عن «الحلقة المفقودة» أي القرد الذي كان أباً للجنس البشري، وهو ما لم يتمكنوا حتى الساعة من العثور عليه.

أفضى هذا البحث إلى اكتشاف خطير جداً وهو أن مذهب داروين خطأ من هذه الجهة. فالإنسان لم ينشأ من القرد رأساً، بل إنه وُجد في الأعصر المتطاولة في القدم حيوان ذو خصائص مشتركة بين القرد والإنسان نشأ الأول منه سائراً في طريق القردية ونشأ منه

الثاني سائراً في سبيل البشرية، أي أن ذلك الحيوان كان جداً عاماً للقرود والبشر معاً فهو أشبه بجذع شجرة تفرعت فرعين أحدهما القرد والآخر الإنسان.

لذلك أنبأ العلماء أنه لا بد من العثور يوماً ما بين الطبقات الجيولوجية على جمجمة حيوان لا يمكن الحكم بها ما إذا كانت جمجمة قرد أو جمجمة إنسان لأنها جمجمة الحيوان الذي سموه الإنسان القردي أو القرد الإنساني، وهو الحيوان الذي اشتقت منه القرود والبشر معاً.

وهذا ما حصل فعلاً، فقد عثر العلماء على غير جمجمة تؤيد هذا المذهب العلمي في ارتقاء الإنسان، وهو المذهب الذي عليه جلّة العلماء الذين تؤخذ أقوالهم حجة في هذه الأبحاث.

كان داروين أول من أورد الاعتراضات على مذهبه، بعضها ما جاء في المقالة التي ألمعنا إليها وبعضها لم يرد له ذكر فيها. وأجاب عليها كلها أجوبة علمية تنطبق على النواميس الطبيعية. ولكن لو فرضنا أن بعض هذه الأجوبة غير مقنع أو أنه لم يصب كبد الحقيقة، فذلك ليس برهاناً على فساد مذهبه، بل أن داروين لم يكتشف أساليب الطبيعة كلها في تطويرها للأحياء، ولا يجوز التسليم قط بأن هذه الاعتراضات وأمثالها يجب أن تهدم المذهب العلمي الوحيد الذي يعلّل عن وجود الإنسان على حاله الحاضرة تعليلاً علمياً لا دخل فيه للعجائب والمعجزات.

ولا بد من التصريح هنا أن كثيرين من معتنقي مذهب داروين يقرون بوجود الله وبعضهم متدين، وهذا الفريق يقول إن ارتقاء الإنسان بموجب نواميس طبيعية غير متغيرة أوجدها الخالق أولى بصفات الله السامية من القول إنه خلق الإنسان من حفنة تراب.

ومما يستحق الذكر أن داروين لم يكن الرجل الوحيد الذي اكتشف ارتقاء الإنسان من الحيوان، بل كان له ندٌّ في ذلك هو العلاّمة ولاص[33] الشهير. فقد لبث هذان العلاّمتان يعملان سنين طويلة دون أن يعرف أحدهما شيئاً عن الآخر، ثم نشرا مذهبهما في وقت

33 [ألفرد راسل ولاس (1823–1913) عالم بريطاني نشر عدة مؤلفات حول موضوع التطور مما دفع بداروين إلى نشر مؤلفه «أصل الأنواع»].

واحد. وحينئذٍ قامت حرب شهامة بين هذين المكتشفين لم ير لها العلم نظيراً، وهي أن كلاًّ منهما كان يعطي شرف السبق للآخر فداروين صرّح أن ولاص سبقه إلى هذا الاكتشاف وولاص صرّح أن داروين هو السابق. أخيراً حكمت الأكاديمية العلمية بالسبق لداروين لأنه كان الأسبق في تقديم تقرير لها يشرح فيه اكتشافه. لا نظن أنه يوجد في تاريخ العالم شهامة تضاهي شهامة هذين العلاّمتين الكبيرين باكتشافيهما الكبيرين، بعقليهما الكبيرين، بأخلاقهما الكبيرين، بشهامتهما!

المذهب القائل بالخلق الفجائي لا محل له في العلم، بل إن كل ما في الطبيعة يدل على تطوّر من البسيط إلى المركّب، ومن المنحط إلى الراقي. ومذهب التطور لا ينحصر في الإنسان أو الكائنات الحية، بل يتناول أيضاً كل ما في هذا الكون من شموس وسيارات وأقمار. فالأرض لم توجد منذ البدء كما هي الآن، بل مرت عليها ملايين من السنين تطورت في أثنائها من الحال النارية إلى حال أمكن معها وجود كائنات حية إلى الحال الحاضرة، وهي سائرة إلى طور الشيخوخة، فالموت على حد الكائنات الحية فيها.

العلم الصحيح والدين القويم

أتينا في الجزء الفائت على البراهين التي تثبت مذهب التطور وفي عدادها تمكن مربي الحيوانات والنباتات من إيجاد أنواع جديدة. أما عدم تحول النباتات والحيوانات تحت نظرنا من نوع إلى آخر كتحول الأسماك إلى طيور مثلاً فلأنه يقتضي لذلك ألوف وعشرات الألوف من السنين وأحياناً مئات الألوف وملايين من السنين. ومتى علمنا أن الكائنات الحية قد مر عليها منذ بداءة نشأتها حتى الآن ما لا يقل عن ألف مليون سنة أدركنا أن ألف سنة في عين الطبيعة مثل يوم أمس. والعلم العصري لم يبتدئ إلا منذ سنين معدودات ليست بالنسبة إلى هذا الزمن الذي يعترينا الدوار عند التفكير فيه إلا بضع ثوان، فمن ينتظر تحول القرد تحت بصره إلى إنسان كمن ينتظر في ذلك الزمن تكون طبقة جيولوجية إقتضى تكونها دهوراً من الزمن. والعلماء العصريون لا يقولون إن الإنسان إشتق من القرد بل إنه كان هنالك جد قديم تشترك خصائصه بين القردية والبشرية، ففرع منه سار في طريق الأولى وفرع آخر سار في طريق الثانية لذلك كانت الحلقة المفقودة عبارة عن حيوان جامع لخصائص النوعين، ولقد عثر العلماء على ما يثبت ذلك كما بيناه في المقالات السابقة.

أما فيما يختص بكون الجراثيم الحية الأولى قد أوجدتها الطبيعة من نفسها أو بقوة أوجدها فيها خالق فهي مسألة خاصة لا علاقة لها رأساً بالتطور، وهذه المسألة لا تقتصر على الكائنات الحية بل تتناول الطبيعة كلها أي الجماد أيضاً. والعلماء في ذلك فريقان أحدهما يقول بأزلية المادة والآخر يقول بأنها صنع خالق، وأعظم فيلسوف ظهر في العالم وهو هربرت سبنسر يقول بعد أن أفاض البحث في هذه المعضلة إنها فوق إدراك العقل البشري لأن المحدود لا يمكنه إدراك غير المحدود، لذلك اعتنق اللاإدرية وأصبح شيخ اللاإدريين العصريين أي الذين يقولون إنهم لا يدرون.

نكرر الآن ما قلناه سابقاً من أنه لا يوجد الآن في طول العالم وعرضه عالم يصح عليه إطلاق هذا اللقب لا يعتقد بمذهب التطور، وبين هؤلاء العلماء رجال الدين والمبشرون ولقد عقدوا مؤتمراً في الولايات المتحدة أعلنوا فيه اعتقادهم بمذهب التطور وأن هذا المذهب لا ينافي جوهر الدين المسيحي.

في عداد مشاهير علماء العالم القائلين بالتطور من يعتقد لا بالله فقط بل بمناجاة الأرواح أيضاً وفي صدر هؤلاء العلامة السر أوليفر لودج رئيس الجمعية البريطانية الملكية وهي أرقى جمعية علمية في بريطانيا.

إن الضجة التي قامت حول مذهب التطور عائدة إلى عوامل دينية أكثر منها علمية، فتطور الإنسان من الحيوان لا يعني ضرورة إنكار وجود خالق وهو فرع من القضية الفلسفية الكبرى العامة وهي كيف وُجد الجماد الذي تكونت منه الكائنات الحية وكيف وُجدت المادة لا على هذه الأرض فقط بل في الكون العجيب الغريب كله الذي لا نرى من كواكبه المتألقة في القبة الزرقاء في ليلة صافية الأديم إلا قطرة من بحر.

يمكننا أن نحذف الأرض من سفر الوجود دون أن يشعر الكون بخسارة شئ كما يمكننا أن نحذف جوهر فرد من العالم، فكيف وُجدت يا ترى هذه المادة التي يسحر جمالها وجلالها العقول؟ كيف وُجدت تلك الشموس الجبارة التي لا تعد شمسنا بالنسبة إليها شيئاً مذكوراً؟ كيف وُجدت تلك الكواكب التي يقتضي نورها للوصول إلينا عشرات ألوف من السنين والنور يقطع في الثانية ماية وستة وثمانين ألف ميل؟ كيف وُجدت تلك المجاميع البديعة التي يضيع نظامنا الشمسي كله في واحد منها كما تضيع حبة رمل في صحاري أفريقيا؟

وإذا كان هذا الكون الفخم الرهيب العجيب صنع خالق، أفيعجز هذا الخالق العظيم عن أن يضع في المادة قوة لتكوين الكائنات الحية ويسن لها في جملة ما سنّ من النواميس ناموساً تتطور بموجبه تلك الكائنات دون أن يكون مضطراً إلى خلق كل نوع على حدة بعد نكبات جيولوجية لا لزوم لها ولا فائدة منها؟

وإذا كان هنالك خالق، فهل يكون خلقه لكل نوع من الكائنات الحية أعجب من خلقه الجواهر الفردة التي كل جوهر فرد منها نظام شمسي بديع تحار فيه الألباب؟ وإذا كان لا يعقل أن الله خلق كل جوهر فرد على حدة بل نفخ في المادة جملةً هذه القوة أفيعقل أنه يخلق خمسة ملايين أو خمسين مليون نوع من الكائنات الحية كل منها على حدة؟

إن التطور لا يقتصر على الكائنات الحية بل وجد ولا يزال موجوداً في كواكب الكون كله متحولة مادته من نوع متناه في اللطف والرقة إلى أنواع شتى متباينة القوام والخصائص، فالكواكب التي نراها بالعين وبالمجهر ليست إلا أطواراً متباينة للهيولى الأولى.

أما الذين يريدون أن يجري العلم بموجب حرف الكتاب المقدس فإننا نردهم إلى ما جاء في ذلك الكتاب عينه وهو:

«الحرف يقتل ولكن الروح تحيي»!

رد على مقالة برايان

يرى المطالع قبيل هذا مقالة للمستر برايان[34] الأميركي ألقاها على جمهور غفير من الناس ثم نشرتها جرائد أميركا الشهيرة.

المستر برايان من أشهر مشاهير الولايات المتحدة وليس أدل على ذلك من ترشيحه سابقاً ثلاث مرار متوالية لرئاسة جمهوريتها، ولما كنا قد تشرفنا بمعرفته شخصياً أثناء زيارته إلى القاهرة وتلطف بدعوتنا إلى المحاضرة التي ألقاها حينئذ فيها رأينا أن نقول كلمتنا في مقالته المذكورة بعد الذي نشرناه من المقالات بخصوص ولادة الأرض من الشمس والقمر من الأرض وكيفية ظهور الكوائن الحية أولاً في عالمنا وتطور الأحياء على ضروب لا تكاد تقع تحت حصر إلى أن انتهى ذلك كله أخيراً بالإنسان أمير الطبيعة وسيد الكائنات الحية. فنحن من القائلين بالتطور كما بسطناه في مقالات سابقة ضافية الذيول، فالعدل يقضي بإيراد ما يقوله خصوم هذا المذهب لذلك رأينا أن نترجم مقالة المستر برايان بهذا الصدد ترجمة حرفية ثم نرد على ما جاء فيها دافعين البرهان بالبرهان.

ليس الغرض من هذه المقالة التعرض للأديان والمعتقدات الدينية لأن الموقف موقف علمي محض، ولقد كان من وراء الضجة التي حدثت في أميركا من وراء انتشار مذهب التطور وما نشره العلماء مؤخراً بهذا الصدد وبعد اكتشاف الحقائق العلمية الخطيرة على ما أثبتناه في ما مر من أجزاء المجلة أن نحواً من خمسين شهيراً من مشاهير الولايات المتحدة بين علماء معطلين ومؤمنين ومبشرين وسياسيين وقعوا مؤخراً بياناً مفاده أن غرض الدين والعلم كليهما خير الجنس البشري.

لم يوجد العلم لمحاربة الدين كما أن الدين لم يوجد لمحاربة العلم ولكن فريقاً كبيراً من رجال الدين حولوه عن غرضه الأصلي واستعملوه ذريعة للسيطرة على ضمائر البشر

34 [وليم برايان (1860–1925) سياسي أميركي عارض بشدة الداروينية على أسس دينية].

وعقولهم وأجسامهم وحريتهم فكان من وراء ذلك كله إحتكاك كثير ما أفضى إلى انفجار، والاحتكاك من طبعه توليد النار.

الاعتقاد بالتطور لا يمنع من الاعتقاد بوجود إله لأنه إذا كانت الطبيعة صنع إله فمن المنطق أن يكون هذا الإله كلي الحكمة، والكلية تقضي بوضع نواميس تجري بموجبها الطبيعة كلها. والكون الذي يتمشى على شرائع وأنظمة لا تعرف شذوذاً أولى بعظمة الخالق وحكمته من كون مبني على الفوضى والإرادة التحكمية التي لا تعرف ناموساً.

فالقول إن الله خلق العالم في ستة أيام وإنه خلق الإنسان فجأة أو دفعة واحدة من حفنة تراب لأنه قادر على كل شيء لا محل له في قاموس العلم لأنه من البديهي أنه متى اندمج العلم في منطق مثل هذه المبادئ الخارقة لنواميس الطبيعة بطل أن يكون علماً.

الدين بالإيمان أما العلم فبالبرهان

لا تجد الآن عالماً قط في طول العالم وعرضه يقول بما تقدم حتى رجال الدين المبشرين من على المنابر، لذلك حوروا الدين حتى يصير منطبقاً على العلم فقالوا مثلاً إن المراد بستة أيام الخلق عبارة عن ستة أدوار جيولوجية.

لا تجد أيضاً عالماً في طول العالم وعرضه لا يعتقد بالتطور، أما كون مذهب دروين غير كاف للتعليل عن ظواهر التطور كلها فلا يمنع من ثبوت التطور ولكنه يدل على أن الطبيعة تذرعت بوسائل أخرى أيضاً لبلوغ أغراضها لم يعرفها دروين فلم يذكرها.

سنأتي في الجزء التالي على البراهين الدامغة التي يوردها العلماء لإثبات التطور فضلاً عما أوردناه سابقاً، لذلك نجتزئ في هذه المقالة على النظر في آراء برايان من الوجهة الفلسفية العامة.

يقول برايان إن التطور «لم يصدر عن دروين ولا عن جده فإن البشر شرعوا في تخمين أصل الإنسان منذ الزمن الذي كانت فيه وسائل لتدوين التخمينات». وهي الحقيقة عينها فمذهب التطور قديم وقد سبق دروين إليه بمئات من السنين الشاعر العربي فيلسوف

الشعراء وشاعر الفلاسفة أبو العلاء المعري الطائر الصيت ومن ذلك بيته الشهير:

والذي حارت البرية فيه		حيوان مستحدث من جماد

وهو كما ترى لم يكتف بالقول بالتطور بل ذهب إلى ما أبعد من ذلك وقال بالتولد الذاتي للكائنات الحية، ومتى علمت أن العلم كان على عهد أبي العلاء في طور الطفولية الأولى وأن أبا العلاء لم يكن يعرف من ذلك النزر القليل شيئاً لا يسعك إلا الإندهال من تلك القوة العقلية السامية لضرير يرى ببصيرته ما لا يراه بعضنا ببصره.

بيد أن دروين كان العالم الأول الذي أقام الأدلة العلمية الراهنة على صحة هذا الرأي وظل عشرين سنة يدرس الكائنات الحية في أصقاع شتى من الأرض من نباتات وحيوانات قبل أن فاجأ العالم بهذا الاكتشاف الذي لا نظير له في خطورته إلا اكتشاف نيوتن للجاذبية. ومن الغريب أن عالماً آخر لا يقل عن دروين منزلة يسمى ولاص إكتشف ودروين مذهب التطور في وقت واحد بعد أن ظلا يعملان مستقلين سنيناً طوالاً دون أن يدري أحدهما شيئاً عن الآخر، حينئذ قام نزاع شهير على الأسبقية بين هذين العالمين يخالف كل نزاع آخر من نوعه – نزاع لم يشهد العالم نظيره في شرف الأخلاق والشهامة والغيرية فكان دروين يدعي أن ولاص هو الذي سبقه إلى هذا الاكتشاف وكان ولاص يدعي أن دروين هو السابق، أخيراً حكم العلماء بالسبق لدروين لأنه كان الأسبق في إرسال بيان بهذا الصدد إلى الجمعية العلمية البريطانية فسمي هذا المذهب باسمه.

وقد بيّن دروين في كتبه الشهيرة التي نشرها بعد ذلك أن الكائنات الحية كلها على اختلاف أشكالها وضروبها نشأت من أصل واحد بسيط أو أصول قليلة أخذت في التطور والارتقاء بتغير بطيء تدريجي إنتهى بها إلى الإنسان أمير الطبيعة.

تحوّر مذهب دروين بعد ذلك في «أسباب» التطور لا في ما إذا كان التطور حقيقة أو لا لأن العلماء وجدوا أن النواميس التي وضعها دروين لبيان أسباب التطور غير كافية وحدها للتعليل عنه وأن الطبيعة تستعمل ذرائع أخرى لبلوغ غرضها. أما قول برايان إن «الانتخاب الجنسي» أخرج الآن من غرف الدروس متبوعاً بالضحك وإن «الانتخاب الطبيعي» لا يعبأ به القوم الآن فغير صحيح وهو تحامل على العلم لا يصح صدوره من رجل كبير كالمستر

برايان. أما أن بعض العلماء تبرأ من مذهب دروين، فهذا صحيح لكن من البديهي أن ذلك لا يعني أنه تبرأ من مذهب التطور نفسه بل ما يعني أن ذلك العالم لا يرى مذهب دروين كافياً للتعليل عن ظواهر التطور كلها، فإذا قلنا مثلاً إن مذهب الأثير لا يعلل عن ظواهر النور فذلك لا يعني أننا ننكر وجود النور.

فعل بعد ذلك العالم ليال[35] في فن الجيولوجيا أو طبقات الأرض ما فعله قبله دروين في فن البيولوجيا أو علم الحياة فأثبت أن طبقات الأرض الجيولوجية تكونت على مر الأدهار بتجمع بطيء جداً ناشيء عن رسوب مواد طفيلية أو وحلية. وفعل اللغوي مكس مولر[36] الشهير في اللغات ما فعله دروين في البيولوجيا وليال في الجيولوجيا فبرهن على أن اللغات كلها مشتقة من أصل واحد بسيط أو أصول قليلة بسيطة تطورت تطوراً تدريجياً بطيئاً، فالعربية مثلاً والسريانية والعبرانية تعود كلها إلى أصل واحد هو اللغة السامية. أما الذين لا يؤمنون بتطور اللغات فيقولون نظير رصفائهم الذين لا يؤمنون بتطور الأحياء إن الله خلق كل لغة من لغات العالم على حدة. ولا تزال أمثال هذه المناقشات السخيفة الصبيانية حتى الآن في كثير من المجلات والجرائد العربية.

فالقول إن الله خلق ألوف اللغات كلاً منها على حدة كالقول إنه خلق ملايين صنوف الأحياء من نبات وحيوان كلاً منها على حدة، ويقولون إن متحجرات الأحياء في الطبقات الجيولوجية عبارة عن نكبات متتالية حدثت على سطح الأرض كانت كل نكبة منها تفني الأحياء على سطحها وكان الله بعد كل نكبة جيولوجية يبتدئ في خلق أنواع جديدة أرقى من السابقة.

يريد المستر برايان أن نرفض مذهب التطور لأنه يخالف «القصة الموسوية بخصوص خلق الإنسان واعتباره عملاً مستقلاً قام به الإله القدير على كل شيء». فالتوارة لم توجد

35 [شارل ليال (1797 – 1875) عالم جيولوجي بريطاني، نشر كتاباً بعنوان «مبادئ الجيولوجيا»، وكان صديقاً لداروين].

36 [فريدريك ماكس مولر (1823 – 1900) عالم لغات ومستشرق ألماني الأصل، أشرف على نشر سلسلة بعنوان «الكتب المقدسة في الشرق» وضمت خمسين مجلداً باللغة الإنكليزية].

لتعليم الناس فن الفلك وكيف ولدت الأرض من الشمس ولا فن الجيولوجيا وكيف تكونت طبقات الأرض ولا فن البيولوجيا وكيف تكونت الكائنات الحية. كما أن المسيحية لم توجد لتعليم الناس الكهربائية وتحويل القوى من نوع إلى آخر ونواميس النور ودوران الأفلاك، فهي تكلمت عن السماء من وجهة روحية محضة أما فيما يخص بكوكبها وحركاتها وأبعادها ونواميسها فقد تركته لاكتشافات البشر.

يزعم برايان أن الكيمياء تقدم لنا برهاناً نهائياً ضد التطور فهو يقول «إذا كان التطور موجوداً في مكان ما يجب أن يكون موجوداً في كل مكان فلا يمكن فصله كما لو كان جرثومة وحجزه في مكان ما من الكون، فإذا كان في وسعه أن يوضح الأجرام السموية والطبقات الصخرية والحياة النباتية والحياة الحيوانية والإنسان مكوناً صلة بين الواحد منها والآخر بعروات وثقى فلا بد من أن يتسلط تأثيره على كل جوهر فرد من جواهر المادة وعلى الذريرات التي تؤلف الجوهر الفرد... لم تكتشف ناموساً قط للتطور».

والحقيقة أن الكيمياء بدلاً من أن تقدم لنا برهاناً نهائياً ضد التطور قدمت لنا براهين نهائية لإثباته فهي تتناول الجواهر الفردة للمواد وتعين أوزانها. وعناصرها الإثنان والتسعون التي ألمع إليها برايان تتألف في سلم كمية منتظمة أدق وأكثر انتظاماً من السلم الموسيقية مبتدئة من الهيدروجين أخفها حتى أثقلها فكان من وراء ذلك اكتشاف الناموس الذروي. فمتى عرفنا ثقل الجوهر الفرد لعنصر علمنا خصائصه، وحدث مرة أن الكيمي مندلييف[37] الروسي الشهير وجد فراغاً في سلم الموسيقى الكيمية للعناصر مما لا ينطبق على مذهب التطور فأنبأ بوجود ثلاثة عناصر لم تكن حينئذ مكتشفة قط يجب أن تملأ الفراغ المذكور إذا كان الناموس الذروي صحيحاً. ومما يدعو إلى العجب أكثر من ذلك أنه أنبأ بالعائلات العنصرية التي تنتمي إليها تلك العناصر المفقودة وأنبأ بجرأة وإيمان الخصائص الكيمية التي يجب أن تكون في تلك العناصر الثلاثة متى أكتشفت في المستقبل، ومما يستحق الذكر أن مندلييف ظل حياً إلى أن أكتشف تلك العناصر الثلاثة المفقودة. وتحققت قبل موته نبوءته فبرزت تلك العناصر إلى عالم الوجود الواحد تلو الآخر وكانت الخصائص

37 [ديميتري إيفانوفيتش مندلييف (1834 – 1907) عالم كيميائي ومخترع روسي].

الكيموية لكل منها كما أنبأ دون زيادة ولا نقصان. فهل يريد برايان برهاناً أقوى من هذا على وجود التطور التام في عالم الكيمياء؟

إن الوقوف في وجه العلم بحجة الدفاع عن الدين ليس بالبدعة الجديدة. لمّا جاهر غاليليو بالحق وقال إن الأرض تدور حول الشمس لا الشمس حول الأرض رموه بالكفر والبهتان واضطهدوه اضطهاداً مشهوراً في التاريخ. بيد أنه لم يقم مذهب علمي لقي من المناهضة والاضطهاد ما لقيه مذهب دروين لأنه جاء ضربة على الكبرياء البشرية لما رسخ في الأذهان من أن الإنسان من طينة أخرى غير طينة سائر الحيوان.

لم يتعرض دروين قط للدين في كتاب من كتبه لا تصريحاً ولا تلميحاً بل لم يطلق مذهبه إلى أبعد مداه المنطقي فلم يقل بالتولد الذاتي بل بدأ بالجرثومة أو الجراثيم الحية الأولى دون أن يبدي رأياً في كيفية ظهورها.

نظن أن الفرق في المنظر والأخلاق بين أقبح زنجي من أكلة البشر وأجمل سيدة بيضاء لأكبر كثيراً من الفرق بين ذلك الزنجي وابن عمه الغوريلا.

ولكن الدين لم يبطل لأن الأرض تدور حول الشمس لا الشمس حول الأرض، ولم يبطل لأن الأرض إقتضى لخلقها ألوف ملايين من السنين لا ستة أيام، ولم يبطل لأن الكائنات الحية إقتضى لظهورها كلها ألف مليون سنة لا يوم أو يومان فقط، كذلك لم يبطل لأن الإنسان تطور من حيوان لا من تراب.

البراهين على مذهب التطور

يمكن أن يقال على وجه الإجمال أن علماء العالم يعتقدون كلهم بمذهب التطور وكذلك الأكثرية الساحقة من الذين تهذبوا في المدارس. وقد عقد منذ بضعة أشهر فريق من كبار رجال العلم والدين والسياسة في أميركا مؤتمراً أصدروا بعده بياناً عاماً أكدوا فيه اعتقادهم بصحة مذهب التطور وأن هذا المذهب لا يتضارب في الشؤون الجوهرية مع الدين المسيحي.

من الواضح أن اقتناع هؤلاء الرجال العظام المفكرين لم ينشأ إلا عن براهين قوية. ولمّا كنا قد أتينا في أجزاء ماضية على هذا المذهب وأوضحنا كيفية تطور الحيوانات والنباتات من جراثيم بالغة منتهى الصغر والبساطة، رأينا أن نأتي الآن على البراهين التي يقدمها العلماء في إثبات مذهب التطور.

ماهية التطور

نبحث أولاً في كيفية ظهور مذهب التطور وما المراد بهذا المذهب. كل منا يعرف بالبداهة أن في العالم أنواعاً شتى من الكائنات الحية فإذا كنت مسافراً على أي طريق في أي بلد من بلدان العالم شاهدت مئات من أنواع النباتات والطيور والديدان والحشرات وأشباهها وذلك في مسافة لا تستغرق أكثر من ساعة. ويقدر العلماء أن عدد أنواع الحيوانات على اختلاف ضروبها يزيد عن مليون نوع وأن عدد أنواع النباتات يزيد عن مليوني نوع.

خمسة ملايين شكل من الكائنات الحية

بيد أن هنالك كثيراً من الأنواع القديمة اضمحلت الآن ولا نرى لها أثراً إلا في الصخور التي تكونت في الطبقات الجيولوجية القديمة كالزحافات الهائلة التي ألمعنا إليها في مقالة

سابقة، ومجموع الأنواع الحية والبائدة من النباتات والحيوانات يزيد عن خمسة ملايين نوع، ويظن بعض العلماء أن خمسين مليون أقرب إلى الصواب من خمسة ملايين.

كيف أمكن ظهور هذه الأنواع البالغة هذا العدد الهائل إلى عالم الوجود؟ خطر هذا السؤال في بال فلاسفة قدماء اليونان منذ نحو ثلاث الآف سنة. ولا يوجد لهذا السؤال إلا جواب واحد من جوابين أولهما الجواب القائل بالخلق الخاص والثاني القائل بالتطور. فالرأي الأول يقول إن كل نوع من ملايين أنواع النباتات والحيوانات قد خلق فجأة دفعة واحدة بقوة فوق الطبيعة.

مذهب التطور

أما الرأي الثاني فيقول إن أحد أنواع الكائنات الحية يتحول إلى نوع آخر وهذا إلى نوع ثالث وهلم جراً. فالهر البري الأصلي مثلاً قد تحول فرع منه بالتدريج على مدى عصور متطاولة إلى نمورة وتحول فرع آخر إلى أسود وتحول فرع ثالث إلى الهر الأهلي الاعتيادي وتحولت فروع أخرى إلى كائنات أخرى هرية الشكل بعضها لا يزال حياً والبعض الآخر انقرض.

وبناء على هذا الرأي يصح على الإنسان ما يصح على سائر الحيوان، فالإنسان بموجبه قد ارتقى من كائنات حية شبيهة بالقطط كانت تعيش في الأشجار منذ نحو ستين مليون سنة وهي التي يسميها العلماء الليمار على ما فصلنا ذلك في مقالة سابقة.

هذا ما يراد بالرأي القائل بالتغير أو التطور، لذلك يمكن تحديد هذا الرأي بأنه رأي يقول بتحول ضروب الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية من نوع واحد إلى النوع الآخر.

منشأ الحياة

إذا كان الأمر كذلك فمن البديهي أن ملايين أنواع الكائنات الحية كلها الحالية والمنقرضة نشأت بالتغير والتحول من بضعة أنواع أولية أو من نوع واحد أصلي وهو النطفات ذوات

الكرية الواحدة التي تكونت في البحار الأولية، وهو الذي عليه جمهور العلماء. فالتطور إذن الطريق الذي يوضح لنا سبب وجود أنواع شتى من الكائنات الحية.

فالإنسان بموجب مذهب التطور ليس شكلاً صنع فجأة من مواد أولية كما يصنع النقاش تمثالاً من طين بل هو نتيجة تغيرات شتى تعاقبت بعضها على بعض كالتغيرات التي تطرأ على بزرة التفاح بعد زرعها على تمادي السنين فإنها تصير أولاً نباتاً مستفرخاً ثم شجرة دقيقة ثم شجرة مثقلة بالثمار.

يجب على أصحاب هذا الرأي الذي يوضح أصل الإنسان أن يقدموا براهين تدل على أن الإنسان ارتقى عصراً فعصراً من سلسلة طويلة من أجداد حيوانيين بعضها دودية الشكل والبعض سمكية الشكل والبعض زحافية الشكل والبعض الآخر سعدانية الشكل، وهي براهين تمكن العلماء من تقديمها ينحصر أهمها في الحقائق الخمس الآتية:

أولاً: أن الآثار الحية المتحجرة في الصخور تمكننا من اقتفاء تاريخ الكائنات الحية الحالية وتطورها.

ثانياً: أن في باطن الجسم البشري أعضاء شتى وأجزاء من أعضاء شتى لا فائدة لنا منها الآن ولكنها كانت ذات فائدة كبيرة لأجدادنا الحيوانيين السابقين الذين ولدوا وهذه الأعضاء في أجسامهم.

ثالثاً: أن كثيراً من أعمال الجسم البشري موروثة أيضاً من حيوانات تقدمتنا.

رابعاً: أن جسم الطفل قبل ولادته يمر على أطوار أو أدوار تدل على أشكال الحيوانات الدنيا التي ارتقى منها الإنسان كالديدان والأسماك والزحافات وسواها.

خامساً: أمكن العلماء صناعياً إيجاد أنواع جديدة من النبات والحيوان فتمكنوا بذلك من تقليد التطور بالامتحان.

أتينا على بعض هذه البراهين في ما تقدم من المقالات كاكتشاف عظام بشرية متحجرة هي صلة في شكلها وطبيعتها بين عظام البشر الحاليين والقرود، وهي الحلقات التي كانت تسمى قبلاً الحلقات المفقودة التي تصل بين أجسامنا وأجسام الحيوانات.

أدلة الصخور القديمة

رأينا أيضاً أن كل المجاميع المتحجرة للكائنات الحية الموجودة في صخور الأرض تدل على ارتقاء تدريجي للحياة من الصخور الأولى حتى الأخيرة منها. ففي أعمق الصخور وأقدمها لا نجد إلا أثار الكائنات الحية البالغة منتهى البساطة أي دقائق ذات كرية واحدة من مادة هلامية حية أشبه بالنطفات الحية الطينية أو الكائنات الحية المكرسكوبية أو المجهرية التي لا تزال عائشة حتى الآن في المياه التي نراها في حفر على جوانب الطرق.

أما في الصخور الواقعة في طبقات متدرجة أعلى منها فإننا نرى أشكال الحياة آخذة في الارتقاء والتشعب التدريجي المستمر حتى إننا يمكننا تتبع ارتقاء الكائنات في سلم الحياة من آثار متحجراتها التي يمكننا انتزاعها من هذه الصخور فنرى كيف ارتقت أبسط أشكال الحياة حتى صارت كائنات ديدانية الشكل فأسماكاً فزحافات وهكذا على التوالي حتى الإنسان.

بيد أن هذا البرهان على صحة مذهب الارتقاء مهما كان قوياً ليس بأقوى من البرهان الثاني وهو جسم الإنسان نفسه، فالجسم البشري على ما ألمعنا إليه سابقاً ليس إلا معرضاً حياً للماضي. فلنقف الآن قليلاً ونبحث في الزائدة الدودية مثلاً وهي ذلك العضو الصغير الذي كثيراً ما يقلق راحة الإنسان ويسبب له خطراً.

إن هذه الزائدة أفيد الآن للجراحين الذين يتناولون أجرة قطعها منها لصاحبها، فليس لها على ما نعلم فائدة أو وظيفة قط في الجسم البشري العصري ولكنها برهان مهم جداً على التطور لأنها أثر لمعدة أخرى كانت لنا ثم اضمحلت.

كان أسلاف البشر الحيوانيين وقتاً ما يقتاتون في جملة ما يقتاتونه الجذور والكلأ أو العشب ولحاء أو قشور الأشجار وما أشبه، وهي مواد لا يمكن معدنا هضمها قط لأن العصارات الهضمية العادية لا تؤثر في هذه المواد الخشبية ولكن هناك نوعاً من البكتيريا أو الميكروبات في قشور الأشجار الممضوغة لينتها وجعلتها على نوع ما صالحة للهضم كما يلين الطعام وتقل صلابته متى ترك مدة معلقاً في الهواء. لذلك فرز أجدادنا الحيوانيون معدة خاصة يمكن أن تعيش فيها هذه البكتيريا أو الميكروبات لتليين القشور التي تقتات بها وحجزت هذه المواد الخشبية من طعامها في ذلك الكيس أو المعدة الإضافية مدة ساعات أو أيام تتمكن في

خلالها البكتيريا من تليين تلك المواد وبعد تليينها يمتص منها الجسم كل العصارات المغذية ولا يبقى فيها إلا الخشب. ولا تزال هذه المعدة الإضافية حتى اليوم في الحيوانات آكلة الأعشاب كالبقر والخيل وهي تستعملها الآن كما كان يستعملها أجدادنا السابقون.

زوال المعدة الثانية للإنسان

بعد مرور ملايين من السنين على الحيوانات التي كانت سائرة في طريقها نحو البشرية وتغيّر نوع الطعام الذي كانت تقتات به، زالت الحاجة لوجود معدة تهضم الخشب، فضمرت هذه المعدة وبقي أثرها في الإنسان وهو الزائدة الدودية التي هي عبارة عن أنبوب صغير يتراوح طوله بين قيراط وقيراطين وثخانتها كثخانة قلم الرصاص، وهي متصلة من أحد طرفيها بالأمعاء وسبب تلبيكها لنا وتعرضها للمرض والإلتهاب ناشئ عن كونها فقدت شغلها الخاص أو وظيفتها فأصبحت عرضة للقلق والتذمّر كسائر الكسالى.

يوجد في جسم الإنسان نحو مائتي أثر كلها شبيهة بالزائدة الدودية من حيث كونها أبنية لا فائدة مهمّة منها الآن للجسم البشري ولكنها كانت ضرورية لبعض أسلافنا الحيوانيين.

في عداد هذه الآثار الغدة الصنوبرية في البشر العصريين وهي أثر عين ثالثة كانت على قمة رأس بعض الزحافات القديمة، ولا يزال حتى اليوم في نيوزيلندا ضرب من الزحافات يصح إعتباره «متحجراً حياً» له على قمة الرأس بناء لا شبهة في كونه عيناً ولكنها عين لا يستعملها للإبصار بها. فكيف نعلل إذن هذه الزحافة الحية؟ كيف نعلل وجود أثر عين داخل أدمغتنا وأدمغة غيرنا من ذوات الأثدية العصرية إلا بكوننا ورثناها عن أجدادنا الزحافات البائدة التي كان لها هذه العين الثالثة كما يتبيّن من جماجمها المتحجرة في الصخور بوجود تقعير في رأس الجمجمة ينم عن ذلك؟

يضيق المقام عن إيراد بقية الأدلة ولكننا نذكر منها بضعة أمثلة فقط، فأسلاف الإنسان المتحجرة كان لها 13 ضلعاً من كل جانب، أما الإنسان فله 12 ضلعاً. ولا يزال لبعض البشر العضلات التي كانت لازمة لتحريك آذان الحيوانات وهم يستعملونها أحياناً لإضحاك رفقائهم أو الأولاد فيحرّكون آذانهم حركات متوالية إلى الأمام والخلف. وفي

زاوية العين البشرية ثنية من جلد هي بقية جفن ثالث للزحافات القديمة وهو بناء لا يزال باقياً في أبناء عم لنا قديمين وهم الطيور. ولكثير من الناس في أعلى محار الأذن أو دائرتها نقطة حادّة تسمى نقطة دروين وهي أثر أذن الهرّ المحددة وآكلات الحشرات.

كان للحيتان القديمة قوائم

لا يوجد للحيتان والدلافين قوائم ظاهرة، ولكن يوجد تحت الجلد في لحم جوانبها آثار ضامرة لعظام الساق، وهذا ينم عن أصل هذه الحيوانات وهو أنها كانت حيوانات بريّة ذات قوائم، وقد تأكدنا ذلك من آثارها المتحجرة في الصخور.

أما البرهان الثالث على صحة مذهب التطور فهو مبني على أفعال الجسم البشري وكيفية عمله أي عوائد الجسم وآلاته الكيمية الطبيعية التي نشأت أولاً في غابر الدهور المنسية نظير بنيته التشريحية، ولنضرب مثلاً لذلك التغيرات الكيموية وغيرها التي تحدث في جسمنا دون شعور منا بها ودون إرادة متى تسلط علينا الغضب أو الخوف.

في جسمنا غدتان لا أقنية لهما يسميهما العلماء الغدتان أعلى الكليتين وهما قطعتا نسيج صغيرتان كل منهما بحجم نصف جوزة واقع أعلى الكلية، كما يستفاد من إسمها العربي. ومن جملة وظائف هاتين الغدتين وظيفة إعداد الجسم للقتال، فكلما شعرت بغضب أو خوف أي كلما شعرت أنك على وشك قتال أو هرب وردت هاتين الغدتين رسالة عصبية معجلة وعند ذلك تطلق هاتان الغدتان إلى الدم حالاً وسريعاً مادة كيموية تصنعانها في معملهما.

أشغال الغدتين أعلى الكليتين

لهذه المادة الكيموية تأثير شديد جداً في الجسم خصوصاً الدم والقلب، فهي تعجل سرعة الدورة الدموية وتغير حجم بعض الأوعية الدموية حتى يجري دم أقل إلى الأعضاء الباطنة التي لا حاجة لك إليها أثناء القتال، ويجري دم أكثر إلى الدماغ والعضلات التي يجب عليها أن تجهد نفسها كثيراً وتعمل بدقة أكثر من ذي قبل، أما الأوعية الدموية الصغيرة

في الجلد وعلى سطح العضلات فإنها تضيق عما كانت عليه قبلاً وذلك منعاً لنزف دموي غزير متى أصيب الجسم بجرح.

تحصل هذه التغيرات من نفسها دون أن تشعر بها أو يكون لك تسلط عليها كما لو حصلت في آلة ميكانيكية تتحرك من نفسها، ومتى أطلقت المادة الكيموية المشار إليها إلى الدم عبأ جسمك قوته كلها عملاً بإشارة هاتين الغدتين.

في عداد التأثرات التي تصدر عن هذا التجنيد الكيموي في جسمك تأثر غريب جداً فإنه متى وجد في الدم شيء من تلك المادة الكيموية ولو حقنت إصطناعياً بواسطة حقنة تحت الجلد إنقبضت العضلات الدقيقة جداً التي تتصل من أحد طرفيها بالجلد ومن الطرف الآخر بخلايا الشعر فتنجذب هذه الخلايا إلى الأعلى وتنتصب وتكوّن تلك الحال الخشبية للجلد التي يسميها الأطباء «جلد الإوز» أما في فروة الرأس فإن الشعر ينتصب إنتصاباً تاماً وهو علامة مشهورة من علامات الخوف فيقول الواحد منا في مثل هذه المواقف «إقشعر بدني وإنتصب شعر رأسي».

لماذا يحدث ذلك يا ترى ؟ إن ظهور نتوءات على الجلد حتى يصير أشبه بجلد الإوز أو إنتصاب شعر فروة الرأس لا فائدة واضحة منهما بإعتبارهما سلاحاً للقتال.

كلا: لا فائدة منهما لنا «نحن» ولكننا لم نكن سابقاً كما نحن الآن، فقد كنا في قديم الزمان منذ بضعة ملايين من السنين كائنات حيّة أشبه بقطط صغيرة تتعرش الأشجار من غصن إلى آخر ومن شجرة إلى أخرى، وكان لهذه الكائنات فروات كثيفة وكانت إذا خافت نصبت هذه الفروة نحو الأعلى وجمعتها بعضها فوق بعض لتخويف العدو والظهور أمامه بمظهر مخيف كما تفعل القطط العصرية.

هذا سبب إقشعرار جسمنا بسبب هاتين الغدتين عندما نكون تحت تأثير الغضب أو الخوف، فقد تعلمت غدد أسلافنا تلك الكائنات الهريّة أن في عداد ما يجب عليها فعله عند الإستعداد للقتال أن تجعل الجلد يقشعر أي أن ترفعه، وغددنا لا تزال تفعل هذا الأمر عينه وكثير من الحيوانات العصرية وفي عدادها القطط «تنفش» شعرها على هذه الطريقة عينها لا بعمل إرادي بل بمادة كيموية تفرزها من الغدتين أعلى الكليتين إلى الدم وهي المادة الكيموية نفسها التي تفرزها غددنا وتطلقها إلى الدم.

علم الأمبرولوجيا أو الأجنّة يؤيد التطوّر

البرهان الرابع على صحة مذهب التطور البرهان المأخوذ من النشوء البشري أو من العلم الذي يسمى علم الأجنّة، فالجنين يمر منذ أول تكوّنه حتى ولادته على كل أطوار الحياة من النطفة الحيوية التي رأيناها في برك المياه بجانب البحار الأولى حتى الشكل البشري الكامل، فكل كائن بشري يبدأ حياته أولاً على شكل بيضة فردة ملقحة هي عبارة عن كرية فردة قطرها أصغر من جزء من مائة جزء من القيراط، ثم تنقسم هذه البيضة أو الكرية إلى قسمين، وهكذا على التوالي إلى أن يبلغ عددها ملايين الكريات التي يتألف منها جسم البالغ.

لا مشابهة على الإطلاق في بداءة الأمر بين هذه الكريات النامية والشكل البشري، بل يكون منظرها حينئذ أشبه بالكائنات الحية ذوات الكرية الواحدة التي نظن أنها كانت منشأ الحياة منذ نحو ألف مليون سنة بل أكثر.

أما متى أخذت هذه الكريات في التكاثر حتى يصير عددها في الجنين البشري النامي نحواً من مائة، يصبح منظر الجنين حينئذ أشبه بالكائنات الحيّة البحرية الدودية الشكل التي نظن أنها كانت من أجداد الجنس البشري، وبعد نمو الجنين بعد ذلك ببضعة أيام يصير منظره أشبه بسمكة صغيرة ثم يتطوّر أكثر فيصير أشبه بزحافة صغيرة، ثم يصير أشبه بعجل صغير أو خنزير، وهكذا على التوالي، فكل كائن بشري يمر قبل ولادته على الأطوار التي تذكرنا ذكرى واضحة بأسلافنا الحيوانيين سواء في الشكل الجسدي أو الهيكل العظمي أو الأعضاء الباطنة، كما قرأنا ذلك كله في متحجرات الأحياء في الصخور.

قلب الجنين يشابه قلب الأسماك

عندما تبتدئ في الظهور العلامة الأولى لتكوّن قلب الجنين، يكون هذا العضو حينئذ عبارة عن أنبوب مستقيم مفتوح الطرفين كما هي الحال الآن في قلب الرُميح وهو ضرب منحط من الكائنات البحرية دودي الشكل نشأت منه الأسماك، ثم يتطوّر القلب بعد ذلك ويصبح ذا غرفتين كقلب الأسماك ثم يصير بعد هذا ذا ثلاث غرف كقلب الزحافات،

ولا يصير ذا أربع غرف كما هي الحال الآن في الإنسان وسائر الحيوانات ذوات الثدي إلا قرب الولادة.

في طور من أطوار تاريخ الجنين البشري، يظهر فيه ميزابان على جانبي العنق واحد من كل جانب يمثلان زعانف الأسماك، وفي طور من أطواره الأخيرة له ذنب أشبه بذنب الهرّ أو السعدان، والحقيقة أنه لا يزال يوجد في الكائنات البشرية كلها عظام هذا الذنب مدفونة تحت عضلات الظهر، ويمكنك أن تراها في أي هيكل عظمي من الهياكل البشرية، بل يمكنك إن شئت أن ترى هذه العظام في جسمك أنت بواسطة صورة فوتوغرافية مأخوذة بأشعة أكس.

الكلية الأولى التي تظهر في الجنين الآخذ في النمو تكون في عنقه حيث لا تزال الكلية موجودة حتى الآن في الديدان، وبعد ذلك يتولى وظيفة هذه الكلية العنقية في الجنين بناء شبيه بكلية الضفادع والحيوانات الأمفيبية وهي التي وضعنا لها في العربية إسم المتراوحات ونعني بها الحيوانات التي تتراوح بين الماء واليابسة أي تارةً تعيش في ذاك وطوراً تعيش على هذه، ثم بعد ذلك بمدة تظهر الكلية الحقيقية وتزول الكليتان السابقتان المذكورتان.

تجري أجنة الحيوانات مجرى الأجنة البشرية في الدلالة على تاريخ أسلافها، فلفرخ الدجاج البالغ من العمر ستة أيام ضمن البيضة يد ذات خمس أصابع عوضاً عن الجناح كما كانت الحال في أجداده الزحافات. وللببغاء التي لم «تفقس» أسنان، كما كانت الحال في الطيور المتحجرة البائدة. ولصغار الأسماك العمياء التي تعيش في الكهوف المظلمة عينان دلالة على أنها متسلسلة من كائنات حيّة مبصرة. وقثاء المحار البحري، وهو حيوان نباتي الشكل يعيش في قاع البحر ويولد على شكل سمكة سباحة تستقر أخيراً في القاع وتنحط بنيتها كما كان يفعل نوع قثاء المحار البحري في الأزمنة الجيولوجية الغابرة.

كل ما يعرف من الحقائق عن نمو أجنة الحيوانات يطابق مذهب التطور مطابقة الأجنة البشرية له، ولا تنطبق هذه الحقائق على مذهب آخر قط وإلا فكيف يمكننا تعليل إستعمال الجنين البشري ثلاثة أنواع من الكلى على التعاقب تختلف الواحدة منها عن الأخرى إلا إذا إعتبرناها آثاراً من آثار الماضي الحي؟

أما البرهان الخامس على صحة مذهب التطوّر فهو برهان الإمتحان، فقد تمكن العلماء من إحداث التطوّر إصطناعياً.

إن خصوم مذهب التطوّر ينكرون أحياناً هذه الحقيقة ويدّعون أنه لم يتمكن أحد قط خلق نوع جديد من الكائنات الحية بطريقة عملية تحت نظر الإنسان، وهو إدّعاء لا صحة له، فإن مربيي النباتات والحيوانات قد خلقوا أنواعاً جديدة منها، كذلك العلماء في معاملهم العلمية.

براهين أخرى من النباتات

أليس التين الشوكي أو الصبير الخالي من الأشواك الذي أصبح الآن شهيراً نوعاً جديداً؟ أوليس التفاح الذي يؤكل نوعاً جديداً بالنسبة إلى التفاح البرّي؟ أوليس البقرة الحلوب الأهلية كذلك؟ أوليس ضروب الكلاب التي أنشأها الإنسان ولا عد لها أنواعاً جديدة؟ بل يكون كل حيوان داجن وكل نبات مزروع نوعاً جديداً بالنسبة إلى الأصل البرّي أو الوحشي. ولقد أخرج الإنسان من التفاح الهندي البرّي المسمى «تفاحة الحب» إثني عشر متبايناً من الطماطم كان يعتبر أكثرها أجناساً مستقلة لو وجدت في حال بريّة.

ومن البديهي أن هذا البرهان الخامس لا يبرهن تطور الإنسان لأن الإنسان لم يصنع إصطناعياً ولكنه يبرهن صحة مذهب التطور من وجهة إجمالية، بينا البراهين الأربعة الأخرى تدل على أن الإنسان جزء من الكائنات الحيوانية فإذا جاز إطلاق التطور على الحيوان جاز إطلاقه أيضاً على الإنسان. ووجود ضروب شتى من البشر الأحياء دليل على أن الإنسان نفسه أخذ في التغير والتشعب حتى في ماضيه الحديث العهد، والإنسان رغماً من كونه قد أنشأ حيوانات داجنة شتى ليس إلا حيوان داجن، ولقد تغيّر الإنسان بالدجون كما تغيرت البقر والكلاب والخيل.

هل كان يغطي الشعر جسم الإنسان كلّه؟

تأمّل مثلاً تأثير اللباس في شعر الجسم، فجسم السعدان كله مغطى بشعر والمعقول أن جسم الإنسان الأول كان أولاً كذلك وكان الشعر واقياً من البرد والمطر، أما البشر

العصريون فقد خسروا أكثر شعور أجسامهم وقد زال الشعر الذي كان يغطي ظهورهم وأكتافهم وبطونهم زوالاً تاماً، وهي الأجزاء التي كانت تقيها أنواع الأثواب الأولى أكثر من غيرها منذ بداءة الأمر، وهي الجلود الحيوانية التي كانت تلقى على الكتفين وتربط من الأمام، أما أجزاء الجسم التي ظلت عرضة لتأثيرات الجو كالصدر والساقين والذراعين وأعلى الرأس، فهي الأجزاء التي يزال عليها بعض الشعر.

ولكن الشعر آخذ في الزوال من هذه أيضاً كلما تعوّد الإنسان لبس أثواب أكثر وأسمك، ويذهب بعضهم أن الصلع ضرب من التطور جارٍ أمام أعيننا بسبب وضع قبعات على رؤوسنا، فكل أصلع يقاوم مذهب التطوّر يفعل ذلك ضد شهادة رأسه هو.

فما تقدم خلاصة البراهين على مذهب التطور وهي:

أولاً: البراهين المأخوذة من الأحياء المتحجرة في الصخور.

ثانياً: براهين الأعضاء الأثرية كالزائدة الدودية.

ثالثاً: البراهين المأخوذة من عادات الجسم القديمة كفعل المحفظتين أعلى الكلية في نصب شعر الجسم.

رابعاً: البراهين المأخوذة من إرتقاء الطفل قبل الولادة.

خامساً: البراهين المأخوذة من خلق الإنسان أنواعاً جديدة من النبات والحيوان.

إذا بقي بعد إيراد هذه البراهين من يقاوم مذهب التطّور وجب أن نردّه إلى كتاب الطبيعة نفسها ليشاهد هذه الحقائق بعينيه ويلمسها بيديه لأن تناول هذه الحقائق من القلم لا يؤثر كتناولها من الطبيعة نفسها فما راء كمن سمع.

يجب على أمثال هؤلاء أن يبصروا الحقائق بأعينهم ويلمسوها بأيديهم دون وسيط بينهم والطبيعة، فيجب على الكافرين بالتطوّر أن يأخذوا الآثار الحيوية الأولى المتحجرة ويفحصوها بمكروسكوب أو مجهر ليروا بأعينهم الكائنات الحيوية الأولى ذوات الكرية الواحدة ويتدرجوا في فحص هذه النموذجات التي يوجد منها القدر الكافي في كل معرض طبيعي حتى يروا التطوّر بأعينهم، ويجب عليهم أن يدرسوا بناء الجسم البشري في

التشريح أو على الأقل في النموذجات الإصطناعية التي تمثل الأنسجة التشريحية تمثيلاً طبيعياً ويقابلوها بما يماثلها من الأبنية الحيوانية، ويجب عليهم أن يدرسوا الأطوار التدريجية التي يمر عليها الجنين أثناء نمّوه وهو ما يمكنهم فعله في كل معرض من المعارض الطبيّة التي تحفظ فيها الأجنة في السائل الكحولي في كل طور من أطوار تطورها، ويجب عليهم بعد كل ذلك أن يجروا إمتحانات على النباتات والحيوانات الحيّة ليروا كيف يمكنهم تطويرها بالإنتخاب وتكييف النسل، فمتى فعلوا ذلك كله يكفي أن نكل الحكم إلى عقولهم هم.

موصليني رئيس الوزارة الإيطالية

تظهر الجرائد الإنكليزية اهتماماً كبيراً بشخصية السينيور موصليني رئيس وزارة إيطاليا الموجود حالياً في لندن، وهي تقول عنه إنه رجل غامض وتحسبه الكمية المجهولة في العملية الرياضية للحلفاء.

والحقيقة أن موصليني قد أظهر آراءه صريحاً فيما يختص بالسياسة الخارجية، وهي أن يعطي ويأخذ عملاً بقاعدة النفع المتبادل لا بطريقة الاستسلام لفرنسا وبريطانيا كما فعل سلفاؤه. وهو رجل جريء إلى حد المجازفة، ولما تكلم للمرة الأولى في مجلس الأمة تكلم بطريقة غير مألوفة قط في مجلس من مجالس العالم لا نذكر أن أحداً أتى مثلها إلا كرومول الإنكليزي الشهير بطل الثورة الإنكليزية. ومما قاله بهذا الصدد ما يأتي، ويريد بأصحاب القمصان السود حزبه:

«إني ههنا للمدافعة عن أصحاب القمصان السود ومبادئ ثورتهم، فإن لدي نحواً من ثلاثماية ألف رجل مسلح على أتم الأهبة لكل طارئ. ولو كنت راغباً في طرد أعداء الفاسيستا لأطلقت هؤلاء الرجال على هذه القاعة ونظفتها من خصوم حزبي، ولكني غير راغب في ذلك».

ولما دخل المجلس وقف الأعضاء كلهم محيين رئيسهم الجديد وهاتفين له، خلا خصومه حزب الشمال الذي ظل جالساً في كراسيه يتأمل هذا المشهد بسكون يمازجه الأسف. ولما وقف ليلقي خطابه، وقف متكلماً كأنه قائد منتصر لا رئيس حكومة ملكية. وقد وقع كلامه وافتتاح خطابه موقع الدهشة والاستغراب عند جمهور الحاضرين، فقد قال لهم:

«إني أعترف لكم بأنني آتي في هذا الموقف عملاً غريباً لم يسبقني إليه رئيس من رؤساء الوزارات قط، فقد أصدرت إيطاليا حكمها ومنحت أهلها حكومة تعلو سلطتها سلطة المجلس. وإني أتكلم بالقوة التي تخولنيها قوة الثورة، وإنني هنا للمدافعة عن مبادئ هذه الثورة التي غيرت وجه البلاد».

يده اليسرى على منضدة بجانبه، وقبل الشروع في الكلام وجه بصره الحديدي نحو الحضور كأنه يتأملهم واحداً واحداً، وقال أحد الصحافيين الموجودين إنه كان منظراً غريباً لم يشهد له نظيراً، ولكنه أتى في عرض كلامه على تصريحات دلت على ما يختلج في صدره من الحرية. فقد قال إنه سيحكم بالقسط للجميع غير فارق بين غني أو فقير وبين صاحب رأسمال أو عامل، بل إنه سيستعمل قوته ضد من تسول له نفسه من رجال حزبه هو للاعتداء على قوانين البلاد وشرائعها. ومما قاله يهدد به نواب الأمة ما يأتي:

«إن في إمكاني حل هذا المجلس أية ساعة شئت، فعندي من القوة المسلحة ما يخولني ذلك كله وأكثر منه. ولا تتوهموا أن وزارتي قصيرة الأجل، فهي نتيجة إرادة الشعب التي لا ترد وإني لست من الذين يحولون بكلامهم بل ينفذونه عند الاقتضاء حرفاً حرفاً، فإن تابعتموني في سياستي ظللتم في مراكزكم وإلا لأخرجتكم بقوة السلاح».

أجل، لم يكلم أحد نواب أمة بمثل ما كلمهم به موصليني إلا كرمويل يوم دخل مجلس الأمة بثوبه العسكري وقال لهم:

«إن الله يطردكم من مناصبكم فاخرجوا من هذه القاعة دون إبطاء».

وقد شعر اللورد كرزون والمسيو بوانكاره بدهشة من لهجة موصليني العنيفة في مؤتمر لوزان، وعندما بلغا تلك المدينة كان هو بإشعارهما لأنه بلغها قبلهما. ولم يقبل هو أن يكون ضيفهما، بل ألح عليهما أن يكونا هما ضيفيه فاضطرا إلى الإذعان وذهبا معه إلى النزل الذي كان نازلاً فيه. ولقد صرح لهما أثناء المؤتمر أنه لن يسير على الخطة التي سار عليها سلفاؤه في الوزارة لأنه يريد أن تكون إيطاليا مساوية لفرنسا وبريطانيا مساواة تامة.

العيد المئوي لمولد باستور

ولد العلاّمة باستور الشهير في السابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة 1822 وسط عائلة فقيرة من طبقة العمال، فيكون قد مر الآن على ولادته مائة سنة.

باستور من أعظم المحسنين إلى البشرية إن لم يكن أعظمهم كلهم، ولقد أحرز مركزاً علمياً سامياً وهو لم يزل في ريعان الشباب وأحرز صيتاً ذائعاً بالمناقشة التي دارت حينئذٍ بين كبار رجال العلم حول «التولد الذاتي» الذي كان يقول به فريق من مشاهير العلماء. والمراد من التولد الذاتي أن النباتات أو الحيوانات المجهرية، أي التي لا ترى إلا بالميكروسكوب أو النظارة المكبرة، يمكن أن تتولد من تلقاء نفسها في السوائل. وكانت الغلبة في ذلك الحين لأصحاب هذا المذهب بدليل أننا إذا أخذنا سائلاً وأغليناه فقتلنا كل الأحياء المجهرية الكائنة فيه، ثم عدنا إلى فحصه بالمجهر بعد بضعة أيام، وجدناه مملوءاً كائنات حية جديدة لم تكن فيه قبلاً.

دخل معمعة هذه المناقشة حينئذٍ الشاب باستور وأنكر ورصفاؤه على أولئك العلماء استنتاجهم. وقال إن الكائنات الحية المذكورة لم تتولد في السائل من تلقاء نفسها، بل إنما هي نتيجة بذور كائنة في الهواء، فإذا تطرقت إلى السائل نمت فيه. فهي الجراثيم التي تكونت منها الكائنات الحية، لا أن هذه الكائنات تولدت من نفسها في السائل. فقامت عليه قيامة أخصامه ودحضوا قوله بتجارب عديدة منها أننا إذا أغلينا سائلاً ثم سددناه سداً هرمسياً أي بإذابة الطرف المفتوح للأنبوب الزجاجي حتى ينسد تماماً ولا يدخله هواء قط، ثم فحصناه بعد ذلك بأيام وجدنا فيه كائنات حية. ثم انهالوا بالتقريع على باستور قائلين إنه ليس إلا كيماوياً ولا دخل له في هذه الأبحاث الراقية. فتفرّغ للنزال وقام هذا «الكيماوي» بامتحانات لم تكن تخطر للعلماء في بال، وأوضح أن من الجراثيم ما لا تقتله حرارة الغليان ولا أقوى الحوامض المعدنية المركزة، بل إن منها ما لا يموت إلا إذا عرضته على النار رأساً. وبعد سجالات حامية ومناقشات عنيفة حادة قلّما رأى لها العالم نظيراً،

انتصر باستور ورصفاؤه وتقرّرت الآن النظرية العلمية القائلة «كل حي من حي» وأنه لا يمكن قط إيجاد حي من لا حي.

اكتشف باستور أن الاختبار ليس إلا عملاً كيماوياً ناشئاً عن وجود كائنات حية أو مواد بكتيرية أو مكروبات في سائل من السوائل، وأن فساد الخمر وتحوله إلى خل يعود إلى كائنات حية وعملها الكيماوي. فوجه همته إلى وقاية الخمور من الفساد ووفر حينئذٍ على الشعب الفرنسوي خسارة مئات من ملايين الفرنكات لأن الخمور من أعظم موارد الثروة الفرنسية.

ثم انتقل إلى البحث في البثرة الخبيثة التي تصيب المواشي عامة، وعمل على ملافاة هذا الوباء الجارف. كما أنه وجه همته إلى اكتشاف المرض الذي يصيب دود الحرير، وكان سبباً لإمحال المواسم في فرنسا وسواها، فابتكر طريقة جديدة للتبذير يؤمن بها تطرق هذا المرض إلى الدود وانتقاء بذور صحيحة من ديدان صحيحة. وفي سوريا يجري كثيرون على طريقة باستور، وهي الطريقة الأكيدة للحصول على موسم جيد.

بحث أيضاً في الكَلَب واخترع طريقة جديدة أكيدة لشفاء هذه العلة التي كان يحكم سابقاً على صاحبها بالموت. وإلى باستور يعود الفضل الأول في طريقة المداواة بالمصل التي كانت من أعظم البركات، وبواسطتها يمكن شفاء الدفثيريا أو الخانوق الذي يعتري الأطفال، ولم يكن يسلم منه طفل مصاب به إلا كل طويل العمر. أما الآن، فالموت من الدفثيريا أمر نادر جداً، والموت يحدث بسبب الإبطاء في استعمال العلاج أي الحقن بالمصل بعد فوات الفرصة.

لا يمكننا أن نأتي على ذكر البركات التي أسبغها باستور على الجنس البشري بشيء من التفصيل، لأن ذلك يقتضي له مقالات بل مجلدات. وإنما ذكرنا شذرات قليلة من أعماله الباهرة ذكرى لمرور مائة سنة على عيد مولده. فليرقد في قبره بسلام!

وفاة الملك قسطنطين

توفي الملك قسطنطين[38] في بالامور على ما ألمعنا إلى ذلك في عدد سابق، وهكذا انقضت حياة هذا الملك التعيس التي كانت مؤخراً سلسلة من البلايا والنكبات.

لعب الملك قسطنطين دوراً كبيراً سلبياً أثناء الحرب بمنعه بلاده من الانخراط في غمارها أوائل أمرها، ولكنه كان وقتئذ آلة في يد زوجته شقيقة الإمبراطور غليوم التي كانت صاحبة الأمر والنهي في البلاط والدولة معاً إلى حد أنها تهددته بالانفصال عنه إذا هو أذعن إلى نصائح خصومها ووقف في جانب الحلفاء.

بيد أن الداهية فنزيلوس فاز أخيراً عليه وقبض على أعنة الأحكام وجرى على سياسة الحلفاء، واضطر الملك قسطنطين إلى التنازل عن العرش لولي عهده السيئ الطالع الذي توفي بعد ذلك على أثر عضة قرد له هجم عليه أثناء تنزهه في حديقة القصر. فعادت إلى الملك قسطنطين مطامع العرش وعاد حزبه إلى دس الدسائس لإعادته إلى أثينا وإجلاسه على سرير الدولة مرة أخرى، فتم له ما أراد ورجع إلى عاصمة بلاده وسط حماسة شديدة قلما رأت لها اليونان مثيلاً.

لا نظن أن رجلاً خدم بلاد اليونان في التاريخ العصري كما خدمها فنزيلوس. ففي خلال سنين معدودات، أي منذ الحرب البلقانية حتى أواخر الحرب العمومية، ضاعف أملاكها

---

38 [قسطنطين الأول (1868-1923) ملك اليونان ما بين 1913 و1917 ثم ما بين 1920 و1922. كان القائد العام للقوات المسلحة اليونانية خلال الحرب اليونانية – التركية عام 1897 وأيضاً خلال حروب البلقان 1912-1913 التي كانت نتيجتها مضاعفة مساحة اليونان وزيادة عدد سكانها بعد ان احتلت الجيوش اليونانية منطقة سالونيكي. أدى خلافه السياسي العميق خلال الحرب العالمية الأولى مع رئيس الوزراء قائد حركة التحرير الوطنية اليونانية أليفسيريوس فينيزولس إلى دفع هذا الأخير للإستقالة مرتين. اضطر قسطنطين سنة 1917 إلى التنازل عن العرش لابنه الثاني ألكسندر بعد أن تلقت أثينا تهديداً بالقصف من قبل دول المحور. بعد وفاة ابنه وانتخابات سنة 1920 عاد قسطنطين ملكاً على اليونان، وترك العرش لابنه جورج الثاني سنة 1922 بعد هزيمة اليونان في الحرب مع تركيا، وتوفي في المنفى في جزيرة صقلية بعد أربعة أشهر من تخليه عن العرش].

وكاد يجعلها في مصاف الدول الكبرى. ولقد سلك في كل ذلك مسلكاً حكيماً رشيداً جعله في عداد كبار ساسة أوروبا، وشهد له بالحنكة السياسية كبار وزراء الحلفاء، وكانوا في كثير من الأحيان يعولون على رأيه. وكان سقوطه فجائياً، ولم يعلم الأثينيون حينئذٍ أنهم بإسقاطه كانوا يخربون بلادهم بأيديهم.

خرب قسطنطين في بضعة أشهر كل ما بناه فنزيلوس في سنين، وكانت الأناضول الصخرة التي تحطم عليها تاجه. والنكبة التي أصابت اليونان في آسيا الصغرى لا مثيل لها في التاريخ الحديث، فبينما كان الجيش اليوناني في أوج مجده ثملاً بخمرة النصر، إذ فوجيء فجر يوم بالقنابل التركية تنصب عليه من كل ناحية، ففتكت فيه فتكاً ذريعاً. وفي اليوم التالي تمت الحركة الالتفافية حوله وضربوا حوله نطاقاً من النار والسيف، وفي اليوم الثالث هجم الأتراك عليه بالحراب، فكان صراع عظيم ومجزرة هائلة دامت ساعتين ونصف، فتمت بذلك خطة مصطفى كمال وهي أن يتقدم إلى العدو ويخنقه كما صرح بذلك في الخطاب الذي ألقاه في مجلس أنقره بعد إحرازه ذلك النصر الباهر.

كانت تلك الضربة قاضية على آمال اليونان لأنها لم تضطرهم إلى الجلاء عن آسيا الصغرى فقط، بل عن أزمير أيضاً التي كان قد رسخت فيها قدمهم. واضطروا فوق ذلك إلى الجلاء عن ثراقية أيضاً في أوربا، فتقلص ظل اليونان بعد ما كانت عليه من بسطة الملك واتساع الدولة.

كان من وراء ذلك شبوب ثورة في أثينا لأن النكبة التي حلت على البلاد أيقظت السكان من الثبات الذي كانوا فيه ونفخت روح التمرد في الجيش. ومن حسن حظ قسطنطين أنه تنازل عن العرش قبل أن استفحل أمر الثورة وغادر البلاد قبل أن سكر الثوار بشرب الدماء. ولولا ذلك لكان قد حكم عليه بالإعدام مع أعضاء وزارته السيئي الطالع الذين فصلنا خبر مقتلهم في حينه، ولم ينج أخوه الأمير أندره من القتل إلا بواسطة الغضب الذي أظهرته بريطانيا بعد مقتل الوزراء المشار إليهم والضجة الكبرى التي أحدثها مصرعهم في طول أوربا وعرضها، وهو لو تمكن من مغادرة أثينا بصحبة شقيقة الملك قسطنطين لكان أنقذ نفسه من هول تلك المحاكمة التي ظل فيها أسابيع يعد أنفاسه بالدقائق. وكان البابا في جملة الذين سعوا لإنقاذه من الموت.

مرور خمسين سنة على وفاة كارل ماركس

احتفل العالم منذ أيام معدودات بمرور خمسين سنة على وفاة الاجتماعي الكبير كارل ماركس مؤسس الاشتراكية المنظمة وأبي الشيوعية الحالية التي اجتاحت روسيا بحذافيرها، وأوجدت فيها نظاماً اجتماعياً حربياً كان قبل حرب الأمم أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة. وهي تتهدد الآن أميركا الجنوبية، فتشنّجت بعض دولها لقوتها الهائلة كما لو أصيبت بزلزال!

أحرز هذا الرجل من الخلود ما لم ينل مثله فريق كبير من مشاهير العلم والفلسفة رغماً من أنه كان حيناً من الدهر شريداً طريداً يتضور جوعاً لا مأوى يأوي إليه ولا فراش ينام عليه ولا وسادة تسند رأسه، بل كثيراً ما كان يفترش الغبراء ويلتحف السماء يعضه الجوع وينتفض جسمه لزمهرير البرد، وهو يحتمل آلامه بصبر جميل وخلق نبيل عاصراً تلافيف دماغه لإخراج نظام جديد للبشرية يخرجها من مطابق الظلم والظلمة والشقاء إلى بحبوحة العدل والنور والرجاء.

ومن الغريب أن تعاليم هذا الشريد الطريد أصبحت الآن ديناً وإيماناً لملايين شتى من البشر يؤمنون بها إيمان أصحاب الأديان بأديانهم ويحافظون عليها محافظة الكهنة على قربانهم ويضحون في سبيلها كل ما عز وهان حتى أموالهم وراحتهم وحياتهم، وهم يفعلون ذلك غير هيابين ولا وجلين، بل يزعمون أنهم يقومون بتضحيات شريفة مقدسة في سبيل أغراض نبيلة مقدسة.

أعمل ماركس النظر طويلاً في شقاء الجنس البشري، فوجد أصحاب رؤوس الأموال إنما يعملون لأنفسهم دون سواهم وأن العمال المساكين إنما هم آلات صماء في أيدي سادتهم الأنانيين الذين يخزنون الأموال ويقفلون على الثروات ضمن صناديق من فولاذ دون أن تأخذهم رحمة أو شفقة على أبناء جنسهم الذين أخنى عليهم الدهر بكلكله وأنزلت بهم المحن والرزايا ضروب الشقاء والبلايا. فكأنّ الرجل كان نبياً جاء البشر والعالم بدين

جديد ونظام جديد اعتنقه الآن ملايين من البشر نظاماً جديداً وديناً جديداً يجودون في سبيله بالنفس والنفيس ويجودون عن طيب خاطر بأموالهم وراحتهم وحياتهم في سبيل تحقيقه.

رغماً من أن الآلات الميكانيكية لم تبلغ في زمن كارل ماركس جزءاً يسيراً مما بلغته في العصر الحالي، ورغماً من أن المواصلات لم تكن حينئذٍ شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى ما هي عليه الآن من السرعة والقوة الهائلة، فقد أدرك أن الإنتاج يزيد كثيراً عن الاستهلاك وأن عدد العاطلين يزداد يوماً عن يوم، ومتى بلغ شقاء العاملين ويأسهم حداً جاوز الاحتمال انقلب السحر على الساحر وجاءت الساعة التي تثور فيها العمال على رؤوس أصحاب المال. وهو يزعم أنه متى خاض الفريقان معمعان الحرب، فالنصر يعقد لواءه للعمال لأن هؤلاء يحاربون من أجل الحياة، أما أولئك فمن أجل الترف. ومن مبادئ ماركس أن أصحاب رؤوس الأموال دافعوا ويدافعون عن أموالهم بقطع النظر عن العدل والحق، بل يعتمدون على السيف والنار، فالاشتراكية لا تقوم لها قائمة إلا إذا قامت على السيف والنار.

وهو بهذا الرأي شبيه بنيتشه الذي جاء بعده بفلسفة القوة التي لا يجب أن تعرف عدلاً ولا رحمة. ومن مزاعم ماركس أن الثورة ابنة رأس المال، فهو يراها ضرورية لقلب الحكم الذي يستند إلى أصحاب رؤوس الأموال، وهو يغض النظر عن ديمقراطية الطبقة الوسطى.

في رأي ماركس أنه متى شبت الثورة وجب على الثوار السير فيها ببسالة وشجاعة وإيمان دون نظر إلى عوامل الشفقة والرحمة لأن أصحاب رؤوس الأموال جروا في هذه الطريق الوعرة بأمضى الأسلحة وأشدها فتكاً بالبشرية لأن قوام الحرب إنما هو القيام بالإرهاب والتنكيل وإتيان الأهوال، فلا محل في هذا الموقف الهائل للنظر في الديمقراطية وآراء الأكثرية التي تفضي إلى التشويش واضطراب الآراء لكثرتها وتضاربها. فهدف ماركس إنما هو رأس المال ولقد سعى إلى هدمه بكل طريقة مشروعة وغير مشروعة.

أتينا على آراء ماركس بصدد الاشتراكية لنوضح الخطة التي جرى عليها الشيوعيون في روسيا والطريقة الهائلة التي ساروا عليها في بدء ثورتهم والتي ما يزالون يستعملونها في ظروف خاصة غير اعتيادية عندما تدعو الضرورة إليها.

في أثناء الحرب العالمية مرّ رجلان بسيطان في برلين قاصدين إلى روسيا، لم يهما أحداً من البشر ولم يحسب لهما بشر حساباً، ولكن رجالاً من السلطة الألمانية رحبوا بهما وناصروهما بالمال وفتحوا لهما الطريق إلى البلاد الروسية فدخلوها دون أن يشعر أحد بهما. هذان الرجلان هما اللذان أحدثا في العالم حدثاً جديداً لم يُحدث مثله أحد قبلهما قط، فدخلا روسيا ونفساهما مشبعتان بآراء ماركس وتعاليم ماركس ودين ماركس - هما لينين وتروتزكي!

أحدث هذان الرجلان زلزالاً هائلاً في روسيا هدم الأبنية الضخمة والقصور الشاهقة، فأثارا الشعب على كيرنسكي الضئيل الرأي الضعيف العزم الذي لم يعرف حزماً، فقلباه عن منصة الأحكام وقبضا بأيد من فولاذ على أزمة الدولة، وأخرجا الأمراء والأغنياء والوجهاء من قصورهم وجعلوها نُزُلاً للأسر الروسية، ووزعا الأراضي الزراعية على الفلاحين وجعلا الأملاك ملكاً مشاعاً وأنشأا دولة جديدة غريبة سمياها الدولة البلشفية أو الشيوعية وأحياناً «الماركسية» نسبة إلى كارل ماركس. وهذا النظام الجديد قد امتد إلى بخارى وأرمينيا وبلدان أخرى، وأطلق على هذه كلها لقب الجمهوريات السوفياتية أو الشيوعية.

ومن آراء ماركس أن المبدأ الذي تقوم عليه رؤوس الأموال يسير إلى الغاية التي يطمح إليها، باسطاً نفوذه على ما حوله إلى أن يسقط من تلقاء نفسه في متناقضات شتى على حد ما أصاب غيره من المبادئ التي لم يكن في وسعها مطابقة نفسها لمحيطها وهو الشرط الأول للحياة. والذي عليه مشاهير الفلسفة والتطور والعمران أنه إذا لم يكن في وسع رأس المال القيام بهذه المطابقة في أسرع ما يمكن من الزمن، فإن النبؤات التي أنبأ بها ماركس تتحقق في نصف قرن على أبعد تقدير، فتشب في أصقاع أوربا وأميركا كلها ثورات اجتماعية هائلة تقلب تمدنها رأساً على عقب على حد ثورة روسيا الهائلة. بيد أن الكاتب يزعم أنه لا بد في كل ذلك من تطور الاشتراكية تطوراً جوهرياً حتى تصير نظاماً عاماً سعيداً للجنس البشري. والشيوعية في روسيا رغماً من تطورها بضعة عشر عاماً ليست هي النظام السعيد المنشود.

عمانوئيل وموسوليني

منذ قبض موسوليني على صولجان الأحكام في إيطاليا، أخذت الجرائد تمثل الملك فكتور عمانوئيل في حال يتملق معها موسوليني ويتزلف إليه، وتمثل على الضد منه موسوليني رجلاً جباراً مظهراً للملك روح الجبروت.

لم يحل بالملك عمانوئيل ما حل ببعض الملوك الآخرين من معاصريه، فهو لم يتخلص من أتعاب الملك وآلامه كما أنه لم يخسر تاجه وصولجانه. وكان الملك مضطراً لركوب مركب خشن والتزلف إلى موسوليني، ولولا ذلك لعرض عرشه للخطر. والصحفيون الأجانب الذين كانوا مقيمين في رومية ولهم اطلاع تام على دخائل الأمور يقولون إن الملك ربح أكثر مما خسر.

موسوليني عالي الرأس بيضاويه، أوسع من الجانب الواحد إلى الأنف أكثر مما هو من الأمام إلى الخلف، خفيف الشعر، مائل إلى الصلع، غليظ العنق، (؟؟؟) كثيف العضلات، عيناه الكبيرتان لا هما محدقتان تحديقاً شديداً ولا هما فاترتان فتوراً يدل على غيبوبة العقل، بل توهما الناظر إليهما أنهما تنظران دون أن تبصرا.

أمامنا رجل لا تبصر مواضع الضعف فيه إلا العين النقادة، ولا تدرك قوته إلا متى حمل عليك ونفذ إرادته. والحقيقة أن الملك ليس بالرجل الذي لا شأن له، كما أن موسوليني ليس بالرجل البديع التكوين، وليس من رجل يعرف دخائل الأمور في إيطاليا يعتقد بأنه حاول مساعدة الملك أو تقوية الملكية الإيطالية. ولكن مركز الملك بالرغم من ذلك كله أقوى الآن منه قبل قدوم الفاشستية. فلقد ظلت الاشتراكية والشيوعية خطراً عليه حتى سنة 1921، وإن لم تكونا بالخطر الكبير الذي يحاول الفاشستيون تمثّله للعالم. ولقد أمحى الآن الميل إلى الجمهورية حتى ميل الجمهوريين المعتدلين، وأصبحت الملكية في أمن من الخطر. ولقد أصدر منذ زمن مجلس الشيوخ بياناً يعلن فيه العالم أنه لا يمكن تصور إيطاليا دون أسرة سافوي، فلو فرضنا أن موسوليني نفسه صمم على إنزال الملك عن

العرش لوجد أمامه عملاً شاقاً جداً رغماً من أن وراءه الحزب الفاشستي كله، ولكنه لو حاول ذلك سنة 1922 لكان أيسر عليه.

اضطر موسوليني إلى إيجاد التغيير الذي أحدثه اضطراراً لم يدفعه إليه حبه لأسرة سافوي. فالفاشستية أوجدت نفسها لضرورة الحوادث. أما موسوليني نفسه فإنه رجل طمّاح إلى القوة، ينتهز الفرص السانحة أنّى كانت. ولقد غير موقفه المرة بعد المرة من أجل القوة. فلقد كان اشتراكياً يوم كانت الاشتراكية سلّماً بديعاً له عندما كانت درجاتها السفلى تؤدي إلى تحقيق المطامح. ولقد كان جمهورياً يوم كانت الجمهورية آلة هدّد بها الملك. ولقد أصبح ملكياً يوم أصبحت الملكية النتيجة المنطقية عندما انتصر وأمسى في حاجة إلى المحافظة على الحال الحاضرة. ولكن الملك نفسه رجل ينتهز الفرص أيضاً، وإذا كان في ذلك أقل طنطنة من موسوليني فهو أفعل منه. فقد وقف منذ البداءة موقف التساهل عندما رأى موسوليني قد انحاز إلى جانب اليمين بدلاً من انحيازه إلى الشمال وهو يسلك طريق الطموح إلى القوة، فكانت النتيجة أن الملك جنى ثمار هذا الطموح.

ولقد كان البابا بيوس وأمين أسراره الداهية الكردينال غسباري طموحين أيضاً ينتهزان الفرصة السانحة، فانتظرا ونالا المعاهدة واتفاق الصلح وأدركا كما أدرك الملك أن موسوليني أحوج إلى الكنيسة والتاج من الكنيسة والتاج إلى موسوليني. وكان على فكتور عمانوئيل أن يتألم صامتاً، وكانت نتيجة هذا الألم أن شعار الفاشستية أصبح شعار أسرة سافوي، وأمست الفاشستية حامية لأسرة سافوي لا عدوتها. وهذه الأسرة، بعد أن كانت منذ نحو قرن من الزمن لا تحكم إلا على بيدونت، أمست الآن الحاكمة على إيطاليا العظمى.

أظهر الملك مراراً أنه يدرك كل الإدراك واجبه نحو حياة الأمة، فأحرز لأسرته احتراماً وحباً غير عاديين في عصر يكره الملوك. ولما كان يدرك أن الشعب يغتفر للملوك والأمراء خطايا الإهمال أكثر مما يغتفر لهم خطايا الارتكاب، تراه بسيطاً طبيعياً خالياً من كل تكلف وادعاء مترفعاً عن المداخلات والجري وراء منافعه الشخصية، لطيفاً في أخلاقه وقد غرس هذه الفضائل في عائلته عموماً وولي عهده خصوصاً. وأذكر أنه لما زار روزفلت إيطاليا أعجب جداً بما رآه في ولي العهد من الأدب واللطف ودماثة الأخلاق، وهي صفات

لم ير مثلها إلى هذا الحد إلا في إنكلترا. ولما أظهر روزفلت لفكتور عمانوئيل إعجابه بولي العهد وأدبه الاجتماعي الباهر، أجابه الملك «لقد أعددته ليكون الرئيس الأول لجمهورية إيطاليا!».

في هذا الجواب سر بساطة الملك. وبتنحيه المداخلات السياسية الغير الدستورية والمظاهرات الفارغة وأبهة الملك، فهو يفقه روح العصر تماماً ويجري بموجبه وعائلته مثل ما يجب أن تكون عليه العائلة الإيطالية من الحشمة والبساطة والمحبة. أما ولي عهده المتقدم بيانه، فرغماً من دماثة أخلاقه، ترى روح الأرستقراطية وروح الجندية بارزين فيه. ولما كان الملك يميل بطبيعته إلى الجيش، فهو يحسن معاملته كل الإحسان. والراجح أن الجيش يحفظ له هذه الحسنة ويكون إلى جانبه إذا حدث نزاع بينه وبين الحاكم بأمره الذي يحاول استمالة الجيش بطرق مكشوفة لا تقع موقع الرضى لدى القواد والضباط الراقين.

يفقه فكتور عمانوئيل جيداً أن الخطر عليه، إذا لم يكن موسوليني موجوداً، أشد منه لو كان موسوليني موجوداً. فإذا نشبت ثورة في صفوف الفاشستية، جرف تيارها التاج أو على الأقل الحاكم الحالي.

تسلمت أسرة سافوي عرش إيطاليا لأن أميرين من أمرائها خاطرا بحياتهما في سبيل استقلال إيطاليا ووحدتها. وصار فكتور عمانوئيل الثاني ملك إيطاليا الأول بواسطة متابعة ذلك النضال وبواسطة دهاء وزيره الأول الكونت كافور. وقد تابع كثيرون من الإيطاليين مازيني في إظهار الأسف الشديد لصيرورة الأمة مملكة بدلاً من جمهورية. ولكن رغماً من ذلك كله، ظلت أسرة سافوي مدة جيلين عنواناً للوحدة الإيطالية وتحررها من الاستبداد الأجنبي.

خرج فكتور عمانوئيل من الدور الذي كان يلعبه ممثلاً فيه نفسه حليف الفاشستيين وضحيتهم معاً في وقت واحد، فظهر حينئذٍ بمظهر أجمل الصور التي تزين المعرض الفاشستي دون أن يخسر عطف جماهير العامة عليه. وبعد الحادثة التي حاول بها فريق اغتيال الملك، أظهر موسوليني إخلاصه للملك بمظاهرات ضخمة وسجن ألوفاً من المضادين للحزب الفاشستي.

في شهر أبريل منذ بضع سنين خرج الملك بعد أن قاسى كثيراً من الآلام إلى الصراحة، فوقف إلى يمين موسوليني أثناء افتتاح المجلس التشريعي الجديد وأعلن للعالم أنه يعتقد أن المنزلة السامية التي أحرزتها إيطاليا بين الأمم إنما هي عائدة إلى الحكم الفاشستي أثناء السنين السبع الماضية. ولا غرابة في هذا التصريح لأن ثمانية ملايين من الإيطاليين صوتوا قبل ذلك ببضعة أسابيع لبقاء النظام الفاشستي.

لنين تجاه التاريخ

إن من أضرم نار الثورة في روسيا وهدم أضخم إمبراطورية في العالم ليس كرينسكي وأنصاره ولا لنين وأعوانه، بل امرأة ألمانية كان من سوء حظ روسيا والعالم أن تكون قيصرة روسيا. امرأة واحدة خربت الإمبراطورية الروسية كلها وأهلكت نفسها والعائلة المالكة وألحقت الشقاء بمئات من ملايين البشر، لأن شقاء روسيا أفضى إلى شقاء أمم أخرى قريبة وبعيدة.

لا توجد في العالم أمور يحق لنا أن نسميها تافهة ـ أتفه الأمور كثيراً ما يُودي إلى أخطر العواقب وأعم النوائب. من كان يظن أن غرام الإمبراطور نقولا وهو ولي العهد بممثلة سيفضي إلى خراب مملكة؟ هكذا كان! رأى أبوه ووزراؤه وجوب زواجه، فدعت الإمبراطورة أميرة ألمانية إلى زيارة بطرسبرج ونزولها ضيفة على البلاط الإمبراطوري. فجاءت ولكنها لم تنل أولاً نعمة في عيني الإمبراطور والإمبراطورة، فعادت مشيعة باللطف. ولكنها أدركت بدهائها النسائي أن سهمها أخطأ الغرض، فعادت إلى بلادها وعاد ولي العهد إلى غرامه بالممثلة وغيرها. فرأت العائلة الإمبراطورية وجوب زواجه حالاً وسريعاً، والعجلة من الشيطان. وكما يتعلق الغريق بالخشبة الأولى التي تعرض له كذلك تعلقت العائلة الإمبراطورية بالأميرة الألمانية، فعادت إليها وعقدت خطبتها على ولي العهد وزفت إليه. في تلك الساعة أمضى القدر حكمه على أسرة رومانوف وإمبراطوريتها المترامية الأطراف.

بقي لإتمام هذا الخراب وجود راهب شرير يلعب بالإمبراطورية والبلاط الإمبراطوري كما يلعب الرجل بكرة القدم. والقدر الذي أتى بالأميرة الألمانية لخراب روسيا أتى أيضاً براهب شرير سفّاح سكّير، في منظره هيئة الوحش وفي عينيه شراسة النمر، قام بدعوة دينية مفادها وجوب ارتكاب الزنا لأن ذلك أضمن لغفران الخطايا كلها. فكان كل اجتماع ديني ينتهي بإطفاء الأنوار واختلاط الرجال والنساء اختلاطاً يذكرنا بعبادة الآلهة الزُهرة في هياكل الوثنيين القدماء. فصادف تبشير هذا الراهب بالدين الجديد هوى من قلب الإمبراطورة،

فاتخذته أباها ومرشدها تسند رأسها إلى كتفه ويقيم معها في البلاط الإمبراطوري ويدخل غرفتها الخاصة دون استئذان ويعلم بناتها أيضاً أصول الدين الجديد. وسيطر على كثيرات من السيدات الشريفات، وكان إذا تغيب عن القصر عائداً إلى المزرعة التي وُلد فيها في أقاصي روسيا تبعته كتب غرام الإمبراطورة. ولا يبلغ أحد حقيقة تلك الأسرار إلا إذا وقف على كتب الكاتب الإنكليزي الشهير وليم لاكي وهو أخصائي في الشؤون الروسية، فيقف حينئذٍ منذهلاً مندهشاً.

هذا هو الراهب رسبوتين الذي سيطر على قلب الإمبراطورة، وبالتالي على الإمبراطور نفسه، وأصبح الحاكم المطلق لا يُرد له نهي ولا أمر. وكان أثناء حرب الأمم لعنة على روسيا وعدوها الألد وجاسوس ألمانيا الأكبر ناشراً الأوبئة في روسيا بواسطة جراثيم مرضية دسها في الفاكهة بعثت بها إليه ألمانيا، مفسداً الخطط الحربية الباهرة التي قام بها الغراندوق نقولا قائد الجيش العام، مثيراً على هذا القائد غضب الإمبراطور حتى أقاله وبعثه أخيراً إلى القوقاس محبطاً إجراءات بروزيلوف الحربية التي قلّ مثيلها، عاملاً على قتله بالدسائس، ولم ينجُ منه إلا بأعجوبة، قابضاً على أعنّة أحكام الدولة بيد خشنة حديدية عابثاً بالقوانين مستبيحاً للأعراض دكتاتوراً حاكماً بأمره.

والإمبراطور؟ مسكين الإمبراطور. رجل لطيف الأخلاق، دمث الصفات، محب لشعبه، راغباً في سعادته. ولكنه كان واهن العزم، ضعيف الإرادة، مستسلماً إلى الإمبراطورة ورسبوتين جاهلاً عواقب الأمور، فاعلاً ما تطلب الإمبراطورة منه فعله دون أن يعرف الأسباب والنتائج. إذا كان في طول التاريخ وعرضه رجل يشابه لويس السادس عشر، فذلك الرجل إنما هو إمبراطور روسيا السابق التعس الحظ الذي انتهت حياته وحياة عائلته وأسرته الإمبراطورية كلها بمأساة لم يرَ لها العالم نظيراً. فقد قتل هو وامرأته وابنه وبناته أشنع قتلة، وتفرق أعضاء الأسرة الإمبراطورية في طول العالم وعرضه يلتمسون رزقهم بالعمل والخدمة.

تلك كانت الظروف الغريبة التي ظهر فيها كرينسكي على مسرح السياسة. رجل كان في وسعه أن يكون أعظم من لنين وأقدر منه كثيراً على تسيير مركب روسيا في ذلك

البحر العجاج المتلاطم الأمواج إلى الميناء الأمين، لأن في دماغه جرثومة النظام المعقول وآراء الحرية المعتدلة ومعرفة تامة بحالة الشعب الروسي النفسية. ولكنه كان أيضاً ضعيف الإرادة غير حزوم غير جازم بالأعمال في وقت الشدة وساعة الأزمة. وهو لو كان في إمكانه الارتفاع فوق تلك الموجة والقبض على أعنة الأحكام لكانت نكبة روسيا أخف كثيراً لأنه كان وسطاً بين الإمبراطور المستبد ولنين الذي أصبح بعد ذلك أشد استبداداً من الإمبراطور.

الجرأة في الثورات كل شيء، ولو تابع كرينسكي الجرأة التي أعجب بها العالم يوم استدعى الإمبراطور من ساحة الحرب إلى بتروغراد وحمله على التنازل دون أن تُسفك قطرة دم لكان الآن هو القابض على مقدّرات روسيا ولكان أنقذها من المصائب التي ضربتها بها البلشيفية.

وسط هذا الأوقيانوس الهائل، قبض لنين وأنصاره على دفة الأحكام. فئة ضئيلة جداً بالنسبة إلى مجموع الشعب قبضت على مقدّرات مائة وعشرين مليوناً من النفوس على الأقل، وقد أتيح لها ذلك بالجرأة والسرعة والتنظيم السابق. وكان قد مرّ لنين ورفقاؤه قبل ذلك بألمانيا مزوّدين بأموال وتعاليم ألمانية لنشر المبادئ الاشتراكية في روسيا وهدم العرش الإمبراطوري، فكانت ألمانيا بذلك كالساعي إلى حتفه بظلفه لأن روح التمرد التي تفشت في روسيا امتدت كالمغنطيس بالمجاورة إلى ألمانيا، وروح الجماعات التي قال عنها غوستاف لوبون إنها تمتد بالعدوى ظهرت في ألمانيا بأجلى بيان، لأن الضربة الأخيرة التي قصمت ظهر ألمانيا وضعضعت قواها كانت روح التمرد التي تبدّت في الجيش والبحرية، فالأسطول رفض الأوامر الصادرة إليه بالهجوم النهائي والجيش رفض متابعة السير على نظامه السابق، فحلت الفوضى محل ذلك النظام البديع الذي كان أسمى ما بلغه فن الحرب على وجه البسيطة.

قبض لنين على أعنة الأحكام وهو متشبع بتعاليم ماركس رسول الاشتراكية والاشتراكيين، متضلع من مبادئ الاشتراكية المتطرفة، فوضع السكين على المفصل وبتر! نزع ملكية الشعب كله وجعل الأملاك ملكاً خاصاً للحكومة مشاعاً بين الأمة ـ القصور والبيوت

والجنائن والأراضي والأموال كلها ملك الشعب الذي أمسى على الحقيقة لا يملك شيئاً ـ أمراء وأغنياء استيقظوا في الصباح ليروا أنفسهم غرباء في منازلهم وفقراء في ثروتهم!

الله وحده يعلم كم نزف من دم روسيا بعد تلك العملية الجراحية الهائلة التي ترتقص لها الفرائص، فالنزف لا يزال جارياً، ولو لم يكن الجنس السلافي أقوى الأجسام البشرية كلها على احتمال النكبات بصبر غريب واستسلام عجيب لكانت روسيا كلها عبارة عن مجزرة تستحق أن «تتفرّج» عليها الآلهة من السماء! ولكن الجسم السلافي جسم عجيب واحتماله يفوق التصوّر، ومن أقوال نابليون الشهيرة بعد اجتياحه روسيا «لا يكفي أن تقتل الجندي الروسي، بل يجب أن تهزّه ليسقط إلى الأرض!»

شعب كبير كثير كأمواج الأوقيانوس الزاخرة تسعة وتسعون بالمائة منه فلاحون بسطاء لا تعرف شمالهم ما تفعل يمينهم، ينامون ليلتهم تحت سقف إمبراطورية لا مثيل لاستبدادها في الأجيال الحاضرة، يستيقظون صباحاً تحت سقف اشتراكية مطلقة يريد أصحابها أن تجري على أجسام البشر كما تجري على الحبر والورق! إن البلشفية الروسية أعظم تجربة اجتماعية على سطح هذا السيار الذي نسكنه، وقد تكون أعظم تجربة على سطوح السيارات الأخرى التي تسكنها أجناس عاقلة شريرة نظيرنا!

وكما يشعر بالحرية المطلقة الجميلة من كان مسجوناً كل أيام حياته في مطبق مظلم تحت الأرض عندما يرى نفسه على جبل أفرست أعلى قمم جبال حملايا، وهي أعلى جبال العالم، كذلك شعر الفلاح الروسي باشتراكية لنين المطلقة . ولكنه لم يلبث طويلاً حتى بدأ يشعر بنتائج رفع الضغط الفجائي والصعود فجأة إلى قنن الجبال الشامخة، وهي ضيق نفس وطنين في الأذنين ودوار ونزف دموي من الأنف والأذنين وإغماء. وهي أعراض لم ينجع فيها طب البلشيفية، فاضطر لنين إلى إنزال فلاّحه بالتدريج من قنة الجبل إلى الحضيض، وبعد أن كانت البلشيفية عدوة رأس المال اضطرّت مؤخراً إلى الاعتراف به.

الإغراق في الاشتراكية ليس من حاجات الأمة الروسية الضرورية لحياتها، فروسيا بلاد زراعية شاسعة مترامية الأطراف لا تكفي فقط للقيام بحاجات أهلها، بل تكفي لتموين أوربا كلها. والبلاد التي تكون كذلك لا يموت فيها أحد من الجوع إلا نادراً، خلافاً

لكثير من البلدان الأوربية، خصوصاً إنكلترا وفرنسا. ففي لندن وباريس من الشقاء ما لا يتصوره عقل شرقي، فقد طالعنا منذ سنين كتاباً بهذا الصدد «للجنرال» بوث رئيس جيش الخلاص عنوانه «إنكلترا المظلمة» فيه من تعاسة الطبقة التي أصابها الفقر المدقع ما تنفطر له القلوب ولا يتصوره عقل بشر. ففي هذه العاصمة الموت جوعاً أمرٌ كثير الحدوث، وكذلك في باريس. أما في روسيا على وجه الإجمال، فالقمح كثير جداً وما كان يعوز الشعب إنما هو الحرية السياسية وحكمه نفسه لا أن يسيطر عليه إمبراطور مطلق يسوم عماله الأمة استبداداً وظلماً. فالأزمة إنما هي أزمة سياسية قد تبرر إعلان الجمهورية لا أزمة اقتصادية تبرر ضرب الاشتراكية المطلقة على البشر بالقوة القاهرة. أمّا أنّ الفلاحين سروا بها، فذلك من سرور الطفل بسكين حادة جميلة تُهدى إليه، ولكنه بعد قليل يرى أنه قد جرح بها نفسه جرحاً بالغاً.

نحن من القائلين بالاشتراكية، ولكننا من القائلين بالاشتراكية المعقولة الممكنة عملياً دون تقييد الحرية الشخصية، وهي تقوم بتأمين العمال على العمل، أي أنه لا يجوز أن يوجد في مملكة عمال بطالون لأنهم لا يقدرون أن يجدوا عملاً، وجعل العمل مساوياً لرأس المال أي مشاركة العمال أصحاب المعامل الربح بوضع ضرائب عالية على الدخل الكبير، وبوجوب تناول خزينة الدولة جزءاً كبيراً من ميراث الأغنياء عندما يموتون، فلا تمضي بضعة أجيال من البشر حتى تتسرب أموال الأغنياء إلى خزينة الدولة، بينما كثيرون آخرون قد أنشأوا ثروات جديدة تتسرب بدورها أيضاً إلى الخزينة. فبهذه الطريقة لا تقتل الاشتراكية روح المباراة التي هي روح النجاح ولا تتقيد حرية الأفراد الشخصية، بل يظل كل رجل سيد نفسه.

أما في روسيا، فالرجل لا يقدر الآن أن يلبس كما يريد ولا أن يأكل كما يريد، ولا أن يعمل كما يريد. فقد يُعهد إلى فيلسوف بتنظيف الشوارع والأزقة، وإلى فلاح جاهل بالجلوس في مجلس السوفيت. والبلاد التي يستيقظ أهلوها صباحاً للذهاب تحت الأمطار والثلوج والرياح والبرد الذي يكون أحياناً كثيراً تحت درجة الصفر ويضطرون إلى الانتظار ساعات طويلة تحت رحمة الطبيعة قبل أن يقدموا أوراق الإجازة بالحصول على طعام ذلك النهار

لا يمكن أن تجعلها اشتراكية لنين سعيدة، فضلاً عن أن التحكم في تعيين أنواع الأعمال يقتل الحماسة ويقضي على النبوغ. والدولة التي شعارها «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم» لا يمكنها أن تقوم بأعمال خطيرة في سبيل ترقية البشرية. قد تفتح مدارس كثيرة كما فعل لنين، وقد تنور الأذهان كثيراً، ولكنها لا تخرّج فلاسفة ومخترعين ومكتشفين ونوابغ إلا نادراً ولا يكون لها يد في ترقية الجنس البشري.

الاشتراكية العملية المطلقة ليست من اختراع لنين، بل إنما هو منفذ لآراء اشتراكيين متطرفين، وقد جربها قبل لنين بألف وتسعمائة سنة تلاميذ المسيح والرسل والمسيحيون الأولون، فكانوا يبيعون أملاكهم ويضعونها تحت أقدام الرسل، ولكن هذه الخطة لم تعش طويلاً. أما لنين، فقد نجح في تجربتها على ماية مليون نسمة زهاء خمس سنين، وهو ما لم يكن يحسبه أحد ممكناً، وهذا ما جعل لنين أبرز الرجال الذين أنجبتهم حرب الأمم من الوجهة الاجتماعية الاشتراكية.

الاشتراكية الحالية في روسيا ضُربت على الشعب بالقوة القاهرة، والمؤمنون بها قليلون جداً بالنسبة إلى مجموع السكان. ولكنهم يؤمنون بها إيماناً راسخاً، فهم يعتقدون أن الملك الخاص أصل شرور العالم. وقد لا يكونون مخطئين بذلك، ولكن الاشتراكية الشيوعية لم تجعل روسيا سعيدة، ولقد شلّت الحرية الشخصية وقضت على الحرية الفكرية، فأعدمت جيشاً جراراً من الصحافيين والكتّاب والمفكرين حتى كادت تفنيهم على بكرة أبيهم، وهو ما لم يفعل شيئاً منه نابليون في أوج مجده.

يزعم بعضهم أن لنين كان قدّيساً، ويقول أحد مطارنة البلشيفية إنه كان مسيحياً حاراً، ولا يبعد أن يرفع بعد قليل إلى مرتبة القديسين. ولكن إذا كان في علم الفراسة شيء من الصحة فوجه لنين وجه رجل صاحبه مفطور على ارتكاب الجرائم، بل يصح أن يؤخذ مثالاً لأوجه المجرمين. ولا غرابة أن تفني حكومته أصحاب العقول المفكرة، ويكون من وراء النظام الذي جرت عليه القضاء على العائلة الإمبراطورية بتلك الطريقة الوحشية التي تدل بأجلى بيان على درجة الفوضى الهائلة التي تبلغها حكومة اشتراكية بالغة منتهى التطرُّف بين شعب بالغ جمهوره منتهى الجهل.

لسنا من المعجبين بلنين، ولا بالطريقة الاشتراكية المتهورة التي أرغم الشعب الروسي على الرضوخ لها. ونحن على ثقة من أن التاريخ سيضعه في المستقبل في الموضع الذي يقضي به العدل، بعد سكون ثورة الخواطر والصحو من نشوة الانتصار الموقت لأننا على يقين من أن الحال في روسيا لا تدوم زمناً طويلاً كما اختطها لنين. ولا يجب أن يصرفنا الحاضر عن الماضي فننسى دروس التاريخ والثورة الفرنسية لا تزال على قدم عهدها ابنة الأمس، فلو مات روبسبير وهو في أوج مجده قبل أن عرّج في طريقه على القبر إلى الغليوتين لكان رفعه الشعب إلى المرتبة التي رفع إليها الشعب الروسي لنين بعد وفاته. فالشعب ألعوبة الصحافيين والخطباء والسياسيين، فقد يعبد اليوم رجلاً ثم يصلبه غداً.

لا منطق للثورات والجماعات أو أن منطقها غريب. فالثورة الإنكليزية التي قبض على أعنتها كرومويل بيدٍ من حديد، وأرسلت تشارلس الثاني ملك إنكلترا إلى النطع، كانت نتيجتها بعد وفاة كرومويل إجلاس ابن الملك تشارلس الثاني على عرش أبيه. وكانت عائلة كروموبل أولى العائلات التي تشرفت بزيارة البلاط الملكي وتقديم طاعتها واحترامها إلى الملك الجديد. أما الثورة الفرنسية فقد كانت نهايتها أغرب من تلك، فقد انتهت تلك العاصفة الدموية التاريخية التي كان الغرض منها إبادة الملكية بجلوس شاب نابغة حربي طمّاح يسمى نابليون بونابرت على عرش الدولة وتسميته «إمبراطوراً» على فرنسا.

الثورة الروسية الحالية وحكومتها الاشتراكية المتطرفة ليست الكلمة الأخيرة التي يلفظها الشعب الروسي بشأن مصيره، لأن الشعب لم يفعل شيئاً عن تفكير حتى الآن، ولم يلفظ حكماً بشأن حكومته. والحكم الحالي إنما هو من باب الضغط والإرهاب وعدوى الجماعات التي تسير بين البشر أثناء الثورات كما تسير الأوبئة أثناء تفشيها، فلو أتيح للغراندوق نقولا مثلاً أن يبقى قائد الجيش العام عند تنزيل القيصر وأن يهاجم الثوار ويسحقهم، لكان الشعب الروسي تألب حوله والإمبراطور لاعناً الثوار بكل شفة ولسان. فالجماعات أثناء ثورات العواطف لا منطق لها ولا قاعدة تجري بموجبها، لذلك لا يجوز لنا أن نعتبر ما هو الآن جارٍ في روسيا بمثابة حكم التاريخ، وهو أسمى وأعدل محاكم العالم منذ وجوده حتى الآن لا يصدر أحكاماً إلا بعد أن يضع الرجال في

بوتقته النارية ويرى كم يبقى منهم من الأفكار الذهبية بعد هذه العملية الكيموية.

بيد أنه يجب علينا بعد ذلك كله الاعتراف بأن لنين عمل عملاً عظيماً لا مثيل له في التاريخ، وقام بأعظم تجربة اجتماعية على الجنس البشري، قد تفضي بعد تعديلها وتحويرها إلى تغيير نظام العالم كله. وعندنا أن نجاح هذه العملية حتى الآن عائد إلى أمرين: أولهما الضغط الاستبدادي الهائل الذي كان على الشعب الروسي مضاعفاً مئات من المرار بويلات حرب الأمم، وثانيهما بسيكولوجية الشعب الروسي أو حالته النفسية التي لا مثيل لها في العالم كله، والتي تجعل كل شيء ممكناً في روسيا. فمثل هذا الشعب إذا قام فيه رجل نابغة ذو جاذبية شخصية قوي الإرادة ودعا الناس إلى الكفر وهدم الكنائس حملوا معاولهم وتبعوه بذات الإيمان والبساطة اللذين يسجدون بهما له ويعبدونه لو ادعى أنه المسيح جاء إلى الأرض ليحكم ألف سنة قبل انقضاء العالم على ما جاء في الإنجيل. لا ترى لمثل هذه البسيكولوجية نظيراً في العالم كله، لذلك ما كان محالاً في سائر أنحاء الأرض ممكن في روسيا.

بعث أحد مراسلي الجرائد الأميركية الشهيرة بمقالة إلى جريدته بعد حضوره دفن لنين يقول فيها إنه شعر في ذلك الموقف كأنه أمام ولادة دين جديد. وهو الحقيقة بعينها لأنها مظهر من مظاهر بسيكولوجية الشعب الروسي.

لا يمكن التاريخ أن يصدر حكماً جازماً بشأن لنين إلا بعد التأكد من نتيجتين: أولاهما، هل يمكن دوام اشتراكية لنين في روسيا على ما هي عليه الآن؟ وثانيتهما، هل تجعل هذه الاشتراكية الشعب الروسي سعيداً؟

تأثير ولسن في مستقبل العالم

مات ودرو ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأسبق، ولكن عمله العظيم الذي لا مثيل له في تاريخ العالم لم يمت ولا يموت ولن يموت!

ظهر أخيراً في أوائل القرن العشرين رجل يصح أن يسمى نبياً جديداً لإنقاذ العالم من المادية والسير به في سبيل حياة روحية، ومن مخالب القوي والجري به في طريق الحق، ومن براثن الفتح والعبودية وتسديد خطواته إلى متأهل العدل والحرية.

ظهر ولسن في إبان أعظم نكبة حدثت في تاريخ العالم، يوم فتحت جهنم أبوابها على مصاريعها وخرجت منها أبالستها حاملة زفتاً وكبريتاً وفصفوراً أضرمت بها العالم كله وألهبته كله على سطح الأرض وفي الجو وعلى سطح الماء حتى أحشاء البحر وقاعها، لأن فصفور جهنم كفصفور الأرض يلتهب في الماء.

في ذلك الزمان رقصت الشياطين على قبور الشهداء الذين سقطوا في ساحات الوغى معتقدين أنهم يموتون في سبيل الحق وحرية العالم.

وفي ذلك الزمان أيضاً قام أنبياء كذبة ينفخون بالأبواق ويعلنون للعالم بزوغ عصر جديد ضاربين على قيثاراتهم ومنشدين أناشيد السرور.

كذلك فعل نيرون يوم أضرم النار في رومية وجلس على رابية يشاهد هذا المشهد الجميل، ضارباً على قيثارته رافعاً صوته بالغناء.

وسط هذه الفظائع والويلات والمخرقات والشعوذات انبثق من العالم الجديد نور باهر يخطف الأبصار، تجلى على شكل كوكب وقف فوق ضريح واشنطون في الجبل الأبيض، هبط عليه الوحي وخرج منه صوت جهوري سمعته المسكونة كلها وأعلن للعالم عنصراً جديداً وديناً جديداً.

كان الأنبياء الكذبة الذين كانوا ينفخون بالأبواق ويضربون على القيثارات أول من أمّن

على هذا الدين الجديد وآمن به، ولكن إيمانهم كان مصحوباً بالخوف والاقشعرار عملاً بما ورد في الإنجيل من أن الشياطين يؤمنون ويقشعرون!

في مؤتمر فرساليا لقي هذا الدين الجديد الصدمة الأولى شأن كل دين جديد في كل مؤتمر جديد، وكان أول من انقلب عليه الأنبياء الكذبة الذين كانوا سابقاً يبشرون به نافخين بأبواقهم وضاربين على قيثاراتهم لأن الله قسىّ قلوبهم فلم يطلقوا الشعوب الصغيرة من عبوديتها.

هكذا قسى الله قلب فرعون يوم طلب منه موسى خروج الاسرائيليين من أرض العبودية. والضربات التي حلت على مصر ليست شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الضربات التي حلت على فرنسا. وإذا كان الله لم يضربها الضربة الأخيرة ويقتل أبكارها فذلك لأنها لم يبق لها أبكار.

عاد ولسن إلى أميركا حانقاً من فرسايل وفلسفة فرسايل، والحلفاء يزعمون أنه عاد بالفشل. ولكن الدين الجديد الذي أعلنه من على قبر واشنطون حمله الأثير إلى كل صقع من أصقاع المعمور وكهرب العالم عموماً والشرق خصوصاً. فالتشنجات التي تعمل الآن في جسم الشرق من أقصى الصين حتى شواطئ البحر المتوسط ومن البحر الأسود حتى البحر الأحمر ليست إلا مظهر من مظاهر التيار الكهربائي الذي أطلقه ولسن[39].

غرس ولسن في صدور الشعوب المستعبدة كلها فكرة حق تقرير المصير وحكم نفسها، فحييت ونمت وازهرت. وإذا كانت لم تنعقد حتى الساعة أزهارها كلها ثماراً فهي آخذة في الانعقاد بأسرع مما يزعم كثيرون من أرباب السياسة القديمة الرثة البالية. أما نحن فنزعم أنه لا تنقضي بضع سنين حتى يطرأ انقلاب كبير في الشرق كله، فما السكون الحالي فيه بعد الاضطرابات السابقة إلا السكون الذي يسبق الزلزال. ومتى استيقظ الشرق كله وثار على الظالمين المستعمرين الذين ساموه خسفاً وذلاً وعبودية، فالويل لمن يقف في طريقه! إنه ليقطّع الوثق التي أوثقوه بها كما يقطع الجبّار خيوطاً من عنكبوت ويقذف بأبالسة الاستعمار إلى الجحيم الذي خرجوا منه. الويل لمن يقف في طريقه، إنه سيول براكين هائلة تحرق بمعادنها المصهورة كل حي وتطمو على كل شيء. والأمم المستعمرة الحكيمة هي التي

39 [ألقى ولسن خطابه في 27 أيار سنة 1916 في واشنطن معلناً عن خططه السلمية وحق الشعوب في تقرير المصير، واعاد تكرار دعوته هذه في خطاب «السلام بدون نصر» الذي ألقاه في 22 كانون الثاني سنة 1917. لكن الأحداث أثبتت أن جميع مقترحاته وادعاءاته كانت بمثابة حبر على ورق].

ترزم أشياءها باكراً وتعود «بعفشها ونفشها» إلى أوطانها، أما التي تنتظر منها حتى ثوران البركان وتشرع حينئذ في جمع حلاها أصابها ما أصاب أمثالها من سكان بومباي عند ثوران يزوف لأن طبقات الحمم التي دفعها ذلك البركان إلى الجو أدركتهم وطمرت المدينة كلها، ولما جاء الرومان ليروا آثار بومباي لم يروا إلا سطحاً منبسطاً من الزفت!

ولسن الرجل الأميركي الوحيد من رؤساء الولايات المتحدة الذي يخص العالم كله، وهو الرئيس الوحيد الذي حاول أن يترجم بيانات حقوق الإنسان التي أصدرتها تلك الولايات قبل الثورة إلى أفعال باهرة يكون من ورائها تجديد العالم كله وإبطال العبودية التي تحقر الجنس البشري.

إن عمل ولسن المحاولة الأولى الجدية لتحرير العالم كله، ومواده الأربع عشرة الترياق الوحيد الذي يمكن انقاذ البشرية من القوة والعبودية والسير به إلى مناهل الحق ومراتع الحرية.

بيد أن العالم لم يعرفه كما لم يعرف أولاً كل نبي آخر، وهو الآن يدفع ثمن عدم هذه المعرفة شقاءً هائلاً وتعاسة لا مثيل لها في تاريخه. فمنذ أعرض عن الجري على مواد ولسن شب فيه ما يربي على ثلاثين حرباً، وهذا ما يسميه العالم سلام معاهدة فرسايل. وعادت الدول إلى خطة الاستعمار والتجنيد وارهاق الرعايا بالضرائب الفاحشة، وتفككت أعضاء الجسم الاجتماعي تفككاً هائلاً لأن الموازنة الاقتصادية اضمحلت فارتفعت أسعار الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً وازدادت ديون الدول ازدياداً قصم ظهرها وقلت ثقتها بعضها ببعض أكثر كثيراً مما كانت قبل الحرب، وأصبحت المعاهدات «قصاصات أوراق» بالمعنى الحرفي لا المجازي. فكل دولة تأخذ من معاهدة فرساليا ما يعجبها وتهمل ما لا تريده، والمؤتمر ينعقد إثر المؤتمر دون نتيجة. والدولتان اللتان خنقتا مبادئ ولسن وهي في المهد تحصدان الآن ما زرعتا، فحكومة عمال في بريطانيا لم تكن تخطر في بال أحد من الإنكليز حتى ولا في الحلم، وفرنسا بالجيش اللجب الذي أبقته تحت السلاح تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله. والتعاسة التي لا توصف مخيمة فوق أوربا كلها، والشعوب تسير من تعس إلى أتعس.

هذه طريق الخراب، ولكنها أيضاً طريق البناء. فالعالم القديم قد تزعزع حتى أساساته ويجب أن يتهدم أو يُهدم أولاً قبل تشييد عالم جديد على أساسات جديدة يكون فيه الحجر الذي رفضه البناؤون رأس الزاوية.

مات ولسن ولكن مبادئه لم تمت بل سوف تحيا كما حييت المسيحية بعد موت المسيح والإسلام بعد موت محمد، وسيعود إليها العالم كما يعود المريض إلى علاج طبيب قانوني بعد أن جرب علاجات كثيرين من الدجالين والمخرقين. فقد جرّب علاج كليمنصو ولويد جورج وملنر وغيرهم فلم يزدد إلا تعاسة وشقاء.

كان ولسن معقد آمال الشعوب الصغيرة كلها، أما فيما يختص بقضيتنا السورية فإنه كان المحور العظيم والأمل الوحيد. والرسالة البرقية التي طيرناها إليه أثناء انعقاد المؤتمر الديمقراطي الوطني في بونس أيرس بصفتنا رئيساً للمؤتمر المذكور تشف عن الإيمان العميق الذي كان لنا فيه وهو وقتئذ في مؤتمر فرساليا بباريس، ذلك المؤتمر السيىء الطالع الذي اتخذه كليمنصو ولويد جورج سلماً لأغراضهما وذريعة لتحويل الدماء المسفوكة في الحرب إلى غايات استعمارية يحمر لها وجه الحرية.

ذهب ولسن في سبيل كل حي، أما المبادئ السامية التي أعلنها للبشر فستظل ثابتة بينهم ثبوت الجبال الراسيات. فلقد نقش ولسن اسمه بأحرف بارزة جداً على صفحة التاريخ لأنه قام بالامتحان الأول في تاريخ البشر لتحويل العالم من مغارة وحوش ولصوص إلى سيارة أهل لسكنى خلائق عاقلة راقية. وإذا كان لم يتكلل هذا الامتحان حتى الآن بالنجاح التام فالفجر غير بعيد وهو ابن أشد ساعات الليل حلكاً.

لا يمكن العالم العود إلى ما كان عليه قبل الحرب، ولا بد لمبادئ ولسن من الانتصار على مبادئ الاستعمار. وسيكون الشرق الساحة العظمى للمعارك الدموية بين الحق والحرية والحرية والعبودية، وكما انبثقت منه الأديان العظمى التي غيرت وجه الأرض كذلك سوف ينبثق منه الدين الاجتماعي الجديد الذي سيغير تاريخ الإنسان.

صوت صارخ في البرية: أعدوا طريق الحرية، اجعلوا سبلها مستقيمة!

ولسن الرئيس الوحيد للولايات المتحدة الذي لا يخص شعبه بل يخص العالم كله، ولقد حاول أن يرفع بلاده من المحيط الضيق الذي وضعتها فيه السياسة إلى محيط فخم تكون فيه الولايات المتحدة ملاك العالم الحارس.

مكدونالد رئيس وزارة بريطانيا

بلغ أخيراً عامل اعتيادي رئاسة وزارة بريطانيا، وهو حادث لم يكن يخطر في بال أحد على الإطلاق.

يجب أن نفتش عن المرأة بين العروش والصوالج والوزارات، كما نفتش عنها بين الجرائم. فإن رمزي مكدونالد[40] رئيس وزارة بريطانيا الحالي مدين إلى امرأته بالمنصب الخطير الذي تسلّمه لأن حياته كانت أولاً حياة شقاء إلى أن تزوجها، وكانت من الطبقة الغنية الراقية الممتازة. ولكن غناها لم يكن الباعث الأكبر على إحراز مكدونالد رئاسة الوزارة، بل ما ساعده على ذلك إنما كان لطفها وتهذيبها ورقة أخلاقها وعلاقاتها في الهيئة الاجتماعية.

ماتت سنة 1911، ومما قاله زوجها حينئذٍ بشأنها «متى كنت أتحول إليها زمن الضيق والزوابع كنت كمن يلتجئ إلى ميناء أمين مياهه هادئة باسمة في وجه السماء».

اجتمعا المرة الأولى في ظروف غير عادية، وذلك أن مكدونالد عاد مرة إلى مكتبه وهو حينئذٍ فقير مجهول، فوجد هناك كتاباً من شخص مجهول مع تبرُّع بكمية كبيرة للغرض الذي كان يسعى إليه وإظهار الثقة بمبادئه والأمل بنجاحه. ومع أن الكتب الصادرة من أشخاص مجهولين لم تكن في ذلك الوقت قليلة، فإن التبرعات من أشخاص مجهولين كانت نادرة جداً. أما مكدونالد فإنه اعترف بوصول المبلغ وظل سائراً في حملته السياسية إلى أن جاء يوم الانتخاب فأصابه الفشل، وزاد الطين بلّة أن صحته انحطّت واضطر إلى الراحة.

ولكن رغماً من كل ذلك، جاءه كتاب آخر من الشخص المجهول نفسه واسمه مارغريت إيثيل غلادسطون، وهي آنسة كريمة أستاذ ممتاز وابنة شقيقة اللورد كلفن العلاّمة الطائر الصيت. لذلك كانت في الهيئة الاجتماعية أرقى كثيراً من مكدونالد الذي لم يكن إلا

---

40 [رمزي ماكدونالد (1866ـ1937) أول سياسي بريطاني من حزب العمال يتولى رئاسة الحكومة البريطانية سنة 1924].

عاملاً فقيراً، ولكنها كانت معه على رأي واحد في المبادئ والآراء، فاجتمعا. وما قُدّر كان، فقد عشق أحدهما الآخر عشقاً صامتاً إلى أن تأتي ظروف تقضي بالإباحة.

في سنة 1896 تزوجا واستأجرا منزلاً لهما في لنكولنس أن فيلدس من لندن. ومن تلك الساعة زال شقاء مكدونالد وجهاده في سبيل محاربة الفقر لأن مرغريت وضعت تحت أمره كل ثروتها وشجعته في عمله وأنقذته من الهم ولطفت آلامه ببشاشتها ولطفها، فتقاطر كثيرون إلى منزلهما أما هما ففتحا بيتهما للغني والفقير على السواء ورحَّبا بالجميع.

إلى هنالك تقاطر كثيرون من الشبان الذين كانوا يرغبون في إصلاح العالم، ومنهم اشتراكيون من هولندا ومن الجزر البريطانية نفسها وعلماء شهيرون من إيطاليا وروسيون غائرو العيون صرفوا عشرين سنة في منافي سيبيريا في سبيل الحرية. وكانوا يجتمعون في غرفتين مبطنتين بالكتب من السقف حتى الأرض ويبحثون في كل موضوع تحت الشمس. ومما قاله حينئذٍ مكدونالد بشأن تلك الأيام إنه كان هنالك «شيءٌ آخذ في الامتداد تحت سطح الهيئة الاجتماعية في بلدان العالم كلها. شيءٌ قوي جداً يجب في مكتبة غلدهزل. وكان يقضي ساعات المساء في دروس ليلية، وكان ينصرف بجملته إلى العلوم والكتب العلمية حتى خيّل إلى الناظر حيناً من الزمن أن مكدونالد سيكرّس نفسه للعلم، ولكن يد الأقدار أدارت دولاب الدهر فرأى مكدونالد نفسه وسط معارك السياسة.

أصبح بعد ذلك سكرتيراً للمستر طوماز لو نائب مدينة أشلنفتون، وكانت أجرته حينئذٍ 75 جنيه في السنة. ثم ازدادت أجرته كثيراً كما ازداد أيضاً اختباره خصوصاً لأنه كان حاد المزاج سريع التأثّر.

كان رفيقه ورصيفه كير هردي أقدم منه عهداً في حزب العُمال لأن مكدونالد كان ينتمي أولاً إلى «حزب الحرية» ولم يفكر في تركه إلا بعد أحاديث كثيرة جرت له مع هردي. أخيراً كتب كتاباً إلى هردي سنة 1894 بعد إنشاء «حزب العمال المستقل» يقول له فيه إنه عزم عزماً باتاً على أن يضع نصيبه مع حزب العمال. وهذا سبب انخراطه سنة 1895 في حزب السياسة باذلاً جهده لانتخابه عضواً عن سوثمبتون لحزب العمال، ولكنه فشل في هذا الانتخاب أيضاً.

جاءت سنة 1911 وهي سنة الأحزان على مكدونالد، ففي أوائل هذا العام فقد ابنه الأصغر وبعد ذلك بثمانية أيام فقد أمه الشيخة، ثم جاءت على أثر ذلك أعظم الضربات وهي فقدان زوجته مرغريت. ففي شهر يوليو أصيبت بعلّة انتهت بتسمّم الدم ووفاتها في شهر سبتمبر.

كانت هذه الضربة شديدة جداً على مكدونالد، فأضعفته وأورثته شحوب الوجه وغور العينين، واليأس الذي استولى عليه كان أعظم برهان على أن الحال ستفضي به إلى الموت. بيد أنه خطر له أثناء ذلك خاطر فجائي يعود إليه الفضل في بقائه هو حياً، وهو أن يجعل نفسه وقفاً على العمل الذي كانت هي مرشده إليه وهاديه الأمين، فكتب كتاباً صغيراً لذكراها نشره في لندن، منه ما يأتي:

«إن غابات بكنهام الآن صفراء وكبوش العلّيق تملأ السياجات، ولكنّ «تلك» التي كانت تلبي نداءهم وتحضر إليهم أمست الآن في عالم الأموات. وقامت عندها الراحة الأبدية مقام سلام المنزل، ولقد طالعت مؤخراً بين الذين كتبوا تأبيناً لها ما يؤخذ منه أن قد كانت لها مطامح سياسية ـ ما أجهل الإنسان للإنسان وما أكثره اندفاعاً للكلام عنه!

«عندما كنت أشعر بالضيق والضجر واليأس، وأنا على وشك ترك الجهاد والعودة إلى بلدتي، كنت آتي إلى حبيبتي وهي كانت تشفيني بإيمانها السار وثقتها التي لا تتزعزع وتحملني على العودة إلى ساحة المعركة. والحقيقة أنه لا يدري أحد حتى ولا أنا نفسي مقدار ما هي مدينة إليها حركة حزب العمال.

«إني لمنجز الآن هذه الذكريات كما ابتدأت بها، أي في المنزل الذي سكناه أولاً. ولقد عدت هذه الساعة من نزهة كانت تحب السير فيها بعد غروب الشمس وقبة السماء السوداء تتألق بالنجوم كما كانت تتألق يوم كنا نمشي معاً وهي أشبه بلؤلؤة تلمع في أفق اليأس وكان البحر نائحاً كما كان نائحاً يوم قالت لي «دعنا صامتين ونحن ماشون. ساكتون لأننا نكون حينئذ متكلمين!» وكان أيضاً صوت طائر الليل يرنّ في أذني كما رن يوم أتيت بها إلى هنا المرة الأولى وشعرت بجزع شديد وهي منذهلة حائرة لا تدري ما يخبئ لنا القدر بين ثناياه».

كان أثناء الحرب من حزب العمال الصغير الذين كانوا يعتقدون بأنه كان من الواجب

على بريطانيا أن تبقى على حال الحياد، وذلك أفضى إلى عراك اضطر فيه إلى المدافعة عن نفسه. ولكنه ظل محترماً عند الجميع خصوصاً لويد جورج. ومما كتبه عنه يوسف غريغ في نيويورك هرالد ما يأتي:

«إن مكدونالد مغرم بالغليون كبولدوين ولويد جورج، وهو نظيرهما مغرم بالرياضة الجسدية والمشي كثيراً ولكنه يفوقهما فيها وهو أيضاً يحب لعب الغولف.

«لمكدونالد منزلان أحدهما في منطقة همبستيد من لندن والآخر في لوزيموث مسقط رأسه، وفي الثاني منهما يصرف الصيف وعيد الميلاد مع إبنيه وبناته الثلاث. وفي كل يوم عطلة يقرأ لأولاده رواية أو روايتين من روايات سكوت بصوت عال. وفي كل من هذين المنزلين مكتبة بديعة يُرى فيها كثير من آداب الأسكتلنديين وأشعارهم ورواياتهم فضلاً عن كتب فلسفية كثيرة وأخرى دينية.

«قرأ مكدونالد كثيراً عن المصلح الأسكتلندي الشهير جون لوكس والوقت الذي ظهر فيه. ولما فشل مكدونالد في انتخابه عن ليستر سنة 1918 عزم على أن يؤلف تاريخاً مطولاً للوكس وطالع تواريخ كثيرين آخرين من مشاهير وطنه وسافر منذ بضع سنين إلى الشرق حيث طالع مرة أخرى رواية الأودسه وذلك أثناء مروره في الجزر اليونانية.

«وهو يحب المشي كثيراً. كان من مشاهير أصدقائه اللورد مورلي الشهير، فكان يذهب لمشاهدته كل يوم أحد تقريباً في بلدته ويمبلدان حتى وفاة اللورد المذكور».

مكدونالد ربعة القامة بسيط اللباس، يضع حول عنقه قباء غير منشّى وعلى رأسه قبعة لينة. لون عينيه يضرب إلى الأزرق السنجابي، وهو قوي العواطف ولكن في إمكانه السيطرة عليها. ومما ذكره المؤرخ المشار إليه أعلاه بشأنه ما يأتي:

«إن الطريقة التي احتمل بها المطاعن التي وُجهت إليه أثناء الحرب زادته رفعةً واحتراماً عند الجميع حتى أشد خصومه عنفاً في السياسة، ولقد فشل في انتخاب ليستر سنة 1918 بسبب موقفه أثناء الحرب، وكذلك فشل مرة أخرى في انتخاب ولويش سنة 1921. وطُرد من نادي الغولف في موراي على مقربة من بلدته لوزيموث بحجة أن أعضاء آخرين استعفوا لأنه من أعضاء النادي.

«كان لويد جورج معجباً على الدوام بمكدونالد حتى في الأيام التي فرقت بينهما السياسة تفريقاً كبيراً. وعندما كانت تنهال المطاعن على مكدونالد نظراً لميله إلى السلم عوضاً عن الحرب، صرّح لويد جورج بما يأتي «أن مكدونالد من أعز أصدقائي الخلصاء وسواء كان مع القائلين بالحرب أو ضدهم فلن تخرج من شفتي كلمة قط ضد مكدونالد».

أنحى مكدونالد في بداءة الحرب باللائمة على السير أدورد غراي، وهو الآن لورد غراي، لأنه شهر الحرب على ألمانيا. ولا ريب أن تسلّمه رئاسة الوزارة من أعظم الضربات على سياسة فرنسا.

لودندورف

لم يبلغ رجل قط في تاريخ العالم السلطة التي كانت للجنرال لودندورف[41] أثناء حرب الأمم، بل كانت سلطته قبل انتهاء الحرب ببضعة أسابيع تفوق سلطة الذي كان هو يخدمه. فقد كان السيد المطلق لملايين من الجيوش منتشرة من فلاندرس حتى القوقاس ومن ريغا حتى العراق. وكان أيضاً سيد الحكومة نفسها لأن أعضاءها كانوا صنائعه رجالاً عيَّنهم هو. وكان الرأي العام نفسه تحت سلطته، فكان سكان الإمبراطورية من رجال ونساء خاضعين لأمره.

كان لودندورف في الأطوار الأخيرة لحرب الأمم نصف إله والقائد المختار لإحراز النصر والفتح، تعبده أمة يبلغ عددها ستين مليوناً عبادة عمياء يوم كان صديق الإمبراطور الحميم الذي كان يحلم حينئذ حلماً ذهبياً جميلاً، أخذ لودندورف على نفسه تحقيقه. بيد أن هذا الحلم الذهبي تبخّر ككثير من الأحلام الذهبية الأخرى، وتبخرت معه أيضاً قوة لودندورف الذي أصبح بعد الحرب طريداً شريداً لا يُذكر اسمه إلا مصحوباً باللعنات، وبعد ذلك ببضعة أشهر لم يعد أحد يذكر اسمه قط.

حدث بعد هذا تغيير غريب لا يقل غرابة عن الدور الأول، وهو أن لودندورف رفع رأسه بعد الضربات التي نزلت عليه غير هيّاب ولا وجل، وكتب كتباً الغرض منها بيان أنه كان على صواب في عمله وأنه لا يزال مصيباً. وخطب من على المنابر مسفهاً آراء الاشتراكيين واليهود وأتباع ماركس، ورفع الستار عن الحرب الماضية وتكلم عن الحرب الجديدة القادمة. وظهر في شوارع مونيخ على رأس جيش من العصاة رآه بعينه يتحوّل إلى زمرة من الغوغاء، ورأى نفسه أسيراً يُحاكم محاكمة خائن. وأخيراً ترشح لعضوية الريخشتاغ وأفلح فانتخب عضواً له. وكانت نتيجة هذه الأعمال كلها نجاحاً جديداً أصبح بعده لودندورف

---

41 [أيريخ ولهام لودندورف (1865ـ1937)، جنرال ألماني قاد الجيوش الألمانية في الحرب العالمية الأولى جنباً إلى جنب مع الجنرال بول فون هندنبرغ].

مرة أخرى بطل ملايين من الألمان، وعاد الشعب ينظر إليه كأنه مخلص ألمانيا وعاد أشياعه يطلبون من الشعب الألماني أن يسلم نصيبه إلى الرجل الذي كان يقبض على أحكامه أكثر من كل رجل ألماني آخر.

أخلاق الرجل وأشواطه

ما هي يا ترى أخلاق هذا الرجل والأشواط التي جراها في ميادين الحرب والسياسة يوم كان ديكتاتوراً على أمة وحاكماً بأمره فيها يصرف أمورها كيف توجهت إرادته ويدير جيوشها أنّى شاءت حكمته، لأن هذا الرجل آخذ الساعة في تسليط نفسه بقوة الإرادة على شعب قد يعود إلى السيادة عليه مرة أُخرى، وإن كان هذا الغرض لا يزال في عالم الغيب.

ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال، فقد كان لودندورف أعظم قواد ألمانيا وحلفائها من دول أواسط أوربا. ومع أن هندنبورغ كان رئيسه بالاسم، فقد كان هو الدماغ المفكر الأكبر في تلك الحرب الطاحنة. والإجراءات العظمى التي قام بها هندنبورغ لم تكن إلاّ تنفيذاً للخطط الحربية الباهرة التي ابتكرتها قريحة لودندورف.

ولكن الأمور التي قالها وفعلها بعد الحرب لا تتفق مع العظمة الشخصية التي كانت له إثناءها، فهو في السياسة طفل والخطب التي فاه بها يدعو بها الشعب إلى إثارة روح الانتقام تدل على جهل صبياني، والمؤامرات التي قام بها بالاتفاق مع كاب وهتلر تدل على جهله التام لمبادئ الحروب السياسية وسبر عقول الآخرين.

يمكن تعليل النجاح الباهر الذي أحرزه لودندورف في ساحات المعارك والفشل التام الذي أصابه في ساحات السياسة بظروف حياته وتعليمه وهو في أوائل الصبا. فقد وُلد في مزرعة من مقاطعة بوزين واختار له أبواه منذ أول أمره أن يكون جندياً، فنشأ على الميل إلى الحرب نشوءاً طبيعياً، بل رضعه مع لبن أمه. فحب وطنه بروسيا وتعاليمها كانت عنده عبارة عن الاعتماد على التنظيم والطاعة التامين. فأصبحت القوة وسيادتها إنجيله المعبود، فكرّس لذلك قواه العقلية كلها وتخصّص له تخصّصاً تاماً شأن البروسيانيين في جميع

اختصاصاتهم. ومرّن نفسه على تخشين العواطف تمريناً علمياً، فقد تباهى مرة بقوله إنه لم يليّن عواطفه بمطالعة بيت من الشعر أو الإصغاء إلى لحن من الموسيقى إلا اللحن الحربي.

في سن السابعة عشرة تعيَّن ضابطاً برتبة ملازم أول في الفرقة السابعة والخمسين من فرق المشاة، وأرسل بعد ذلك إلى الأكاديمية الحربية في برلين، وهو شرف كان مُخصصاً لكبار الضباط الذين يمتازون بإتمام الواجبات في صفوف الفرقة وفي الحراسة. ولما بلغ سن الثلاثين تعيّن ضابطاً في أركان الحرب وقام بخدمات جليلة في مصلحة الإجراءات الحربية، وهي مصلحة تضع خططاً حربية نظرية في كل ما له مساس بالأعمال الحربية في العالم كله، ووجّه اهتمامه على نوع خاص إلى قضية تقديم المؤن ونقلها. وفي سنة 1890 أصبح رئيساً للمصلحة المذكورة تحت رئاسة الكونت فون شليفن الأخصائي الشهير بالحركات الحربية الذي كان حينئذٍ رئيس أركان حرب الجيش الألماني إلى أن أقاله الإمبراطور من هذه الوظيفة وعين موضعه صديقه الحميم فون مولتكي.

لما شبّت الحرب العالمية، كان لودندورف قائداً لفرقة من المشاة في ستراسبورغ، وهي الفرقة الأولى التي خاضت غمار الحرب لأنها هي التي هاجمت قلعة لياج في أوغسطس سنة 1914 ولقيت مقاومة عنيفة. ولكن إجراءات لودندورف الشخصية حوّلت الفشل إلى نصر، فإنه دخل المدينة قبل أن سلّمت بقية الحصون فأجازه الإمبراطور بوسام الاستحقاق الأول وأصبح من تلك الساعة من الرجال العظام.

بعد ذلك بقليل، اضطر الهجوم الروسي على شرق بروسيا القيادة الألمانية العليا إلى الاهتمام بحدودها الشرقية اهتماماً جدياً، فبعثت لودندورف إلى هناك وعيّنته رئيس أركان حرب هندنبورغ لا لمجرّد أعماله الحربية في لياج، بل لأن القيادة العليا كانت راغبة في أن لودندورف ينفّذ المسائل التي تعلمها سابقاً في مصلحة الإجراءات في برلين. فأصابت في رأيها تمام الإصابة لأن الجيش الروسي سُحق في تاننبرغ والبحيرات الماورية، وصُدّت الجيوش الروسية الأخرى بعد ذلك في بولونيا وغاليسيا. ومع أن هندنبورغ هو الذي وقّع الخطط الحربية، فقد كان لودندورف واضع تلك الخطط ثم قدّمها إلى رئيسه الإسمي. وكان الأمر كذلك في انتصار ألمانيا على السرب ثم على رومانيا. وانسحاق الجيوش الروسية

انسحاقاً نهائياً يعود إلى خطط لودندورف الحربية. وما شاع سابقاً من أن هندنبورغ خرج من خمّارة في هانوفر ماشياً إلى شرق بروسيا وقتل هناك مئة ألف جندي روسي وأصبح بعد ذلك بطل الأمة الألمانية لا ينطبق على حقيقة الواقع لأن الضباط الألمانيين الفنيين كانوا على علم من أن هذه الإجراءات عائدة إلى خطط لودندورف.

بيد أن انتصار الجيوش الألمانية في الخط الشرقي قابله فشلها في الخط الغربي، فإن الهجوم الإنكليزي في السوم ضعضع الجيش الألماني. وظهر بعد هذا أيضاً أن هجوم فولكنهاين على فردون[42] انتهى بالفشل بعد خسائر هائلة. لذلك ترتب على ألمانيا أن تقوم بأعمال حربية تعيد هيبتها إلى النفوس وتعيد المراكز الحربية إلى ما كانت عليه قبلاً، فتوجهت أفكار القيادة الألمانية العليا مرة أخرى إلى هندنبورغ ولودندورف. أما فولكنهاين فكان قد أفل نجم سعده بسبب فشله في فردون فعُزل من قيادة الجيش العامة وحل محله هندنبورغ يصحبه لودندورف بوظيفة القائد الأول.

السيادة التامة في الحرب العالمية

من تلك الدقيقة قبض لودندورف على أزمَّة الإجراءات الحربية والسياسية كلها وأدار حركات الحرب العالمية فيما يختص بالجيوش الأوربية المركزية، وأحرز من الوجهة الحربية نجاحاً باهراً وقام بخطط حربية كلها جرأة نادرة المثال. وبعد أن بعث ماكنسين لاجتياح رومانيا، كرّس الأشهر الباقية من سنة 1916 لتقوية جيشه في الخط الغربي عازماً على البقاء مدافعاً إلى أن يتاح له الانتصار نهائياً على روسيا في الخط الشرقي وإخراجها من عداد القوى المحاربة، وارتدّ هو بجيشه إلى نقطة دفاعية منيعة جدّاً، فأحبط بذلك خطط الحلفاء الذين كانوا عازمين على مهاجمته في الربيع التالي وخرق صفوف جيشه كلها، ووقف هناك في وجوههم يردهم على أعقابهم عملاً بالدروس التي تعلّمها في الخط الشرقي، وهي منحصرة على الغالب في المناورات التي كان يجريها بنقل الجنود فيها من نقطة إلى أخرى. فتمكن بهذه الوسيلة من أن يضع أصبعه على الخط الغربي جاسّاً نبضه،

42 المقصود فردان.

وأن يناضل الحلفاء عندما يشعر بأن الضغط أصبح شديداً، وذلك بإرسال عدد كافٍ من الجنود بواسطة السكك الحديدية كلما رأى لزوماً وقتياً لذلك. وكان «يسحب» هذه الجنود حسب اللزوم من الجنود الألمانية في روسيا التي كانت حينئذٍ أشبه بجنود احتياطية للخط الغربي. ولكنه حدث في هذا الوقت ما قلب الموازنة، إذ حصلت إجراءات حربية ودسائس سياسية فكّكت عرى الإمبراطورية الروسية وأفضت أخيراً إلى انهيارها وشبوب الثورة.

كان لودندورف في هذه الأثناء في جهاد عظيم من الوجهة السياسية أيضاً، وكان من رأيه إحراز الانتصار مهما كلف من الخسائر. وكانت البلجيك محكاً لما إذا كانت ألمانيا ترمي إلى عقد اتفاق أو إلى إحراز النصر. فالقيادة الألمانية العليا التي يمثلها ويتكلم عنها لودندورف كانت راغبة في الحصول على ضمانات كبيرة جداً خصوصاً إحراز ساحل فلاندرس، فحصل بهذا الشأن وغيره من الشؤون خلاف كبير بين سادة ألمانيا الحربيين وسادتها السياسيين. فكان الأولون يلحّون بوجوب الحصول على قاعدة بحرية حرة للغواصات. أما بثمان هولويغ وزير الإمبراطور الأول، فقد أدرك منذ أول الأمر أن الهجوم الذي كانت تقوم به الغواصات سيفضي لا محالة إلى خوض الولايات المتحدة غمار الحرب في جانب أعداء ألمانيا، فمانع أولاً ممانعة شديدة ولكنه أذعن أخيراً قائلاً «إذا كان القواد الحربيون يرون حملة الغواصات ضرورية، فلا يمكنني ممانعتهم».

حمي غضب لودندورف إزاء هذه الممانعة، وكان عزمه على الاستقالة باعثاً على استقالة بثمان هولويغ وهو الذي حمل هندنبورغ على إرسال تلغراف إلى الإمبراطور يحتج فيه على «إبرام صلح لا يكون فيه ضم أراض ولا غرامة». وبمثل هذه الوسيلة أرغم لودندورف وزير الخارجية فون كولمان على الاستقالة لأن الوزير المذكور تفوّه بجملة مفادها أن الحرب لا يمكن إنهاؤها بالسيف وحده. والحقيقة أن لودندورف كان في ذلك متحاملاً على كولمان لأن هذا اقترح أثناء المؤتمر الذي عقده قيصر ألمانيا لتحديد أغراض الإمبراطورية من هذه الحرب وجوب التخلّي عن كل ادعاء لهم في البلجيك.

جاء بعد هذا الطور الذي أصبح فيه لودندورف القائد الذي سمّاه الألمانيون كلهم قائد الانتصار. وكما فعل نابليون قبله في مثل هذا الموقف، كذلك فعل هو. فاضطر أبناء وطنه

إلى العمل بإرادته المطلقة، وحاول أن يضطر بقية العالم أيضاً إلى ذلك. وظلّ يرسل رسائل تهديدية وأوامر إلى الريخشتاغ أجبره فيها على إصدار قانون مآله أن كل رجل وامرأة من الملكيين بين السادسة عشرة والستين من العمر يجب أن يكونوا في خدمة الجيش، إما رأساً للقيام بالخدمة الجندية أو بواسطة للقيام بخدمات ثانوية. ولم يكن يُسمح لدولاب قط في ألمانيا أن يتحرك دون إذنه. وكان متى حدثت اعتصابات في برلين يرسل أوامره إلى الحكومة قائلاً فيها إن نقابات التجارة الآن مشلولة وإنه يجب على الحكومة إرسال زعماء المعتصبين إلى الخطوط الأمامية في الحرب. ولكن هذه الأوامر ارتدّت أخيراً عليه لأن الزعماء المذكورين نشروا آراءهم الثورية بين الجنود في الخنادق وساحات الحرب.

الهلع بعد الفشل

كانت ضربة لودندورف الأخيرة أنه تعهّد بأن «يضمن الانتصار» وذلك بالقيام بهجوم عام هائل نهائي على الحلفاء في الخط الغربي، وأكّد لحكومته أنه يمكن إحراز النصر قبل أن تتمكن ألمانيا من أن تضع في كفة الميزان جنوداً كافين للتأثير في أعمال الحلفاء الحربية. فعلى رمي هذه الورقة الوحيدة يجب على ألمانيا أن تجازف بوجودها. فاضطر الحكومة الألمانية والقيادة الألمانية العامة إلى العمل برأيه، ثم شرع في إرسال جيوش إلى كل جهة وبعث حملات جديدة إلى فنلنديا والبلطيك وحشد جنوداً جدداً وحشد معها أيضاً ذخائر. ولم يكن سفك الدماء ذا قيمة عنده مهما كانت الدماء المسفوكة غزيرة إذا كان من ورائها إحراز النصر، فيجب تضحية كل شيء دون شفقة ولا رحمة في سبيل «الانتصار»، وهو انتصار يجعل ألمانيا سيدة العالم.

شرع في تلك الحملة الهائلة في شهر آذار سنة 1918 وقد دوّن التاريخ بداءتها الباهرة وآخرتها الذليلة، فقد اتخذ لودندورف تدابير وخططاً عظيمة لو أمكنها النجاح وإحراز المراكز المطلوبة لكان في إمكانه خرق جيوش الحلفاء وفصلها الواحد عن الآخر وإفناء الجيوش الإنكليزية على شاطئ الخليج. ولكن جيوش لودندورف لم تبلغ أميان ولا كمبيان ولا شالون، إذ أن الألمان بينما كانوا يرفعون راياتهم في المراكز الإنكليزية الأمامية

التي استولوا عليها، كان فوش آخذاً في تأليف جيشه الاحتياطي في أحراج كمبيان وفيلي كوتيريه. ورغماً من أن لودندورف كان يدفع إلى أتون النار المهلكة فيلقاً أثر فيلق، كان هجومه يضعف المرّة بعد المرّة وكان يعاقب الضباط متى لم يقوموا بتنفيذ خططه تمام القيام عقابات هائلة. وكثيراً ما كان يتداخل شخصياً في القيام بالإجراءات الموضعية ولكن دون نتيجة على الإطلاق لأن الفيالق الأميركية أخذت تضرب جيشه بمطارقها الهائلة إلى أن ضعضعته من سويسرا حتى البحر.

كان من وراء ذلك أن لودندورف انخلع قلبه فعكس سياسته وألحّ على الحكومة بوجوب فتح المخابرات، فذعرت الدوائر السياسية الألمانية لهذا النبأ ووجدت نفسها بين ليلة وضحاها مضطرة إلى قلب سياستها رأساً على عقب. فحاول لودندورف جهده عبثاً لإيقاف الكارثة وأتقاء النكبة إذ لم يكن بدٌّ من التسليم لأن الكرة التي دحرها هو بيده من قنّة الجبل يجب أن تظل متدحرجة حتى الحضيض.

كان فشل لودندورف عائداً إلى الرجل نفسه وإلى النظام الذي ارتآه وجرى عليه وهو نظام أركان الحرب للجيش الألماني، فقد كان نظاماً جامعاً بين العزيمة العالية والعناء الشديد يدعمهما إيمان بالنجاح. فكان قوياً طالما ظلّ إيمانه قوياً. وخطأه الكبير أنه لم يقدر قوة المقاومة للحلفاء حق قدرها ولا قدرتها على استعادة قواها وانتعاشها، ولا قدرة أميركا على إرسال جيش إلى فرنسا يصل في الوقت المناسب، ولا صفة هذا الجيش بعد وصوله. ولقد أعلن لودندورف قبل جهاده الأخير الهائل لخرق جيوش الحلفاء في شهر تموز بأن جيش فوش الاحتياطي أمسى منهوكاً وأن الجيوش الإنكليزية باقية تحارب في الخنادق لأنه وردها مقادير كبيرة من المدافع والذخائر ولكنها لا تصلح لشيء للحروب في ساحات المعارك المكشوفة، وأن الجيش الأميركي الغنيّ صغير جداً ولا يتاح له تعليم الجنود الجدد في وقت كافٍ لمداخلتهم في هذه الحرب. بل صرّح بأن أميركا لا يعتد بها من هذه الوجهة وأن النصر مضمون لألمانيا. وعلى وجه الإجمال، فقد كان يحتقر الجيش الأميركي وكل جيش آخر لم يتدرب على أساليب ألمانيا الصارمة، وهو غرور عظيم. ولكن ذلك لا يقلّل قوى لودندورف العقلية الحربية، فقد شهد له بها قواد شهيرون من الحلفاء. ويزعم أحدهم

أن فشل لودندورف عائد إلى عدم تمكّنه من استعمال جيشه كله في هذا الهجوم، لذلك كانت جيوش الحلفاء تتمكن بعد كل هجوم من استعادة قواها.

ومهما يكن من الأمر، فإن لودندورف فشل ودفع ثمن هذا الفشل. وظلّ بعد هذا ردحاً من الزمن مستكناً عاد بعده إلى ألمانيا من أسوجٍ، وهي البلاد التي سافر إليها سرّاً بعد انكساره الهائل. وشرع بعد عودته يبرّر نفسه قائلاً إن الجيش الألماني لم ينهزم، بل أصيب في ظهره بضربة خنجر من السياسيين والثائرين وإن الانهزام أصاب الجيش الذي كان مرابطاً في ألمانيا نفسها بسبب الإذاعات الثورية التي لم يتمكن السياسيون من مضادتها ومناصرة قواد الجيش. وقد صرف لودندورف في هذا السبيل ألوفاً من الكلمات المكتوبة وعشرات ألوف من الكلمات الملفوظة.

والحقيقة أن لودندورف بعد انتصار الجيش الإنكليزي وخرقه خط هندنبورغ وتسليم البولغار، أصابه خوار عظيم وألحّ على الحكومة الألمانية بوجوب فتح مخابرات الصلح. ولقد صرّح الكولونيل فون هرفتين ممثل القيادة العليا في برلين أن لودندورف خاطبه بالتلفون ورجاه رجاءً شديداً أن يستعمل نفوذه لحمل الحكومة على الشروع في المخابرة بشأن السلم دون أدنى إبطاء لأن تأجيل يوم واحد قد يكون من ورائه نتائج على غاية الخطورة.

حدث ذلك في أواخر أيلول، ولكن الحرب تطوّرت في الشهر التالي تطوراً كان في مصلحة لودندورف، فانتعشت آماله في إحراز النصر مرة أخرى، فنسي عند ذلك الحلل النفيسة التي كانت عليه والهلع الذي حمله على وجوب الشروع في مخابرات الصلح حالاً وسريعاً، فحاول عكس هذه السياسة الذي هو نفسه كان قد أشار بها. وصرّح أن له ثقة تامة بجمع الجيش مرة أخرى وإعادته إلى خط الميز والتمكن من الوقوف هنالك بعزيمة صادقة حتى يتاح لألمانيا الحصول على شروط صلح أفضل من السابقة.

في هذا الوقت وردت مذكرة ولسن الثالثة طالباً بها تسليم ألمانيا دون قيد ولا شرط. وبناءً على إشارة لودندورف، أصدر هندنبورغ بياناً للجيش يقول فيه إن مذكرة الرئيس ولسن مذكرة لا تتنازل ألمانيا إلى الإجابة عليها. ولما كان هذا البيان تطاولاً على حقوق الحكومة الألمانية، فإن الحكومة المذكورة وقفت في وجهه وحوّرت الدستور تحويراً مفاده

أن القيادة الحربية خاضعة لسيادة الريخشتاغ أو على الأقل للحكومة المدنية.

كان هذا باعثاً على استقالة لودندورف لأنه كان يرمي إلى إبرام الصلح «بشرف»، ولكن الحقيقة أنه كان يرمي إلى متابعة الحرب حتى نهايتها المرة. أما هندنبورغ وسائر أعضاء أركان الحرب فإنهم أبوا العمل بمشيئته والخضوع لإرادته كما فعلوا قبلاً لأنهم كانوا يعرفون كم تكون مرارة تلك النهاية، وكانوا يعرفون أيضاً أنه عندما أُعلنت الهدنة لم يبق من الفيالق الاحتياطية لجيشهم الهائل سوى خمسة عشر فيلقاً وراء الخط الأمامي مع أن فيالقهم الاحتياطية كانت في 15 تموز سنة 1918 تربي على ثمانين فيلقاً. أما الفيالق الخمسة عشر المشار إليها، فلم يكن من الممكن إلا إدخال فيلقين منها في وقت واحد إلى ساحة الحرب لأن البقية لم تكن بحالة مناسبة لخوض المعارك. وكانوا يعلمون أيضاً أنه لم يكن من الممكن الوقوف في وجه الحملة الفرنسية الأميركية التي كانت على وشك الهجوم، وهي مؤلفة من ثلاثين فيلقاً يدعمها ثلاثون فيلقاً آخر مستعدة لاتباعها. وكانوا يعلمون أن الفيالق الألمانية البالغة مئة وستين فيلقاً ستضطر بعد ما أصابها من الضعف والوهن إلى التقهقر وسيوف الحلفاء تعمل في جوانبها وتأخذ في الالتفاف حول جناحها الجنوبي.

كان لودندورف نفسه يعرف هذه الأشياء كلها، ولكنه ظلّ مصرّاً على زعمه أنه لا يمكن قهر الجيوش الألمانية وأنه لو أصاخت ألمانيا السمع إلى نصائحه لما رأت نفسها مضطرة إلى الرضوخ لمعاهدة فرسايل.

قائد الرجعيين الملكيين

لا يزال لودندورف حتى الساعة محاولاً إقناع نفسه وألمانيا أن الأمة الألمانية سوف تحرز النصر في النهاية وأنها ستحرزها بالوسائل التي تقدم بيانها. وقد انخرط حتى الآن في حركتين كان الغرض منهما قلب الجمهورية وإعادة الملكية، وكانت الأخيرة منهما في مونيخ حيث وضع يده في يد هتلر للمناداة بحكومة وطنية وصرّح قائلاً «آخذ على نفسي قيادة الجيش الألماني الوطني الذي يترتب عليه أن يرفع العلم الإمبراطوري القديم ويُحرز انتصارات أخرى».

وبعد أن انتصرت الحكومة على هذه الحركة وشتّتت شمل العصاة، حاكمت لودندورف لاتهامها إياه بخيانة الوطن. وفي أثناء هذه المحاكمة ظهرت عقلية لودندورف ظهوراً ينطبق على مزاجه وماضيه. أما فيما يختص بقصوره من الوجهة السياسية، فإن موقفه كان أدعى إلى الشفقة. فعندما خاطب القضاة كان يراه الناظر الروح الحربية الألمانية مجسّمة، فلم يتنصّل من شيء لا في كلامه ولا في تصرفه، بل ادّعى أنه هو وحده كان مصيباً وأن الآخرين كلهم كانوا على خطل في الرأي. وكان خطابه مملوءاً غلاًّ وحقداً، وصرّح للقضاة أنه قد «برهن سابقاً عن الأسباب التي لأجلها خسرت ألمانيا الحرب وهي أن الاشتراكيين المقيمين في ألمانيا طعنوا الجيش من الوراء في ظهره». وهذا ما فاه به عينه منذ نحو ثلاث سنين يوم مثل أمام لجنة الريخشتاغ التي تولت التحقيق في أسباب فشل ألمانيا في الحرب. وقد ظلّ مصرّاً على هذا الزعم منذ ذلك الحين حتى الآن رغماً من أن اللجنة وجدت بعد التحقيق أن سبب انهزام ألمانيا عائد إلى الأغلاط الفنية التي ارتكبها لودندورف في إدارة الحركات الحربية.

إذا كان بقي لزوم لإيراد برهان على أن لودندورف قاصر في السياسة قصوراً مدهشاً، فإنه هو نفسه قد أقام هذا البرهان. فقد تبين في أثناء المحاكمة من الأوراق الرسمية أنه هو الذي أشار على الحكومة بوجوب فتح مخابرات خوفاً من نكبة حربية. لذلك رأى من الضروري أن يأتي ببراهين أوقع في النفس من «طعن الجيش في ظهره»، فادعى أن الفشل الذي أدّى إلى سقوط ألمانيا عائد إلى قوى اليهود المنتشرة في العالم، وأن هذه القوى كانت متحدة لهذا الغرض مع العالم الكاثوليكي!

ولكنه أنحى باللائمة على الكنيسة الكاثوليكية أكثر مما أنحى على اليهود بأنها هي الخائنة الحقيقية، وأن كاثوليك بافاريا حاولوا هدم ألمانيا التي شادها بسمارك حتى تكون عبدة رق لفرنسا بواسطة هدم بروسيا البروتستنطية. واتهم الفاتيكان بوقوفه في الحرب موقف عداء لألمانيا، وطعن في البابا الحالي طعناً جارحاً بسبب الخطاب الذي ألقاه أثناء الاحتفال برفع جان دارك إلى مصاف القديسين.

حدث بعد خطاب لودندورف في المجلس لغط شديد أثار عاصفة من الحنق والمناقشات

الحادة. ولكن هذا الخطاب أخاف أصدقاء لودندورف وسرّ أعداءه سروراً عظيماً لأنه نفّر منه مئات الألوف من أنصاره السابقين لأنه جرح عواطفهم الدينية جرحاً دامياً ووضع حكومتي برلين ومونيخ في أحرج المواقف، فاضطرتا كلتاهما بعد ذلك إلى تقديم اعتذار للفاتيكان.

لا يزال لودندورف بطل ملايين

ظل لودندورف رغماً من هذا الخطأ الفاحش بطل ملايين كثيرين من الألمان، ولا يزال كذلك. ولما برأت المحكمة ساحته من تهمة الجناية في حركة هتلر الثوروية عاد من المحكمة بسيارته وسط هتاف الجماهير المحتشدة على جانبي الطريق. وبعد ذلك بقليل وقف على شرفة قصره الصيفي في ضواحي مونيخ واستعرض الفرقة المسماة «العصبة المحاربة»، وهي عصبة من جمعيات حربية كانت الآلة العاملة في حركة هتلر ولودندورف الثوروية، رغماً من أن هذه المظاهرة كانت في حد نفسها مقاومة عامية للحكومة من قِبَل لودندورف والعصبة المذكورة التي كانت الحكومة قد حلّتها وحرّمتها لأنها عصبة غير شرعية، وجودها خطرٌ على الدستور. وفي أثناء الخطاب الذي ألقاه عليها لودندورف، أيّد مرة أخرى شجبه للكنيسة الكاثوليكية والكاثوليكيين وأفادهم أن العصبة يجب أن تكون على أهبة النضال ضد اليهود الماركسيين. وهذا الخطأ الذي ارتكبه لودندورف بشجبه الكاثوليكيين في بافاريا الكاثوليكية وشهره عليهم حرباً صليبية تفوق أغلاطه السابقة كلها من حربية فنية أو سياسية. ولكنه بالرغم من هذا العمى السياسي لا يزال بطلاً عند ملايين من الألمانيين، وقد تمكن «حزب الحرية الوطنية» من إدخال ثمانية وعشرين عضواً في الريخشتاغ، وهو مجلس الأمة الألماني، يرأسهم لودندورف نفسه.

عاد لودندورف إلى برلين التي كان سابقاً قد نفض غبارها عن حذائه، وقد عاد إليها كما غادرها ودخل البرلمان وفي صدره الإيمان القديم بخصوص وظيفة ألمانيا في العالم ورسالتها إليه. فهو لا يعتقد قط بأن الشعب الألماني خسر إيمانه بتلك الرسالة، وهي رسالة لم

يتمكن الشعب المذكور من القيام بها لأن بعض القواد لم يقوموا بواجباتهم. وهو يؤمن أن هذه الرسالة ستؤديها ألمانيا للعالم عندما ترضخ لديكتاتور أوتوقراطي.

ولقد ألقى لودندورف مؤخراً خطاباً على جمهور من طلبة المدارس قال فيه «إن ألمانيا تتطلب من شبيبتها حباً متوقداً لوطنها وبغضاً وانتقاماً من أعدائها». ويعلم أصدقاء لودندورف كلهم أنه متوقد حباً لوطنه، وهو ما لا ينكره عليه أعداؤه أنفسهم. ولعل هذا هو سرُّ بقائه واقفاً على الدوام دون أن تسقطه أغلاطه، وسر بقائه نصف قابض على أعنة أفكار ملايين من البشر في ألمانيا.

أسرار مقتل الأرشيدوق فردينند

كانت الرصاصة التي أطلقها التلميذ السربي في سراجيفو على الأرشيدوق فريتز فردينند[43] الشرارة الأولى للحرب العالمية. ولقد دبرت هذه المكيدة جمعية سرية في بلغراد انتقاماً من النمسا لضمها البوسنه والهرسك، وهما حينئذٍ ولايتان عثمانيتان تعدهما السرب من أملاكها الطبيعية. فاحتجت حينئذٍ روسيا على هذا الضم، ولكن ألمانيا هبت لمناصرة حليفتها النمسا وبعثت إلى روسيا ببلاغ نهائي تنذرها فيه بوجوب استرداد الاحتجاج المذكور وإلا شنّت عليها حرباً. وكانت روسيا آنئذٍ خارجة من الحرب الروسية اليابانية منهوكة القوى، فاضطرت إلى الإذعان مرغمة. ولكن هذا الجرح ظلّ في قلب روسيا والسرب جرحاً نغّاراً، إلى أن أعلن الأرشيدوق فريتز فردينند ولي عهد النمسا عزمه على زيارة سراجيفو وذلك بعد الاتفاق السرّي الذي عقده مع إمبراطور ألمانيا في حديقة الورود على ما فصلناه في مقالة سابقة. فرأت الجمعية السربية السرية أن ساعة الانتقام قد حانت، وأن لا بد من الضربة القاضية مهما كلفت. فكانت مأساة سراجيفو الشهيرة التي انتهت بمقتل الأرشيدوق وزوجته وحرب الأمم التي كانت أعظم نكبة على البشرية.

ومع أن الحكومة السربية ألقت حينئذٍ القبض على الطالب برنسيب الذي أطلق الرصاص وبعض أشخاص آخرين، فقد ظل الستار مسدلاً على هذه المأساة دون أن يعرف العالم شيئاً من تفاصيل المكيدة إلى أن قام مؤخراً أحد الوزراء السابقين الذي كان في عداد وزارة السرب حين مصرع الأرشيدوق وأفشى أسراراً سياسية في غاية الأهمية.

أفشى الساسة والمؤرخون أسراراً خطيرة فيما يختص بمقدمات حرب الأمم والأسباب التي أفضت إليها، بانين ذلك كله على مستندات رسمية. ولكن لم يفش حتى الآن أحد

43 [فرانز فرديناند (1863-1914) ولي عهد النمسا. كان مصرعه في 28 حزيران سنة 1914 أثناء زيارة له إلى مدينة سراييفو على يد غامزيلو برنسب (Gamzilo Princp) أحد أعضاء التنظيم السري الصربي «اليد السوداء» سبباً في إعلان النمسا الحرب على صربيا، ما أدى إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى].

منهم سراً أو يقف على مستند بخصوص المأساة التي كانت السبب المباشر لشبوب حرب الأمم إلى أن قام الآن ألجوبا يوانوفيتش الذي كان حينئذٍ وزير المعارف في السرب، وهو الآن رئيس مجلس الأمة السربي، ونشر مذكراته بخصوص شهري يونيو ويوليو من سنة 1914 وهما الشهران المشؤومان اللذان سبقا الحرب، وصرّح بالحقيقة تصريحاً لا يتطرق إليه الإلهام أو الشك. وبعد أن قال في صدر كتابه «إن الوقت لم يحن لإفشاء السر كله»، شرع في سرد الحقائق قائلاً:

«أفادنا باشيطش رئيس الوزارة أن بعض الأشخاص كانوا على أهبة السفر إلى سراجيفو ليفتكوا بفرنتز فرديننند حيث تقام له الولائم، ولا أذكر تماماً ما إذا كان تاريخ هذا الكلام في أواخر مايو أو أوائل يونيو. واشتغل بعد ذلك رئيس الوزارة بهذا الأمر مع صوجان بروطيش وهو آنئذٍ وزير الداخلية، أما نحن بقية الوزراء فكان ما تقدم كل ما صرح لنا به، فقد كانت الوزارة كلها على علم تام بالمكيدة قبل وقوعها.

«وقد أفادني بعضهم بعد ذلك أن القائمين بهذه الدسيسة زمرة سرية من الرجال وجماعة من طلبة العلم من بوسنه والهرسك المقيمين في بلغراد.

«قال باشيطش وقلنا نحن الآخرون ووافق صوجان أن يصدر أوامر إلى حراس الحدود بوجوب منع هؤلاء الشبان من اجتياز الحدود، وكانوا حينئذٍ قد شرعوا في السفر من بلغراد لتنفيذ المكيدة.

«ولكن الحراس المذكورين أنفسهم من أعضاء الجمعية السرية، فلم ينفذوا أوامر صوجان. وفضلاً عن ذلك، فقد قال لنا صوجان بعد هذا إن الأوامر وصلت إلى الحراس متأخرة بعد أن كان الشبان قد قطعوا الحدود، لذلك لم تتمكن الحكومة من منع الهجوم المدبر».

والحقيقة أنه لو أرادت الحكومة منع الجريمة لما كان عليها إلا أن تبعث حالاً برسالة برقية إلى إدارة الأمن العام في فيينا وسراجيفو مقدمة أسماء المجرمين وذاكرة أوصافهم، ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك.

جلست الوزارة إذ ذلك منتظرة النتائج. ثم يذكر المؤلف ألجوبا كيف أنه بلغه خبر القتل بالتليفون، ومما ذكره بهذا الصدد «مع أني كنت عارفاً بالمكيدة شعرت عند سماع الخبر كأن

رجلاً لطمني لطمة غير منتظرة». ثم يفصل بعد ذلك الهلع الذي أصابه وأنه كان على ثقة من أن النمسا تشهر الحرب وأن أوربا كلها تنتفض أعضاؤها من هذه الجريمة، فيصير موقف السرب إذ ذاك أمامها الموقف الذي كانت فيه بعد مايو سنة 1903 عندما قتل السربيون ملكهم. وأن أحد الضباط طمأنه قائلاً بلهجة جميلة رخيمة «لتشهر النمسا الحرب إذا أرادت، فقد يمكن أن تكون علينا وبالاً ولكن من يدري فقد تكون غير ذلك». فيستنتج من هذا أن الدوائر العسكرية كانت مستعدة للطوارئ. ثم تابع المؤلف قوله كما يلي:

«رفع باشيطش إلى حكومة فيينا أسفنا للخسارة التي أصابت الدولة جارتنا، ومثل حكومتنا فريق من الوزراء في الكنيسة الكاثوليكية للسفارة النمساوية أثناء القداس الاحتفال يوم جنازة الأرشيدوق وزوجته. وكنت واحداً منهم لأن بعضهم قد يظن أني أكثر تحبيذاً لعمل الطالب برنسيب من سواي وأني كنت على وفاق تام بما كانت الوزارة فاعلة له وهو مخالف للحقيقة.

«ومهما يكن من الأمر، فإن تلك الخطوة وذلك البقاء القصير في الكنيسة كانا مكروهين عندي لأني شعرت بأني محاط بأعداء لا يصالحون.

«فحصت النمسا في هذه الأثناء القتلة الذين كان قد ألقي القبض عليهم، وعلمت أن أحد المستخدمين في نظارة الأشغال السرية واسمه ميلان سيغاون فيطش قد ساعد الشبان في اجتياز الحدود. ولما كان هذا الرجل نمساوياً كان للنمسا الحق أن تحاكمه هي نفسها، وهي لو فعلت لكانت وقفت منه على الحقيقة بحذافيرها. لذلك فتش عنه باشيطش واختفى بعد هذا أثره من بلغراد. ولقد اتهمت النمسا حكومة السرب بعدم الإخلاص وعقدت العزيمة على التفتيش بنفسها عن المجرمين. وقد قام ألجوبا بتفتيش أيضاً فوجد في إدارة البريد بطاقة بريدية كتبها أحد القتلة في سراجيفو ووجهها إلى صديق له في بلغراد».

وتأتي بعد هذا نقط عديدة دلالة على أن المؤلف لا يريد أن يبوح الآن بما فيها، وجاء بعد هذا ما يأتي:

«ولكننا على كل حال كنا على ثقة من أن النمسا لا يمكنها إقامة البرهان على أن للسرب الرسمية علاقة بحادثة سراجيفو». ثم جلست الوزارة بعد هذا تبحث في أرخص الطرق

التي يمكنها بها استرضاء النمسا، وكنا واثقين أيضاً من أنها تطلب ما تريد ويبقى لنا بعد هذا وقت للاستعداد. فذهب الوزراء إذ ذاك بالإجازة لقضاء زمن نزهة تاركين في الوزارة باطشو وزير المالية ليقوم بشؤون الوزارات كلها. وعندما بعث البارون جيسل سفير النمسا ما إذا كان من الممكن قبول زيارته الساعة الرابعة بعد الظهر في 23 يوليو، شعر باطشو بخوف وطلب منه تأجيل الزيارة حتى الساعة السادسة، وبذل أقصى جهده لتعديل رجوع باشيطش مخاطباً إياه بالتلفون. وكان باشيطش إذ ذاك في طريقه إلى سالونيك، فأجاب من نيش بأنه لا يرجع. وعندما زار سفير النمسا وزارة السرب قدّم بلاغه ونشبت الحرب».

هذا أهم ما جاء في مؤلف ألجوبا وزير المعارف السربية في تلك الأثناء المظلمة، وهي تصريحات لا شبهة في صحتها.

هتلر على رئاسة الوزارة الألمانية

أخيراً قبض هتلر على أزمة الوزارة الألمانية وأصبح الرجل الأول في إدارة مقدرات ألمانيا، وأصبحت الآن ألمانيا وجهاً لوجه تجاه معاهدة فرساي ونتائج حرب الأمم التي ما تزال تلك الدولة والعالم كله يعاني نتائجها التي كانت أسوأ العواقب على تاريخ الجنس البشري.

مضى زمن الكلام وجاء الآن دور العمل!

ومتى علمت أن الراية الإمبراطورية في بروسيا قد رُفعت منذ بضعة أيام على بناية مجلس النواب البروسياني بجانب راية الجمهورية بناء على أمر من رئيس هذا المجلس وهو في الصف الأول من حزب هتلر، أدركت أن ألمانيا خصوصاً وأوروبا عموماً مقبلة على تطور خطير لا يدري أحد ما تكون مغبّته.

إن هذا الحادث لكبير بمعناه السياسي لأنه جرى يوم الاحتفال بمرور اثنتين وستين سنة على إعلان الإمبراطورية الألمانية، ومن المشهور أن تلك الإمبراطورية لم تتأسس إلا عند انتهاء الحرب الألمانية الفرنسية المعروفة بحرب السبعين، وقد تمّ إعلانها في قاعة فرساي نفسها بعد انتصار ألمانيا وعقد معاهدة الصلح.

ظلت تلك الحرب جرحاً نعاراً في جنب فرنسا إلى أن شبّت حرب الأمم وأتيح لفرنسا أن تأخذ بثأرها من ألمانيا، وعقدت وسائر الحلفاء في نفس القاعة التي عقدت فيها محالفة الصلح الألمانية ـ الفرنسية معاهدة صلح فرساي التي تريد ألمانيا الآن التحرّر منها.

ومن أغرب الغرائب أن يحبذ الآن لويد جورج عمل فرنسا في رفضها دفع ما عليها من الديون للولايات المتحدة وأن يشجب معاهدة فرساي، وهو هو نفسه الذي كان وكليمنصو ركنيها العظيمين وواضعي أساساتها وموادها وبنودها.

استيقظ الآن العالم إلى الحقيقة المؤلمة وهي أن معاهدة فرساي لا يمكن أن تجري بين الدول

كما جرى الحبر على الورق. وكان من تمرد ألمانيا على هذه المعاهدة أن أبت الدفع بتاتاً، ثم تم تسوية المسألة بأن رضيت بدفع مبلغ لم يكن رغماً من فداحته شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى ما كان يترتب عليها دفعه خلال ستين سنة.

نكبات الأمم تخلق رجالها، ولقد خلقت نكبة ألمانيا رجل الساعة الذي لم يكن منذ بضع سنين شيئاً مذكوراً، ولم يدُر اسمه على الألسنة إلا منذ ثلاث سنين يوم أسس الحزب النازي بعد أن وضع ينغ باتفاق الحلفاء وألمانيا الخطة الجديدة التي يترتب على ألمانيا الجري عليها في دفع الغرامة التي تفضل الحلفاء بتسميتها «تعويضات». وأخذ من ذلك الحين يزداد شهرة وقوة حتى بلغ عدد الذين صوتوا له في الانتخابات الأخيرة ثلاثة عشر مليون رجل رغماً من أنه نمسوي الأصل لا ألماني.

يُسمى الحزب النازي الحزب الوطني الاشتراكي ويسمى أيضاً الحزب الفاشيستي الألماني جرياً على مبادئ الحزب الفاشيستي في إيطاليا، وهو عدو الشيوعيين وعدو اليهود الألد أيضاً وسيكون له شأن كبير معهما.

وإذا كان اسمه قد ذاع وشاع وملأ الأسماع، فذلك لأنه يريد أن ينقذ وطنه من نتائج تلك الحرب الهائلة أي من معاهدة فرساي التي سحقت ألمانيا مالياً واقتصادياً وحزبياً، وجردتها من مستعمراتها وخفضت جيشها إلى مائة ألف جندي واضطرتها بالقوة القاهرة إلى الاعتراف بأنها هي التي أضرمت الحرب العالمية، وبسبب هذا الاعتراف القسري وقعت عليها مسؤولية الحرب ونتائجها الوخيمة العواقب. وظلت هذه المسؤولية شغل غليوم الشاغل، فقد وجّه إليها منذ عقد الصلح حتى اليوم جل عنايته واهتمامه جامعاً الأدلة والتصريحات والمقالات لمختلف الكتاب في هذا الموضوع الخطير، نافياً التصريح القسري الذي اعترفت به ألمانيا في مؤتمر الصلح والسيوف مسلولة فوق رأسها والحراب موجهة إلى صدرها. وقد دعا الحلفاء المرة بعد المرة إلى تعيين لجنة خاصة لتقرير مسؤولية الحرب، فلم تعره دولة منها التفاتاً لأن الحلفاء ظفروا بأمنيتهم بالقوة القاهرة وسجّلوا اعتراف ألمانيا القهري بين دفتي معاهدة فرساي وحسبوه حقيقة تظل مدى الدهور.

إن لألمانيا ضلعاً كبيراً في شبوب الحرب العالمية، ولكن القول إنها هي المسؤولة وحدها عنها

قول كبير واضطرارها بالقوة القاهرة إلى الاعتراف بذلك رغماً منها وإدراجه في معاهدة فرساي عمل استبدادي منكر لا يصح صدوره من دول متمدنة. ففي وسع هذه الدول أن تفرض على ألمانيا ما شاءت من الغرامات مهما جاوزت المعقول، أما أن تتجاوز ذلك إلى حرية العقل والضمير فأمر يصح صدوره من ديوان التفتيش لا من ديوان مؤتمر فرساي.

ومهما يكن من الأمر، فإن هتلر يرمي إلى تحرير ألمانيا من العهود التي وقعتها في تلك المعاهدة السيئة الطالع وفي عدادها تعويضات الحرب التي اعترفت بها ألمانيا ديوناً عليها ومستعمراتها التي حولتها بالقوة الجبرية إلى الحلفاء، خصوصاً إنكلترا، وإنقاص جيشها الذي كان أعظم الجيوش البرية إلى مائة ألف جندي وتخريب معامل أسلحتها ومصانع ذخائرها، وعلى الجملة تحويلها أمة مشلولة مالياً واقتصادياً وحربياً واستعمارياً.

ولكنك إذا كان في وسعك أن تملي شروط الصلح بالقوة القاهرة على مندوبي أمة، فليس في وسعك أن تسيطر على إرادتها وحريتها وحركاتها وهي تبلغ سبعين مليوناً من النفوس يغلي الحقد في قلبها غليان الماء في مرجل، فتملصت الآن من الغرامة أو التعويضات الحربية على ما ألمعنا إليه وأنشأت لها معامل أسلحة ومصانع ذخائر في بروسيا وأنشأت لها جيشاً لجباً مؤلفاً من ملايين الشبان الذين سمتهم أعضاء جمعيات وأندية رياضية، وقامت الآن تطالب الحلفاء إما بنزع أسلحتهم وتخفيض جيوشهم أو برفع جيشها هي إلى منزلة الدول الكبرى.

والرجل الذي زيّن لألمانيا تحقيق هذه المطامح إن صدقاً وإن باطلاً إنما هو هتلر الذي رفعته الأقدار إلى منصة كنشلارية ألمانيا التي شغلها أيام عزها ومجدها أعظم وأدهى سياسي ظهر على وجه البسيطة ألا وهو البرنس بسمارك الذي ذهب اسمه مثلاً في السياسة والدهاء.

إن بلوغ هتلر منصة الكنشلارية الألمانية سواء كان من أعمال الأقدار المبصرة أو الأقدار العمياء لحادث خطير في شؤون السياسة الدولية، قد تكون نتائجه خيراً كبيراً أو شراً مستطيراً. ولكنه على كل حال حادث سياسي تتطيّر منه فرنسا ويقض مضجعها لأن الأشباح المخوفة التي كانت تتراءى لها أحلاماً مزعجة تحوّلت الآن إلى حقائق مادية

ومخاوف حقيقية، وهي تتلفت الآن ذات اليمين وذات اليسار لترى أية هي الدولة التي يمكنها هي الاعتماد عليها في ما لو طارت شرارة من ألمانيا وأشعلت مرة أخرى مخزن بارود أوربا! وقد تلتفت أيضاً مرة أخرى ذات اليمين وذات اليسار لترى أية مستعمرة من مستعمراتها تحدّثها نفسها أن تمزق أكفانها وتحاول الخروج إلى عالم الحرية والاستقلال، وماذا عسى أن يكون أمر تلك الدولة المتوحشة البربرية القاصرة التي تسميها سوريا؟ وما عسى أن يكون أمر تلك الدول البربرية السخرية الأخرى التي شقتها من أضلاع سوريا كما شق الله في قديم الزمان المرأة من أضلاع آدم؟

الفيلسوف الخطير العلاّمة داروين الكبير

احتفل العالم منذ بضعة أيام بمرور مائة وخمس وعشرين سنة على ولادة الفيلسوف داروين صاحب مذهب التطور أو كما يسميه الكثيرون مذهب النشوء والارتقاء، ولقد كان ظهور داروين أعظم حدث في تاريخ العلم بعد ظهور نيوتن الشهير.

لم يكن داروين أول من قال بمذهب التطور أو مذهب النشوء والارتقاء، بل قام قبله علماء قالوا به ولكنه هو الرجل الكبير والعالم الخطير الذي بنى هذا المذهب على مستندات علمية واختبارات بيولوجية. فلقد ساح في باخرة إنكليزية سافرت إلى أنحاء شتى من العالم، فظلت زمناً طويلاً تجوب بحاره، فتسنّى له الوقوف على ضروب شتى من أشكال النبات والحيوان وعلى اختلافها بالنسبة إلى مواقعها الجغرافية وبيئتها الخصوصية ما لم يتسن حينئذٍ لسواه. ولقد أصدر بعد درس طويل وبحث عميق واختبار واسع كتاباً سماه «أصل الأنواع» كان له صدى عظيم في الأندية العلمية وأحدث في العالم ثورة في الخواطر لم يحدثها كتاب آخر.

من غريب الاتفاق أن داروين ورصيفه ولاس وقعا على اكتشاف مذهب التطور في زمن واحد، فلم يعرف العلماء، ولا هما عرفا من هو أحق به منهما. كل ينسب الفضل والأسبقية في الاكتشاف إلى رصيفه، وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن حكم العلماء بالأسبقية لداروين لأنه كان الأسبق إلى إرسال بيان بهذا الصدد إلى الأكاديمية البريطانية.

أحدثت مؤلفات داروين ومذهبه ضجة عالية في العالم لم يعهد لها تاريخ العلم مثيلاً، فنشبت ثورة في الخواطر واحتدمت المناقشة خصوصاً بين رجال الدين ورجال العلم، وظل الجدل سنين طويلة وما تزال له بقية ضئيلة حتى الساعة.

تولدت الحياة أولاً في البحار بطريقة ما تزال حتى الساعة مجهولة رغماً عما بذله العلم في سبيل اكتشافها ورغماً من الامتحانات والتجارب والمشقات العظيمة التي عاناها العلماء في هذا الشأن دون أن تفضي جهودهم إلى شعاع نور يودي إلى مصدر الحياة. والعلماء في هذا الصدد طائفتان: إحداهما تقول بالتولد الذاتي والأخرى تقول أن كل حي من حي.

وكان من أمر تجارب الفريق الأول أن بعض علمائه أخذ سائلاً وغلاه مدة طويلة وسدّه بعد ذلك سداً محكماً بحيث لا يتطرق إليه الهواء وتركه بضعة أيام ثم فحصه فإذا هو يتضمن مواد حيوية فاتخذ ذلك دليلاً على أن تلك المواد تولدت تولداً ذاتياً أي من نفس السائل دون أن يكون فيه سابقاً جراثيم حيوية.

بيد أن هذه النتيجة وأمثالها من الامتحانات المتعددة المتكررة بهذا الصدد كانت كلها خطأ، وتعليل ذلك كله أن في السائل جراثيم حية بالغة وبذوراً حية لم تستفرخ. فالأولى منها يمكن قتلها بحرارة الغليان، أما الثانية فلا تقتلها تلك الحرارة إلا إذا أفرخت. فإذا انغلى السائل المذكور مراراً متعددة متوالية بفترات بينها حتى تفرخ البذور ماتت وبطل ظهور مواد حية فيه. فالقول بالتولد الذاتي لم يقم عليه حتى الآن برهان علمي، فكل حي من حي وليس حتى الساعة ما ينافي ذلك أو يدحضه.

بقيت المعضلة الكبرى: من أين أتت الجرثومة الأولى للحياة؟ ففريق من العلماء، وفي صدرهم العلامة طمسن[44] الشهير، يقول بأن الحياة جاءت الأرض عالقة بنيزك هابط من السماء. ولكن لم أر هذا القول يقرب هذه المعضلة إلى الأفهام لأن النيزك يكون عادة بالغاً من الحرارة درجة عالية تقتل كل جرثومة حية تكون عالقة فيه. ثم لو فرضنا صحة هذا الرأي، بقينا من المعضلة مكاننا لأن السؤال الذي يتبادر بعد ذلك إلى الذهن هو كيف جاءت الحياة النيزك أو السيار الذي انفصل عنه؟

مهما يكن من الأمر، فإن داروين لم يتطرق إلى هذه الأبحاث الأولية الفلسفية على الإطلاق، بل تناول الحياة كما وجدت على وجه البسيطة دون أن يبحث في كيفية وجودها ودون أن يبحث في من أوجدها. ومن الآراء الشائعة في العالم أن داروين كافر لا يعتقد بوجود الله وأن مذهبه إنما يقود الناس إلى الكفر. والحقيقة أن ذلك الفيلسوف الخطير لم يتعرض لهذه الأبحاث على الإطلاق لأنه لم يتعرض للأبحاث الفلسفية التي لا تدخل تحت الامتحانات العلمية والاختبارات العملية.

---

44 [إشارة إلى العالم الاسكتلندي السير جون ارثر طمسن (1861- 1933) الذي نشر العديد من الدراسات العلمية من بينها كتابه المشهور «الداروينية والحياة الانسانية» سنة 1910].

إن الجراثيم الحيوية التي تولدت في البحار بطريقة لا تزال سراً من الأسرار انقسمت شطرين: الواحد منهما أقام جانب الشاطئ واكتشف كيف ينال غذاءه مما يحيطه من الماء، وكان أصل المملكة النباتية. أما الشطر الآخر فسار في عرض البحر يفتش في مياهه عن غذائه، فكان أصل المملكة الحيوانية. ومن هذين الأصلين البسيطين اشتقت فروع العالم النباتية والحيوانية التي لا يحصى عديدها.

الشطر الحيواني تطور تدريجياً حتى تجمعت جراثيمه وكونت أنابيب اشتقت منها ضروب أخرى انتهت إلى الأسماك. وهكذا صعدت طوائف منها في الأنهار حتى بلغت الشواطئ، ومنها اشتقت المتراوحات على ما سميتها في قاموسي وأعني بها الأسماك التي تتراوح بين البر والبحر، فتعيش تارة هناك وطوراً هنا. ومن التي تعيش في البر اشتقت كل الحيوانات البرية وفي أوائلها الزحافات التي بلغت في الأطوار الجيولوجية ضخامة هائلة إلى أن تفرعت الحيوانات البرية الأخرى التي لا عداد لها، وعلى ذلك تفرع الشطر النباتي الذي لا يقع تحت حد وحصر.

يبني داروين مذهبه على صفة طبيعية في الأجسام الحيوية وهي ميلها إلى التغير، وهذا التغير هو الذي يسير في طريق الارتقاء. وهنالك صفة حيوية أخرى وهي تنازع البقاء، وصيغة حيوية ثالثة وهي تخلف الأصلح. أي أن النباتات والحيوانات ينازع بعضها بعضاً متى وجدت في بيئة واحدة، فالنباتات القوية الصالحة للبيئة تغلب النباتات الضعيفة وتأخذ غذاءها وتقتلها كما تقتل الحيوانات القوية الحيوانات الضعيفة.

تتولّد في أثناء التطور بسبب ميل الطبيعة إلى التغير ضروب شتى من الأحياء تكون صلة بين ما فوقها وما تحتها. ولكن لأسباب طبيعية وحيوية شتى تضمحل هذه الصلات فيصير الفاصل بين العليا والسفلى كبيراً وعميقاً، فتصبح هذه وتلك أنواعاً منفصلة بعضها عن بعض انفصالاً تاماً. ولقد فصّل داروين ذلك كله في كتابه الطائر الصيت «أصل الأنواع» مما لم نأتِ نحن في هذه المقالة إلا على ذرة منه، فكان له أعظم وقع في العالم.

مرور عشر سنين على وفاة لنين

مرّ منذ بضعة أيام على وفاة لنين عشر سنين انقضت كأمس الدابر أو كهزيع من الليل ـ رجل قام بأعظم عمل اجتماعي قام به بشر في القرن العشرين، فشاد إمبراطورية من العمال على أنقاض إمبراطورية من الأشراف وحقق أماني ماركس وأحلام الاشتراكية التي كانت حتى ذلك العهد شبحاً من الأشباح.

نقش لنين اسمه بارزاً على صفيحة التاريخ الخالدة، وأسس نظاماً اجتماعياً عظيماً تبادر إلى الأذهان حين إنشائه أنه نظام طيار لا يلبث أن ينهار. ولكن الحوادث السياسية أيّدته ووقفت القوة الحربية بجانبه، فالثورة الروسية إنما هي أعظم حادث في تاريخ العالم بعد الثورة الفرنسية.

مرّ لنين وتروتزكي في ألمانيا ذاهبين إلى روسيا، فرحّب بهما الألمان وفتحوا لهما طريقاً رحباً وسهّلوا لهما المهمة الخطيرة التي جاءا من أجلها. ولم يكن يدور في خلد أحد حينئذٍ أن سيكون لهذين الرجلين الشأن الخطير الذي صار لهما بعد ذلك. أما ما تبادر إلى أذهان الألمان فهو أن هذين الرجلين ذاهبان إلى روسيا لإضرام نيران الثورة، وهو ما يرحّب به الألمان وينيلهم الأماني التي يطمحون إليها أعني التغلّب على روسيا وعقد صلح منفرد معها بمعزل عن سائر الحلفاء.

والحقيقة أن الألمان حقّقوا أمانيهم ولكنهم في الوقت نفسه كانوا ينتحرون وهم لا يدرون، لأن تمرد الجيوش الروسية تطرق إلى الجيوش الألمانية فتمرّدت الجنود على قوادها وتمرّد الأسطول على ضباطه فامتنع من الخروج إلى ساحات المعارك البحرية وسلّم أسلحته إلى أعدائه، فوضعت بريطانيا يدها عليها. ولكن الضباط الألمان لم يطيقوا هذا التمرّد وقامت في نفوسهم سورة الغضب على بحارتهم. وفي صباح يوم من الأيام وضعوا أيديهم على ذلك الأسطول وأغرقوه على مرأى من مواطنيهم وأعدائهم، وهو عمل لم يكن يخطر لأحد في بال.

أما فرق الجنود فلم تكن أسعد حالاً من الأسطول، فلقد تمرّدت هي أيضاً على الأوامر التي صدرت إليها بالهجوم على الأعداء، بل فعلت أكثر من ذلك إذ وقفت في وجه الإمبراطور غليوم وولي عهده وسائر الأسرة الإمبراطورية، والضباط الذين أظهروا الإخلاص لها تهددوهم بأيديهم وأسلحتهم وانهالوا عليهم بالسباب والشتائم. وفي التصريحات التي أعلنها ولي العهد ما يغني من كل بيان بهذا الصدد.

يزعم ولي العهد المشار إليه أن خراب ألمانيا جاء عن طريق الثورة الألمانية لا عن طريق الانهزامات الحربية، وأنه لولا تلك الثورة التي امتدت إليها بطريق العدوى من الجنود الروسية لكان لتلك الحرب العالمية شأن غير الشأن الذي انتهت إليه.

أطلق لنين قنبلة بين الشعب الروسي دون أن تدري أوربا ما تكون نتيجة هذه المجازفة، وكانت الوسيلة التي أغرى بها الشعب على إعلان الثورة والانتقاض على إمبراطوره توزيع القصور والمنازل على الأهلين، فوضع لنين يده على الأملاك والأراضي التي كانت تخص الأغنياء أو الشرفاء وجعلها ملكاً للدولة ثم عيّن المزارعين فيها وكلاء عليها من قبل الحكومة. والحقيقة أنه وهبها للفلاحين على هذه الصورة فاستمالهم كلهم إلى جانب الثورة، ولولا ذلك لكان انتهى أمره بالفشل والخسران.

وضع الفلاحون أيديهم على أملاك الشرفاء والأغنياء وتصرفوا في هذه الأراضي تصرّف المالك في ملكه، وهذا سر انتصار لنين في تلك الثورة التي أكلت الأخضر واليابس وقضت على أعضاء الأسرة الإمبراطورية على بكرة أبيها وجعلت القوة في لنين وأنصاره الذين قبضوا على أزمة شؤون الدولة وتصرّفوا بالإمبراطورية كأنها شطر من ممتلكاتهم.

الشيوعيون في روسيا قليلو العدد جداً بالنسبة إلى السكان، فلم يكونوا منذ بضع سنين سوى ثلاثة ملايين. ولكن الجيش والبحرية والطيارات وسائر القوات الحربية في أيديهم، وهم يفضلون أنفسهم والجيش والعمال على سائر أهالي البلاد. فالنظام الروسي بالغ حد الإعجاز ولولا ذلك لتساقطت هذه الإمبراطورية على رؤوس أصحابها منذ عهد بعيد خصوصاً لأنه كان لها أعداء أقوياء، ففرنسا وقفت لهم بالمرصاد لأن القروض التي كانت قد قدمتها للحكومة الإمبراطورية قد ذهبت جزافاً، وبريطانيا وقفت أمامها وقفة عداء

وكانت تود أن تشهر الحرب عليها لو لم يقف العمال البريطانيون في وجهها وينادوا بالثورة والانتقاض على الحكومة، واليابان تنتهز الفرص للإجهاز على الصين والوقوف في وجه الروسيين. ولكن ذلك كله قد تغير الآن.

اضطرت فرنسا إلى التقرّب من روسيا خوفاً من ألمانيا التي تريد أن تقف بجانب فرنسا موقف الند بجانب الند وأن تضرب بمعاهدة فرساي عرض الحائط. ورأت الولايات المتحدة أيضاً أن الظروف تقضي عليها بالاعتراف بحكومة السوفيت والتفاهم معها خوفاً من اليابان. وإيطاليا أظهرت ميلاً إلى روسيا ولا تريد أن تكون على عداء معها.

ترى الآن روسيا نفسها في مركز منيع جداً، ويرى الشيوعيون الروسيون أنفسهم بعد عشر سنين من وفاة زعيمهم العظيم لنين أنهم أمنع من عقاب الجو.

لا يدري أحد حقيقة الحال في طول روسيا وعرضها، فالآراء متضاربة والأقوال متنافرة. فهنالك من يصرح بأن الجوع ضارب أطنابه في أرجاء روسيا وأن الجياع يموتون بالملايين، وهنالك آخرون يصرحون بأن روسيا في حال رخاء يجب أن يحسدها عليها العالم.

بيد أن ما لا ريب فيه أن لنين قد شاد الإمبراطورية الشيوعية على أسس راسخة، وأنه إذا لم يحدث أمر لم يكن في الحسبان فالشيوعية الروسية ستظل دهراً طويلاً مستبدة بالروسيين كما يعن لها.

نقش لنين اسمه على صفيحة التاريخ الخالدة وسيقيم له الروسيون نصباً فخماً قلّ مثيله في العالم، فلقد حقّق آمال الاشتراكية والشيوعية تحقيقاً لم يكن في الحسبان. وسيكون للثورة الروسية شأن خطير جداً في سياسة العالم ومستقبله لأن الشيوعية هي الوجهة التي تتحول إليها أبصار البشر في حال عسرهم وضيقهم. ولولا الفاشستية لكانت أوربا الآن خصوصاً والعالم عموماً في قبضة الاشتراكية والشيوعية.

العالم الآن بين هذين المبدأين المتناقضين المتنافرين ولا يدري أحد ما يكون مستقبل البشرية، ولكننا ندري أن لنين حقّق مبدأً كان خيالياً فجعله حقيقة راهنة يخضع لها مائة وعشرون مليوناً من النفوس وتتزلّف إليها ملايين أخرى شتى من أرقى أمم العالم وأكثرهم تمدناً وعلماً بعد أن كانوا يناصبونهم العداء.

كان الحلفاء يسمون البلاشفة أو الشيوعيين لصوصاً، أما الآن فقد اضطروا إلى تغيير آرائهم لأن للسياسة أحكاماً يعنو لها البشر. فلقد توجه من فرنسا إلى روسيا وفد ممن اشتهروا بعدائهم للشيوعيين وفي صدرهم هريو، فعاد الآن يسبّح بحمد الشيوعيين ويعلن خطأه على رؤوس الأشهاد. والولايات المتحدة تعلن اعترافها بالحكومة الروسية التي شجبتها المرة بعد المرة، وتعقد معها معاهدة ولائية. واليابان بعد أن تهجّمت على روسيا تحسب لها الآن حساباً كبيراً.

ما تكون يا ترى نتيجة العراك بين البلشفية والفاشستية؟ لا ندري ولا أحد غيرنا يدري!

مأتم ألبرت ملك البلجيك

كان لوفاة الملك ألبرت[45] رنة حزن وأسف في أوربا وسائر أصقاع العالم، لما كان عليه من اللطف ودماثة الأخلاق والشجاعة والشهامة، ولما اشتهر به أثناء الحرب العالمية من الجهاد والنضال في سبيل وطنه. وليس أدل على هذه المنزلة السامية من المأتم الفخم الذي جرى لهذا العاهل العظيم قلّما كان لمثله من الملوك.

منذ العشرين من الشهر الفائت أخذت الجماهير بالدخول إلى القصر الملكي في بروسيل لوداع ملكها المحبوب، فمرت أمام رفاته باحترام ودلائل الأسى الشديد بادية على وجوهها وعيونها مغرورقة بالدموع، وكان رأسه معصوباً بعصائب تستر الجراح التي أصابته. الحق يقال إن شعب البلجيك وفد إلى قصر ملكه يودّعه الوداع الأخير رجالاً ونساءً، فتألفت من هذه الوفود المحتشدة احتشاداً لم يسبق له نظير صفوف متراصة أمام القصر الملكي وهم حزينون صامتون شاعرون بعظم النكبة التي انقضت عليهم من عنان الجو انقضاض الصاعقة.

وضعت الرفات في ردهة كبرى من ردهات القصر الملكي، فأصبحت هيكلاً مقدساً مزداناً بالشموع والأزهار والأنبتة المتعرشة، وعلى النعش راية جميلة كبيرة وعلى الجثمان رداء ملكي وصدره مزدان بالأوسمة وحوله فرقة من الحرس الشرفي. وكانت صفوف من هذه الفرقة في سائر أنحاء القصر ودهاليزه ومعابره وهي كلها منكسة أسلحتها، فكان على كل من يسير أن يمر بين صفين من الحرس، وهو منظر يملأ القلب حزناً ومهابة.

وفي اليوم التالي، تابع الشعب تأدية احترامه ووداعه للملك العظيم. وكان عدد الواقفين صباحاً يربي على عشرين ألفاً من النفوس، وكانت قوة الأمن العام قد حالت دون تسهيل

45 [ألبرت الأول (1875-1934) ملك بلجيكا ما بين 1909 و1934. خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918) خسرت بلجيكا تسعين بالمئة من أراضيها التي احتلتها الجيوش الألمانية. قتل ألبرت في حادث وقع في جبال بلجيكا الشرقية سنة 1934 وخلفه على العرش ابنه ليوبولد].

الدخول نظراً للزحام الشديد فاحتج الشعب احتجاجاً عظيماً وعلت أصوات المتذمّرين، فاضطرت القوة المذكورة إلى الإذعان فسهّلت لهم الدخول بعد التنظيم الكافي حتى يتاح للجميع وداع الجثمان قبل نقله إلى المدفن الملكي. وكان برنامج المأتم أن يصير توقيف الجمهور عند الظهر، ولكن الملكة لما شعرت بإلحاح الشعب وازدحامه أطالت الزمن حتى منتصف الليل.

ولقد اضطر وزير الداخلية إلى اتخاذ احتياطات غير عادية لمنع الإجراءات التي كان يريد بعض الشيوعيين القيام بها تشويهاً لجمال هذه الحفلة، فأرسلت رئاسة الجيش جنوداً كافية للمحافظة على الأمن العام. ولقد وصلت الوفود الدولية الأجنبية للاشتراك بهذا المأتم الفخم.

كان اليوم التالي يوماً فخماً لم تشهد بروسيل نظيراً له، فقد اكتظت في ذلك اليوم شوارع العاصمة وساحاتها لا بعشرات الألوف ومئات الألوف فقط، بل بملايين من الناس توافدت إلى القصر الملكي لتشييع جثمان الملك حبيب الأمة إلى مقر راحته الأخير.

ولقد كان الجو أولاً عند انبثاق الفجر مغطى بغيوم كثيفة والبرد قارصاً والرياح تهب هبوباً شديداً، بيد أن الشعب لم يبال بشيء من ذلك. وبعد أن تبلج الصبح، نقل الضباط النعش الذي يتضمن رفات الملك إلى مدفعية أدخلت إلى ساحة القصر. وقد خفقت فوق النعش الراية الوطنية ومرّ أمام الجثمان نحو ثلاثين ألف جندي من الجنود القدماء البلجيكيين الذين خاضوا غمار حرب الأمم. وكان فريق منهم تحت قيادة الملك نفسه فأدوا التحية العسكرية، وجاء وراءهم جنود الحلفاء خصوصاً والدول المتحايدة عموماً، فكان مظهر مهيب من المظاهر الفخمة التي لم تر له بروسيل مثيلاً ولم ينل ملك آخر شرفاً مثله. ويقول الصحفيون الذين حضروا هذا المشهد إنه كان مشهداً نادر المثال لا مثيل له في التاريخ.

في منتصف الليل، أعلنت مصلحة الأمن العام عدم السماح لأحد بالمرور أمام الجثمان لأن الرأس المصاب بجراح عديدة لم يمكن إطالة عرضه زمناً آخر، لذلك قضت عليهم الضرورة القاهرة بإيقاف المرور. ولقد أذعن الشعب هذه المرة إلى أوامر المصلحة المشار إليها

رغماً من ميله الشديد إلى متابعة المرور، وانتظر إلى صباح اليوم التالي حين يسير الموكب إلى الكنيسة حيث تجري الاحتفالات الدينية أولاً.

عند الساعة العاشرة صباحاً، شرع هذا الموكب الفخم في السير من القصر الملكي إلى كنيسة سانتا كودولا ثم إلى قصر لاكن حيث ترقد رفات أجداده ملوك البلجيك، وعند ذلك شرعوا في إطلاق المدافع وداعاً للملك العظيم الراحل وإجلالاً لمقامه وذكراه.

سارت أولاً فرقة رجال الأمن، فالجند الإيطالي تتلوه الجنود الفرنسية والإنكليزية، تأتي بعدها القوات البحرية للدول المشار إليها والقوات الهوائية، تليها جنود المستعمرات من بلجيكية وإيطالية وإنكليزية وفرنسية، ثم تليهم فرق الإكليروس يتقدمهم رئيس أساقفة بروسيل وكردينال باريس وجمهور لا يحصى من أساقفة وكهنة. ثم جاءت مركبة الجثمان تجللها الراية الوطنية ويسير وراءها أعضاء الأسرة المالكة والملوك ورؤساء الجمهوريات والحكومات وأولياء العهد والقواد الأجانب والوفود العسكرية والبحرية ووفود الطيران والقضاة والصحافة والأساقفة وطلبة المدارس.

على باب الكنيسة كان كردينال البلجيك يستقبل الجثمان حيث حُمل إلى الكنيسة بكل جلال ووقار تحف به من الجانبين رايات الدول الأجنبية وفرقة من الجنود تؤدي التحية العسكرية. ومن هناك سار الموكب الفخم إلى قصر لاكن حيث كانت الأسرة الملكية واقفة لاستقبال الجثمان حيث أودعوه ضريحه الخاص.

مضى الآن الملك الديمقراطي العظيم الذي وقف بجيشه الصغير الباسل تجاه الفيالق الألمانية الهائلة وصدها عن اجتياح بلاده أياماً قليلة في عددها طويلة في جهادها، وقد ظل يدافع عن بلاده حتى بعد أن اجتاحتها ألمانيا ولم يبق له منها إلا شطراً صغيراً ناضل فيه وجنوده الشجعان فيالق أعظم دولة حربية عصرية عرفها العالم. ولولا دفاع ألبرت النادر المثال لجرفت ألمانيا البلجيك في مثل غمض الجفن وانقضت على باريس انقضاض الصاعقة واضطرتها إلى عقد صلح منفرد ونالت نصراً عظيماً باهراً جعلها سيدة أوربا وملكة العالم.

كان الملك ألبرت من الملوك السامين النادري المثال بعواطفهم وشرف أخلاقهم وجرأتهم

وشجاعتهم وشهامتهم وديمقراطيتهم، فلقد كان يقاسم جنوده المعارك في ساحات النضال والحرب في الخنادق حيث كان الرصاص يتساقط عليها كأنه شآبيب مطر حتى كان الجندي فيها إذا رفع أصبعاً أو يداً له فوق رأسه قطعها الرصاص كما يبري السكين قلماً. ولقد كان نحو جنوده الذين شاطرهم المخاطر اللطف مجسماً لذلك أحبوه حباً يقرب من العبادة.

لم تنجلِ نكبة الملك ألبرت لنا انجلاء تاماً، ولم يقتنع عقلنا بحقيقتها رغماً من كل ما كتب عنها، وعندنا أنها ما تزال حتى الساعة سراً من الأسرار لأن كل ما نشر بشأنه غموض وإبهام لا يطمئن إليهما العقل. فهل يقوم بعد حين من الزمن من يكتشف أو يؤمن العالم بطريقة معقولة يطمئن إليها بالعقل كيف مات الملك ألبرت.

إن التضحيات التي قام بها الملك ألبرت أثناء الحرب لتضحيات سامية تدل على نكرانه نفسه، مفضلاً سلامة وطنه ومصلحته على سلامته الشخصية. ولقد كانت البلجيك أثناء الأسابيع الأولى من حرب الأمم المحور الذي يدور عليه مصير تلك الحرب الهائلة.

وفاة الجنرال مرشان وحادثة فاشودة

توفي منذ أيام معدودات الجنرال مرشان الفرنسي[46]، فكان له في باريس مأتم فخم حضره الوزراء وكبار رجال الدولة. ولقد ألقى في الحفلة المذكورة الجنرال فيغان أحد المفوضين العامين السابقين في سوريا تأبيناً أتى فيه على ذكرى حادثة فاشودة التاريخية الشهيرة، وهو ما حدا بنا إلى كتابة هذه المقالة[47].

اتفقت الحكومتان البريطانية والفرنسية بعد شبوب ثورة عرابي ومذبحة الإسكندرية على إرسال أسطول مشترك يحتل الإسكندرية ويضع حداً للثورة المشار إليها. ولما بلغ الأسطول المشار إليه الميناء واستعد لإطلاق النار على القلاع، ارتدت على حين فجأة المراكب الحربية الفرنسية وظلت المراكب الإنكليزية وحدها، فواجهت الجبهة وأطلقت النار على القلاع الحربية وأنزلت جيشها في الإسكندرية وقام بمعارك مع الجيش المصري ونال النصر واحتل القاهرة وبسط سيادته وسلطته على القطر المصري.

أدركت حينئذٍ فرنسا خطأها بعدم الاشتراك مع الأسطول البريطاني في ضرب الإسكندرية واحتلال القطر المصري. ومنذ ذلك الحين حتى مسألة فاشودة ظلت تناوئ الحكومة البريطانية في الشؤون المصرية واقفة لها بالمرصاد حاسبة عليها أنفاسها، منتقدة كل حركة من حركاتها. وقد كانت هذه الخطة التي سمتها الجرائد الإنكليزية سياسة «وخز الدبابيس» باعثاً على اضطراب العلاقات السياسية بينهما، لأن ذلك الوخز كان من الممكن أن يفضي إلى حرب لأن معظم النار قد يكون من مستصغر الشرر.

ظلت هذه المباراة بين الدولتين الكبيرتين. وبعد أن أقدمت الحكومة الفرنسية على انسحابها من الاشتراك في الاحتلال، عادت فصوبت عملها بعد أن رأت ما كان من قيام

---

46 [إشارة إلى الجنرال جان-باتيست مارشان (1863-1934) الذي خاض المعارك الاستعمارية الفرنسية في العديد من أنحاء افريقيا بما فيها السنغال- النيجر، وفاشودة في السودان].

47 آخر افتتاحيات الدكتور سعاده في جريدة «الرابطة» وكان قد كتبها قبل حوالي أسبوع من وفاته.

المهدي في السودان وقضائه على حملة إنكليزية برمتها والأزمة التي وقعت فيها بريطانيا. وكانت هذه قد أرسلت إلى الخرطوم الجنرال غوردون باشا الشهير ثم تركته وحيداً دون أن ترسل إليه مدداً. ولما بلغ الضيق بغوردون مبلغه، بعث برسول يحمل برقية إلى حكومته يشرح فيها أنه على أشد حال من الضعف وانتهاك القوى، وأمر الرسول أن يضع هذه الرسالة فوق نعل حذائه حتى لا يمكن أحداً الوصول إليها وحمّله برقية أخرى يقول فيها إنه على غاية ما يرام من القوة والمناعة ولا يلزمه مدد على الإطلاق، وأمر الرسول أن يضع هذه في جيبه حتى إذا عثر عليها الأعداء لا يدركون أزمته.

ولما طال الوقت على غوردون دون أن ترده إعانات، بعث إلى غلادستون رئيس الوزارة البريطانية حينئذٍ يقول له «إني أفضحك وحكومتك أمام الرأي العام، فلقد أخلفت وعدك وتركتني بين متوحشين». فأحدثت هذه البرقية ضجة كبيرة في إنكلترا واستياء عاماً بين طبقات الشعب اضطرت الحكومة البريطانية إلى إرسال نجدة وصلت متأخرة عن الوقت اللازم بضعة أيام. وكان كثيرون قد عرضوا قبل ذلك على الجنرال غوردون الهرب في مراكب خاصة على مياه النيل، فرفض وآثر الموت على هجران مركزه وواجباته. وفي صباح يوم اجتاحت قوات المهدي الخرطوم وصعدت الدرج المؤدي إلى قصر الحاكم حيث كان غوردون واقفاً يستقبلهم على رأسه، فأعملوا حرابهم في جسمه وقتلوه. والآن تقوم على ذلك المحل التاريخي كلية غوردون الشهيرة وتمثاله الفخم تخليداً لذكره وشجاعته وقيامه بواجبه قياماً نادر المثال.

بعد هذه النكبة، لم يكن مصير الحملات البريطانية إلا الفشل والاندحار والاضمحلال إلى أن برز كتشنر وكان إذ ذاك كولونيل يسمى الكولونيل الطويل لطول قامته، فشرع في إعداد حملة منظمة ثابتة قائمة على أساس راسخ، فشرع أولاً في بناء سكة حديدية تصل بين مصر والسودان، ولم يكن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام إلا اعتماداً على السكة المشار إليها. فاستغرق ذلك وقتاً طويلاً ولكنه بلغ أخيراً الخرطوم وقام بمعركة دموية فاصلة بينه وبين المهدي، فقضى عليه قضاءً مبرماً واحتل الخرطوم وبسط السيادة البريطانية المصرية على السودان بعد تلك المعركة الشهيرة التي تسمى في التاريخ معركة أم درمان، وتابع زحفه من هناك حتى فاشودة.

كانت الحكومة الفرنسية تفكر منذ زمن طويل بعد احتلال بريطانيا القطر المصري أن تجد منفذاً لأملاكها الأفريقية إلى النيل، وكان ذلك متعذراً عليها لبعد الشقة وتوعر الطرق وبيئة البلاد الوبيلة وشراسة القبائل المتوحشة التي أقامت في تلك الأصقاع البربرية النائية. ولكن الحكومة الفرنسية رغماً من ذلك كله بعثت بضابط شجاع للقيام بهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر، فجمع حوله كما يقول الجنرال فيغان في تأبينه له عشرة من الضباط البواسل كلهم من رتبة واحدة ومن سن واحدة. وقد اضطر إلى السير مدة سنتين هو ورفقاؤه ماشين على أقدامهم في الغابات والأحراج والأودية والجبال بين الصخور والطرق الوعرة في أراض لم تطأها قبله رجل بشر سواء من البيض أو السود، وعانى ورفقاؤه مشقات يقصر القلم عن وصفها إلى أن بلغ بعد سنتين من هذه الأهوال فاشودة التي لم يصلها قبله أحد من البيض على الإطلاق، وكان ذلك في اليوم العاشر من سنة 1898. فأقام فيها بجيشه الذي لم يكن سوى فرقة لا تتجاوز مائة وخمسين جندياً، وأحاط هذه الفرقة بالاستحكامات الحربية التي اضطرته الحال إلى إقامتها على عجل، ورفع فوق فاشودة العلم الفرنسي.

في هذه الظروف بلغ كتشنر فاشودة ومعه قوة مؤلفة من ألفي جندي وخمسون مدفعاً، فتهيأت فرقة مرشان للدفاع عن موقفها والذود عن حياض قطعة من أرض كانوا يحسبونها بحق الفتح قطعة إفرنسية، وقد عانوا في سبيل الوصول إليها مشقات لا تحصى وسنتين من المشي على الأقدام. فلما اجتمع القائدان شرع كتشنر في مخاطبة مرشان قائلاً: «إنني باسم الدولة البريطانية أطلب من القوة الفرنسية أن تخلي فاشودة»، فأجابه مرشان أنه ضابط نظيره وسيدافع عن فاشودة حتى آخر جندي. وكادت تنشب معركة بين الفريقين تكون نتيجتها طبعاً اضمحلال القوة الفرنسية لو لم تتدارك الأمر الحكومتان البريطانية والفرنسية، فأنذرت الأولى الثانية أنها إذا لم تجل عن فاشودة كان ذلك سبباً للحرب بين الدولتين. فرأت فرنسا أن الضرورة القاهرة تقضي عليها بالجلاء وإنزال علمها عن فاشودة، فأنزلته وغادرت تلك البلدة التي لم يكن لها شأن يذكر قبل هذه الحادثة ونار الحقد والانتقام تضطرم بين أحشائها، وهي إهانة لم تكن تخطر لها في بال بعد تلك

الأخطار والمشاق والأهوال التي عاشتها مدى سنتين مشياً على الأقدام. وكانت الحكومة البريطانية قد أذنت لمرشان ورفقائه الضباط ورجالهم أن يعودوا إلى فرنسا عن طريق القطر المصري، ولكن مرشان رفض هذه المنحة وعاد أدراجه ماشياً على قدميه.

بيد أن الحكومة البريطانية تلافت الأمر واسترضت فرنسا بطريقة مرضية للفريقين ولكنها على حساب الشرق السيئ الطالع، وهي أنها عرضت على فرنسا احتلال مراكش والتصرف بها كما تشاء على شرط أن لا تتداخل بعد ذلك في شؤون القطر المصري وأن لا تعود إلى ما كانت تقوله قبل ذلك من حقوقها التاريخية في مصر التي ترتبت على احتلال نابليون القطر المشار إليه وما لها فيه من التقاليد السابقة، فرضيت فرنسا ذلك.

قبل أن يتم الاتفاق بين الفريقين، ثار غليوم الثاني وهو في إبان مجده وقوته كما يثور الأسد، وأعلن أن ألمانيا لا ترضى أن تقوم دولتان بشؤون العالم السياسية دون مشورتها ورضاها هي، وأمر بإرسال مدرعة إلى مياه مراكش لحماية المصالح الألمانية هناك. فنشأت إذ ذاك معضلة دولية خطرة جداً، وأخذت ألمانيا في تجهيز جيشها وحذت حذوها فرنسا وشرعت بريطانيا في إرسال قطر سريعة إلى شواطئها حاملة جنوداً بحجة أنها تريد أن تمتحن سرعة هذه القطر. واكفهر وجه الجو اكفهراراً شديداً وخشي العالم نشوب حرب طاحنة. وأعتقد أنه لو أعلنت ألمانيا حينئذٍ الحرب على فرنسا وبريطانيا لكان النصر بجانبها لأن فرنسا كانت ما تزال ضعيفة وقوة بريطانيا البرية لا تستحق الذكر والشعب البريطاني راغب عن الحرب.

بيد أن الدول تلافت الأمر بعقد مؤتمر في طنجه لحل هذه المعضلة بطريقة سلمية على ما تقول به أكثرية الأصوات. فكانت الأرجحية الساحقة بجانب بريطانيا وفرنسا إذ لم يقف في جانب ألمانيا إلا الدولة النمسوية، فحفظ لها الإمبراطور غليوم هذه المأثرة وبعث إلى إمبراطورها بكتاب يشكر لها لطفها وأخلاقها وأنه يحفظ لها هذا الجميل. ولقد كان ذلك في عداد الأسباب التي دعت ألمانيا إلى الوقوف بجانب النمسا بعد حادثة مقتل ولي عهدها ومهاجمة السرب، فكانت الشرارة الأولى لحرب الأمم.

ثاكل أسيف

شعور ثاكل

ثاكل حمل إليه بريد وطنه يوم كسوف الشمس الأخير نعي شقيق أحب إليه من روحه وأعز من حياته، فكان ذلك اليوم أشأم أوقات عمره وأشدها نكداً وبؤساً. يسطّر لك أيها القارىء الحبيب شعور أيام و ليالي لو قيست الأيام بالشعور لكانت قروناً طوالاً، ويقص عليك من صور خياله شذرات هي ذوب دماغ جرى على الطروس مداداً.

آتدري يا عزيزي المُطالع ما معنى ذلك؟ معناه أنك تجلس نهارك وليلك وأنت تشعر أن الحياة تلك آخذة في الاحتراق شيئاً فشيئاً حتى يمسي دماغك أتوناً من نار. يفيض إليه قلبك دماً ويوقده متى بلغه تحول غازات تزيده احتراقاً واشتعالاً، معناه أنه يحمل في قواك العاقلة ثوران بركان يزيد ثوراناً متى كانت مآقيك جافة لأن ليس هناك من عبرات تطفىء اللهيب، فتبدو سائر قواك وعواطفك في أشد مظاهرها وأعظم قوتها وتنتبه المقلة إلى حد عجيب فتبصر الفقيد يلفظ النفس الأخير وتخرق حُجب الخفاء حتى يتبدى دماغه رقعة رسمت عليها أفكاره الأخيرة كأن الرسم بمداد من نار.

تخف قوة الشعور بمرور الزمان، فتبقى الساعات والأيام وأنت تظنها دقيقة أو بعض دقيقة. وإذا أنت حاولت ولوج أسرار الحياة والموت لحظة من الزمن عدت بعدها إلى رشدك وأنت تحسبها دهراً طويلاً. وبعد أن تفكر ملياً تعود إلى نفسك وأنت لم تدرك شيئاً لأنك حاولت إدراك كل شيء.

تنظر إلى ما أمامك من الأشباح ولكنك لا تبصرها لأنك لا تبصر بعينك بل بباصرة دماغك التي أصبحت الآن في ذهول عن الشعور بارتسام المرئيات عليها فهي أشبه بصفيحة من الجلاتين الحساس لم يبق للنور عليها من تأثير لأنها عرضت قبلاً في باطن الدماغ إلى نور العقل والمخيلة فرسم عليها شبحاً ثابتاً.

ولكنك إذا أكرهت نفسك لحظة على الخروج من هذه الغيبوبة وأدرت لحاظك في ما حولك، رأيت ذاتك كأنك نقلت إلى سيار جديد من عوالم الأكوان فتبدو لك الأشباح

مكفهرة والهواء أربد والناس خيالات متحركة لا جسوماً وجواً غريباً يحيط بك يتعذر عليك وصفه كأن ملاك الموت باسط ظل جناحيه فوق سائر البسيطة أو كأنك نقلت إلى مدينة الأموات تدخلها الناس أفواجاً دون أن تفقه لحركتهم معنى بل تخالهم أشباحاً تتحرك إضطراراً لا اختياراً.

تسمع الأصوات لكن لها رنة غريبة ووقع شديد تتبرم له فتقع على أذنك كضوضاء جماعات أو جلبة أقوام يتكلمون دفعة واحدة، فلا تميز من الأصوات كلاماً يفهم، وإذا تم لك ذلك لا تفقه له معنى فيزيدك هذا تبرماً لأنه يقلقك ويقطع سلسلة أفكارك ويذكرك أنك لا تزال على هذه الأرض مع أنك قد تكون حينئذ سابحاً في أبحر الخيال وناسياً أنك في ذرة من الوجود تسمى الكرة الأرضية.

تفقه لأول مرة أنه يوجد شيء رهيب في العالم هو أرهب كل شيء يسمى الموت. شيء لم ترهُ ولم تسمع به قبلاً ولم تعرف عنه أمراً لأن جل ما علمته حتى الآن إنما كان شعوراً سطحياً، أي صورة رسمت على سطح دماغك ولكنها لم تخرق تلافيفه ولم تجر في دم تغذيته، فلم يكن لك قضية حيوية تضطرك إلى تحليلها وإعمال الفكرة فيها.

أما الآن، فإنك تجد نفسك وجهاً لوجه إزاء هذه الأسئلة العويصة التي أشغلت أفكار الحكيم الأول، ثم تكررت بعد ذلك بين أفراد البشر ملايين الملايين من المرات، وهي: من أين أتيت؟ ما هي غاية وجودي؟ إلى أين أنا ذاهب؟ فتدرك إذاً أن هذه الأسئلة الفلسفية لم تبق لك أموراً نظرية بل أصبحت قضايا محلية يترتب عليك حلها لأن داخلك الآن صوتاً حياً يناديك على الدوام أين قيدك تفقه هل لا يزال بجانبك أم افترقتما إلى الأبد ولم يبق لكما من أمل في اللقاء؟

إذاً لأول مرة أيضاً أنه حصل في حياتك فراغ فجائي هائل لم تكن تحلم به قبلاً، لأن أحلام حياتك السابقة كانت تمثل لك الحياة جنة خالدة ملأى بالأشجار الباسقة والنباتات المتعرشة بالزهور الجميلة تجري بينها الأنهار وتغرد على أغصانها أطيار الأشجار، ويصور لك الأمل خلوداً كاذباً وسعادة باطلة ونعيماً فانياً. أما الآن، فإنك تصحو من أحلام الأوهام إلى يقظة الحقائق فترى أركان سعادتك قد تهدمت وبنايات خيالك قد تقوضت

وقصور آمالك قد تساقطت، وأن ريح السموم قد ثارت فهدمت قصرك المنيف واقتلعت أشجار جنتك وأذبلت زهورها وجفت أنهارها وقتلت أطيارها وكستها رمالاً قاحلة، فتقف في صحراء الحياة وحيداً شريداً تحت أقدامك الرمضاء وفوق رأسك أشعة الشمس المحرقة كأنها نار من السماء.

تتلفت يميناً وشمالاً فلا ترى حياً يعزيك أو قطرة ماء ترويك، فترفع نظرك نحو السماء ولكن يخيل لك أن السماء أيضاً قد حجبت وجهها عنك، فإن ريح السموم قد ملأت برمالها نواحي الفضاء كما كست بها جوانب الغبراء فتقف في هذا القفر الهائل الرهيب وأنت لا يقع على أذنك سوى دمدمة الزوبعة وهزيم ثورانها فتقول في نفسك إذا كان يتعذر عليّ الحياة فهل يتعذر عليّ الموت أيضاً؟ كلا، فإن ضغطاً خفيفاً على زنبرك مسدس أو بضع قطرات من المورفين أو لمس السلك الكهربائي بقضيب حديد من على الأرض يكفي لإطلاقي من هذا الجحيم الأرضي. إذاً رأيت لماذا ينتحر إخوانك؟ ينتحرون لأنهم يقفون في هذه الصحراء المحرقة، ولكنك بعد التأمل لا تفعل شيئاً من ذلك لأن الانتحار دليل لجبن وأنت لا تود أن تكون جباناً.

وبينما أنت في هذه الصحراء تخال نفسك وحيداً، إذا بيد تلمس يدك فتتنبه منذعراً، وإذا بملاك قد هبط عليك من السماء كله طهارة وجمال وابتسام وتعزية، فإذا هو طفلك الصغير قد جاء ليقبلك قبل ذهابه إلى النوم كما كان يقبلك قبلاً. يدنو منك وهو باسم الثغر يتألق اللطف في وجهه تألق النور، فلا يفوه بكلمة ولكنه يطوق عنقك بذراعيه ويضع فمه على شفتيك ويقبلك أقدس قبلة في العالم، فتتذكر حينئذ أن حياتك ليست الآن لك بل للملاك الذي هو أمامك.

يمضي النهار بجلبته وضوضائه وبهرجته وتجارته ومشاغل أهله وزينتهم وجهلهم وكبريائهم ولهوهم وجرائمهم، ويسدل الليل على البشر حجاباً من الظلمات فتنقطع في أواخره أصوات المارة ويسود على الطبيعة سكون رهيب ويمسي مواطنوك في حال النوم الذي هو شقيق الموت، فتجلس أمام نافذة غرفتك وتناجي روح فقيدك، ولكن ليس لقلبك من صدى سوى حفيف الأشجار وخطرات النسيم.

تحاول أن تتمسك بأذيال شئ من الطبيعة يكون لك به تعزية كما يحاول الغريق التمسك بأذيال الهواء، ولكنك تجد نفسك وحيداً في بحر الهموم وأمواج الأكدار تلتمس معزياً فلا تجد أحداً.

ففي مثل هذه الحال من القنوط واليأس تترك الأرض وأهلها وتتطلع إلى العلاء وأنت لا تدري لماذا أنت فاعل ذلك، فترى القبة الزرقاء مرصوفة دراري وكواكب كأنها صفيحة من زبرجد مرصعاً بالألماس خلاله ترى الكون الحقيقي بادياً أمامك بعظمته الباذخة وجماله الرائع ورهبه العظيم وسكوته البليغ: فمن هذا البعد الذي يقصر العقل البشري عن إدراك كنهه والذي يقتضي لنوره ألوف بل ملايين من السنين لكي يبلغ أرضنا مع أنه يسير بسرعة مائة وتسعين ألف ميل في الثانية – من هذا البعد الشاسع في أرض من أرضنا – تسمع في مثل غمضة الجفن صدى خفياً لنبضات قلبك الحزين وصوتاً سرياً يردد مناجاتك وسط ذلك السكون الرهيب، وترى الغيوم باسمة في وجهك ابتساماً يمازجه شئ من الرثاء لحالك، ونورها المتقطع أشبه بكلمات رمزية كالإشارات التلغرافية تقطع ذلك الفضاء العجيب وتجري على أسلاك الأثير لتحمل إليك رسالة كلها حكمة وعزاء.

إنبثق الفجر، فصحوت من هذه الأفكار وأنا أظنها أضغاث أحلام وصور خيال وأن فقيدي لا يزال حياً يرزق، وعما قليل ألتقي به وأضمه إلى صدري فأسمع صوته العذب وأرى طلعته وعليها ابتسامة اللطف وأنظر إليه وهو ممتلىء قوة ونشاطاً يكلمني فيقطر لسانه شهداً ويحادثني فتجري البلاغة على شفتيه كالماء الزلال. ولكني أعود فأبصر أمامي كتاباً محاطاً بالسواد فأقرأه للمرة العشرين وفيه: «إن شقيقك وهو على فراش الموت يقبلك القبلة الأخيرة ويرجوك باسم الحنو الأخوي المقدس أن لا تستسلم بعده للأسى».

أجل فقد قضي علينا نحن أيضاً يا شقيقي الحبيب أن نفترق الفراق الأخير الذي لا أمل بعده باللقاء على وجه هذه البسيطة بعد أن ربينا ونشأنا سوية وقضينا السنين القصار من زهرة العمر معك. كل هذا قد مضى الآن ومضت مثله أوقات النعيم والسعادة والمسرات التي اختلسناها من مشاغل الحياة، وهدمت قصور الآمال والمطامح التي بنيناها. ومضت كذلك الأكدار والأحزان والأوجاع والهموم التي تشاطرناها، وحل الخطب الجلل الذي

كنت أخشاه ووطئت بقدميك عالم الأبدية ذاهباً في طريق كل حي سبقك وكل حي يلحقك.

فإلى روحك الطاهرة يا شقيقي سليم، أنت الذي كانت محبتك لي تفوق الوصف، أبعث مع كل نبضة من قلبي أو خطرة من خاطري سلاماً تنفحه آكام الأزهار وتحمله نسمات الأسحار فيخترق الفضاء مع القوى الأرضية فإذا بلغك إرتاحت نفسك لذكراي، وإلا فعما قليل ترتاح إلى لقياي.

القاهرة في 11 سبتمبر سنة 1905

الثاكل الأسيف

خليل سعاده

ذكرى أمي الحنونة
(دموع وابتسامات)

حمل بريد الوطن على حين فجأة إلى صاحب «المجلة» نعي والدته الحنونة المرحومة حنة سعاده توفاها الله عن ثمانين سنة من العمر في الشوير من أعمال لبنان.

إشتهرت الفقيدة بين أهلها ومعارفها بالفضائل وعمل المعروف وطهارة القلب إلى حدّ حسبت عنده البشر ملائكة والعالم فردوساً لا يشوبه شرّ أو جريمة والحياة سلسلة من أعمال البرّ والتقوى.

كانت إحدى حلقات ذلك الجيل القديم في ذلك الجبل الأشم الذي لم تتطرق إليه الأدران إلا بعد أن تطرق إليه التمدن العصري.

ذلك الجيل القديم من السيدات الفاضلات اللواتي كانت قلوبهن طاهرات كالثلج الناصع البياض وأخلاقهن باهرات يتلألأ النبل فيها تلألؤ الكواكب المتألقات ـ صادقات العزائم كأنهن قددن من فولاذ، رقيقات الشعور كأنهن جبلة من نور ترتفع رؤوسهن بالفضائل إرتفاع الأرز الناطح السحاب وتطرق إلى الأرض حياء إطراق الورود أثقلتها قطرات الندى وخدش مرّ النسيم أكمامها ـ ذلك الجيل القديم من النساء اللواتي خلقن لإسعاد البشر والقيام بواجباتهن المقدسة لعائلتهن لا تلهيهن عنها بهرجة ولا تجذب أبصارهن زينة ولا يأتيهن الباطل من ناحية.

في أحضان هذه الأم الحنونة أبصرنا للمرة الأولى نور الحياة، ومن إبتساماتها اللطيفة أشرقت علينا أشعة الآمال، وفي قبلاتها الطاهرة ذقنا سعادة الوجود.

إذا كان في أخلاقنا شيء شريف فهو من ذلك الدم النقي الذي جرى منها في عروقنا، وإذا كان في مطامحنا مطمح نبيل فهو من ذلك الروح الطاهر الذي شرّف عواطفنا، وإذا كان عندنا مسحة من الغيرية وتضحية الذات على مذبح الوطن فهو من تلك

النفس النبيلة التي حييت لخير غيرها إلى حدّ نسيت عنده أن لها وجوداً مستقلاً.

عند قدمي هذه الأم الحنونة وسط جمال الطبيعة والأزهار العطرية وتحت ظل الأشجار الباسقة وعلى جوانب مجاري المياه المتفجرة تعلمنا الدروس الأولى للحياة ـ تحت سماء لبنان الصافية الزرقاء وبين مروجه ورياضه الخضراء وفي أوديته وهضابه وبين أحراجه وكرومه تعلمنا من هذه الأم الحنونة البسيطة ما يعجز أعظم فلاسفة العالم وأبلغ الكتبة عن إلقائه علينا.

ما أبلغ الأم الحنونة في صمتها وما أفصحها في سكوتها ـ في إبتسامة من إبتساماتها الساحرة ما يغني عن مجلدات الحكماء، وفي قبلة من قبلاتها الطاهرة تتمثل جميع القوى الطبيعية والكهربائية.

ما أغرب سحر الأم ـ إبتسامتها كوميض البرق ـ حديثها كموسيقى السماء ـ نظراتها كأشعة الشمس ـ تأوهاتها كنسمات السحر ـ دموعها كالندى المتساقط على أكمام الأزهار.

لسنا في حاجة إلى أمهات يعلمننا الفلسفة الطبيعية والعلوم الرياضية والفنون العصرية فهذه نتعلمها من أساتذتنا وفلاسفتنا في المدارس، ولكننا في حاجة إلى أمهات يعلمننا ما لا تقدر جميع فلاسفة الأرض على تعليمنا إياه ـ نحن في حاجة إلى أمهات ينقل دمهن إلى دمنا شرف الأخلاق بالوراثة ويعلمننا معنى الوجود بالتضحية، وغاية الحياة بالعمل.

علمتني أمي طفلاً ما عجزت عن تعليمي إياه أعاظم الأساتذة شاباً.

ومن غرائب الأضداد أن نذكر الوفاة بالحياة، وأن تعيد ظلمة اللحد ووحشة القبر إلى ذاكرة المرء نور الطبيعة وفجر الوجود.

ما أغرب العقل البشري وما أشدّ مخيلته عصياناً على الإرادة ـ في ساعة أحزاني المبرحة وظلمة وجودي القاتمة وعبوسة دهري الرهيبة ترتسم على مخيلتي بالرغم عن إرادتي أيام طفولتي الجميلة وساعات صباي المضيئة وأويقات سعادتي تحت جناح تلك الأم التي كانت اللطف مجسماً والرقة متكلمة والحنو عاطفاً والرأفة مشفقة.

لقد رفعت يد الموت عن ذاكرتي تلك البراقع التي تلبدت عليها طبقات بعضها فوق

بعض، ورسمت على صفحاتها تلك الصور الجميلة البديعة مارّة على خيالي مرور الصور المتحركة على ألواح مسارح التمثيل.

مرّت عليها رسوم تلك الأويقات يوم كنت أسرح في مروج وطني مسرح الظبي وأطفر على روابيه طفر الأيل وأجري في وديانه جريان النسيم أجمع أزهاره الفائحة ندّاً وأقطف رياحينه التي ملأت الهضاب والأوداء عبيراً وأضمها باقة أقدمها إلى والدتي وهي جالسة على صخرة تراقبني بثغر باسم ووجه يطفح سروراً فتضمني إلى صدرها وتقبلني مراراً. ثم أجلس بجانبها ويمينها حول عنقي ونحن ناظران إلى صنين ذلك الشيخ الناطح السحاب المعمم بالضباب، والهضاب حولنا مكسوة بالأنجم والنباتات، فوق رؤوسنا الأشجار الباسقة وتحت أقدامنا الأقاحي المتوهجة وعن جوانبنا الينابيع الجارية وخريرها أشبه بموسيقى سماوية والأزهار تملأ الجو أريجاً والنسيم العليل يهب علينا ويلاعب شعورنا والسماء صافية كقبة من زبرجد والندى متجمع على أكمام الورود والأزهار كقطرات من الألماس والأطيار الصداحة تملأ الفضاء بأغاريدها على الأفنان والنباتات المتعرشة ملتفة على الأغصان، وأنا أتأمل هذه المناظر البديعة التي تمثلت لديّ كأنها الفردوس وأمي لاهية عن صنين وضبابه وهضابه ووهاده وعن الأنجم والأشجار والأزهار والأطيار والينابيع وخريرها والعصافير وتغريدها والنسيم وهبوبه والجو وزرقته والأغصان والنباتات المتعرشة ـ منشغلة عن هذا الفردوس البديع بالنظر إلى وجهي كأني في عينها الطبيعة بأسرها وكأنه لا يوجد في الكون إلاّي.

ما أعظم محبة الأم! وما أعجب محبة الأم! وما أقوى محبة الأم! وما أغمض محبة الأم! إنها لعظيمة كالكون ولعجيبة كالطبيعة ولقوية كالآلهة ولغامضة كالكهربائية ـ يمكنك أن تسبر أعماق الأوقيانوس وتقيس أبعاد النجوم والكواكب وتكشف أسرار الكون ولكنك لا تقدر أن تسبر محبة الأم أو تقيس مداها أو تكشف أسرارها ـ هي شعلة سماوية جمعتها الإلاهة منرفا من أرواح الإلاهات وأودعتها قلب أمنا حواء ولا تزال حتى الساعة تضطرم في فؤاد كل أم فاضلة ـ هي نار المجوس التي لا تنطفئ ـ هي مظهر من مظاهر الأثير أصل المادة ومنشأ الكون وعلّة الجاذبية، وهي كالأثير المتجمعة فيه قوى الطبيعة كلها لا ترى ولا

تلمس ولا تشعر بها الحواس ولكنها أقوى من كل شيء وأعظم من كل شيء وأجمل من كل شيء ـ هي أقوى من القوة وأعظم من العظمة وأجمل من الجمال، هي الكل في الكل ـ جرّد العالم من محبة الأم تره صامتاً كالموت جافاً كالصحراء مظلماً كالليل.

أجمل حكاية خرافية عثرنا عليها هي الحكاية التي نظمها شعراً منذ بضع سنين شاعر هندي شهير ونالت جائزة نوبل، وملخصها أن رجلاً في عنقه طوق من حديد ذهب في نواحي الأرض كل مذهب ينشد حجر الفلاسفة الذي يحوّل المعادن ذهباً. فكان كلما عثر على حجر أو حصاة حكّ بها الطوق الحديدي ليرى ما إذا كانت تحوّله إلى ذهب، فقضى وقته عبثاً دون أن ينال بغيته ويعثر على ضالته. وفيما كان ذات يوم سائراً يفتّش عن حجر الفلاسفة كالعادة رآه صبي، ولما وقع بصره على الطوق الذي كان حول عنق الشيخ إبتدره بالسؤال قائلاً: «أين وجدت هذا الطوق الذهبي؟» فعجب الشيخ من سؤاله وعاد فنظر إلى طوقه فإذا هو بالحقيقة ذهب! وجد هذا الشيخ أثناء طوافه في الأرض حجر الفلاسفة الذي كان ينشدّه وحكّ به طوقه فحوّله ذهباً وهو لا يدري فرماه كغيره من الحصى حاسباً إياه حجراً عادياً. ومغزى الشاعر في هذه القصة الخرافية التي هي على ما نظن أجمل القصص وأبلغها حكمة أن كل إنسان يعثر في حياته يوماً ما على السعادة التي ينشدها دون أن يدري فيتركها جارياً وراء السعادة وهو لا يفقه أن ما طلبه قد وجده ولم ينتبه إليه.

ونحن نظن أن سعادة الإنسان هي على الغالب في أطوار حياته الأولى وأنها تفلت من يديه يوم يحسب أنه صار رجلاً ويوم يشرع في التفتيش على السعادة.

أعظم سعادة للإنسان هي تلك الأيام الجميلة أيام الطفولة والصبا أيام تحضنه أمّه وتضمه إلى قلبها وتقبّل ثغره القبلة تلو القبلة وتبتسم له تلك الإبتسامات الجميلة التي هي أشعة ترسلها السماء إلى الأرض لتخفّف شقاء الجنس البشري وترفعه لحظة إلى مقام الآلهة.

محبة الأم لولدها ضرب من عبادة الأصنام يسمو على عبادة الآلهة ـ عبادة الأم لولدها تفوق بمراحل عبادتها إلهاً ـ أيّ أم تركع أمام بارئ الكائنات ليلاً ونهاراً كما تركع أمام سرير ولدها تقبله باسمة مستيقظاً وتعبده صامتةً نائماً؟ أي أم تجثو في المعابد كما تجثو أمام سرير ولدها وهو مريض ترطّب وجنتيه بدموعها كما يرطب الندى ورود الجنائن؟ أي أم تنسى

نفسها أمام خالقها ساعات متتابعات بلا غذاء ولا رقاد ولا راحة كما تنساها أمام ولدها المنطرح على فراش المرض؟ أي أم تشعر بسعادة الوجود بعد أن تكب نفسها أمام خالقها كما تشعر ساعة يفتح ولدها الذي كان مشرفاً على الموت عينيه عائداً من ظلال المنية ويبتسم في وجهها إبتسامته الأولى بعد مرضه؟ إنها لتبيع جميع الآلهة بهذه الإبتسامة الساحرة!

كما عبدتنا أمهاتنا أطفالاً كذلك نعبدهنّ رجالاً ـ كما نصبننا أصناماً وأوثاناً في أسرتنا ومهودنا كذلك ننصبهنّ متى بلغنا أشدّنا إلآهات تعلو علواً كبيراً عن جميع الإلاهات.

أسجد أمام طيفك يا أمي الحنونة كما يسجد الوثنيون أمام تمثال منرفا إلاهة الحكمة، وأركع أمام ذكراك كما كان يركع العباد أمام إبنة جوبيتر.

أنت هي إلاهتي التي أوجدتني على وجه البسيطة ـ ماذا يهمني إذا كان يوجد في العالم أمهات كثيرات غيرك وإلاهات أخرى كثيرات سواك؟ تهمني أمي أنا وإلاهتي أنا! أنت هي الإلاهة التي غذتني بدمها جنيناً وركعت أمام سريري طفلاً وربتني صبياً وسهرت عليّ شاباً ـ وجهك اللطيف المكفّن الآن بالجمال كان أول وجه وقع عليه بصري يوم فتحت عينيّ لأرى نور الطبيعة وجمال الكون ـ إبتسامتك الحلوة كانت أول شعاع أشرق عليّ من السماء وأول سعادة ذقتها في عالم الوجود ـ أبيع ما بقي لي من الحياة بيوم واحد أعود به طفلاً وأضع يديّ الصغيرتين حول عنقك وأعانقك طويلاً وتضمينني إلى قلبك الذي لم ينبض إلاّ بالفضيلة والنبل والحنان.

أرقدي يا أمي في ضريحك بسلام وتوسدي أحشاء الأرض أمنا أجمعين، وإذا كان لم يتح لي أن أغمض عينيك بيدي وأقبل يديك في ساعاتك الأخيرة وأنت بين ذراعي فسوف أجثو يوماً ما على لحدك وأناجي روحك الطاهرة كما تجثو العباد في الهياكل وتناجي أرواح الآلهة.

أجل: من العالم الجديد الذي لم يكن يخطر في بالك يا أمّاه أن أراه ومن وراء الأوقيانس الذي لم تحلمي أن أقطعه، تجتاز نفسي عالمين وتطير فوق محيطين وترف على تلك البلدة الجميلة مسقط رأسي حيث الجبال الشامخات التي تناطح السماء والأودية الغائرات

المكسوّة بالأنبتة الخضراء والأشجار الباسقات التي تلاعبها نسمات الصباح والأزهار المتأرجحات التي تملأ الجو عبيراً ـ أجل تجتاز نفسي عالمين وتطير فوق محيطين وتجثو أمام ضريحك وتقبّل ثغرك كما كنت أقبله طفلاً وتلثم يديك كما كنت ألثمهما شاباً وكهلاً.

أرقدي يا والدتي بسلام في أحشاء الأرض أمنا أجمعين، فلسوف تنقضي حياتها هي أيضاً بل حياة الكون بأسره وتعود وإياه إلى الأثير الذي صنعها منه بارئ الكائنات.

إلى أن ينبثق الفجر ويلوح الصباح ويدور الدهر وتمتزج الأرواح!

مصادر الكتاب

أعلام التنوير

– نم بسلام

«المجلة»، بونس أيرس، العدد الأول، في 15 حزيران سنة 1915.

– ذكرى الدكتور شميّل

«المجلة»، بونس أيرس، الجزء السادس عشر، في 1 شباط سنة 1917.

– وفاة الأستاذ يافث

«المجلة»، سان باولو، السنة التاسعة، الجزء العاشر، في تشرين ثاني سنة 1923.

– تأبين المطران أثناسيوس

«المجلة»، سان باولو، السنة التاسعة، الجزء الحادي عشر، في كانون أول سنة 1923

– ذكرى وردة اليازجي

«المجلة»، سان باولو، السنة العاشرة، الجزء الأول، في شباط سنة 1924.

– الأستاذ ضومط

«الرابطة»، سان باولو، السنة الثانية، العدد 15، في 15 شباط 1930.

– خطب أليم

«الرابطة»، سان باولو، السنة الثانية، العدد 13، في كانون ثاني سنة 1930.

– وفاة أديب كبير

«المجلة»، سان باولو، السنة الثانية، العدد 31، في 1 كانون أول سنة 1930

– ذكرى صديق

«الرابطة»، سان باولو، السنة الثانية، العدد 25، في 15 أيلول سنة 1930

– زهرة على ضريح جبران

«الرابطة»، سان باولو، السنة الثالثة، العدد 49، في 9 أيار سنة 1931.

– زهرة على ضريح بركات

«الرابطة»، سان باولو، العدد 211، في 16 كانون الأول سنة 1933.

أبطال العبودية

– داود عمون والجوالي اللبنانية

«الجريدة»، سان باولو، السنة الأولى، العدد 2، في 12 آب سنة 1920.

– من زمان هذا القمر ما بان

«الجريدة»، سان باولو، العدد 28، في 14 أيار 1921.

– الضمائر المطاطة في لبنان

«الجريدة»، سان باولو، العدد 11، في 28 تشرين الأول سنة 1920.

– حبيب السعد وداود عمون 1

«الجريدة»، سان باولو، العدد 11، في 28 تشرين الأول سنة 1920.

– حبيب السعد وداود عمون 2

«الجريدة»، سان باولو، العدد 13 في 18 تشرين الثاني سنة 1920.

– حبيب السعد وداود عمون 3

«الجريدة»، سان باولو في 25 تشرين الثاني، سنة 1920.

– الراية السورية

«الجريدة»، سان باولو، العدد 14 في 25 تشرين الثاني سنة 1920.

– توما ويهوذا الأسخريوطي

«الجريدة»، سان باولو، العدد 15، في 2 كانون الأول سنة 1920.

– حاكمية سوريا وحاكمها الجديد

«الجريدة»، سان باولو، العدد 16، في 16 كانون الأول سنة 1920.

– دولة دمشق

«الجريدة»، سان باولو، العدد 21، في 17 شباط 1921.

– حاكم «مقاطعة» دمشق 1

«الجريدة»، سان باولو، العدد 22 في 10 آذار سنة 1921.

– حاكم «مقاطعة» دمشق 2

«الجريدة»، سان باولو، العدد 25، في 23 نيسان سنة 1921.

– سكرتير حاكم لبنان

«الجريدة»، سان باولو، العدد 41، في 13 آب 1921.

– أوغست أديب

«الجريدة»، سان باولو، العدد 43، في 27 آب 1921.

– حقي العظم يقص حادث القنيطرة

«الجريدة»، سان باولو، العدد 45، في 17 أيلول 1921.

– غانم وفيصل وسوريا

«الجريدة»، سان باولو، العدد 48، في 8 تشرين الأول 1921.

– شكري غانم والقضية الوطنية ومجلس لبنان

«المجلة»، سان باولو، السنة العاشرة، الجزء الخامس، في تموز سنة 1924.

أعلام وشخصيات مصرية

– هبة أحمد زكي باشا للأمة المصرية

«الأهرام»، القاهرة، في 16 آب سنة 1913.

– الحفلة التأبينية للمنفلوطي

«المجلة»، سان باولو، السنة العاشرة، الجزء السابع، في آب سنة 1924.

– أحمد باشا تيمور

«الرابطة»، سان باولو، السنة الثانية، العدد 21، في 30 حزيران 1930.

– ذكرى ويصا واصف

«الرابطة»، سان باولو، العدد 53، في 6 حزيران سنة 1931.

– ذكرى الاحتلال البريطاني للقطر المصري

– اسماعيل باشا

«الرابطة»، سان باولو، السنة الرابعة، العدد 147، في 29 تشرين أول سنة 1932

– عرابي باشا

«الرابطة»، سان باولو، السنة الرابعة، العدد 148، في 5 تشرين ثاني سنة 1932.

– مصطفى كامل

«الرابطة»، سان باولو، السنة الرابعة، العدد 149، في 12 تشرين ثاني سنة 1932.

أعلام وشخصيات شرقية

– مصرع طلعت باشا

«الجريدة»، سان باولو، السنة الأولى ، العدد 23، في 9 نيسان سنة 1921.

– جثمان محمد علي في المسجد الأقصى

«الرابطة»، سان باولو، السنة الثالثة، العدد 36، في 7 شباط سنة 1931.

– مدحت باشا واستقلال سورية

«فتى لبنان» سان باولو، في 15 نيسان 1929.

أعلام وشخصيات غربية

– الإمبراطورة أوجني

«الجريدة»، سان باولو، السنة الأولى، العدد 2، في 12 آب سنة 1920.

– وفاة الجنرال ليمان

«الجريدة»، سان باولو، العدد 10، في 21 تشرين أول سنة 1920.

– وفاة بثمان هولويغ

«الجريدة»، سان باولو، العدد 18، في 13 كانون الثاني سنة 1921.

– مذهب داروين والاعتراضات عليه

«الجريدة»، سان باولو، السنة الثانية، العدد 56، في 30 كانون أول سنة 1921.

– العلم الصحيح والدين القويم

«المجلة»، سان باولو، السنة العاشرة، الجزء الثاني عشر، كانون الثاني سنة 1925.

– رد على مقالة برايان

«المجلة»، سان باولو، السنة العاشرة، الجزء التاسع، تشرين الأول سنة 1923.

– البراهين على مذهب التطور

«المجلة»، سان باولو، السنة التاسعة، الجزء العاشر، تشرين الثاني سنة 1923.

– موصليني رئيس الوزارة الإيطالية

«الجريدة»، سان باولو، العدد 101، في 15 كانون أول سنة 1922.

– العيد المئوي لمولد باستور

«الجريدة»، سان باولو، العدد 111، في 29 كانون أول سنة 1922.

– وفاة الملك قسطنطين

«الجريدة»، سان باولو، العدد 125، في 16 كانون ثاني سنة 1923.

– مرور خمسين سنة على وفاة كارل ماركس

«الرابطة»، سان باولو، السنة الخامسة، العدد 171، في 15 نيسان سنة 1933.

– عمانوئيل وموسوليني

«الرابطة»، سان باولو، السنة الخامسة، العدد 173، في 29 نيسان سنة 1933.

– لنين تجاه التاريخ

«المجلة»، سان باولو، السنة العاشرة، الجزء الثاني، في آذار سنة 1924.

– تأثير ولسن في مستقبل العالم

«المجلة»، سان باولو، السنة العاشرة، الجزء الثاني عشر، في كانون ثاني سنة 1924.

– مكدونالد رئيس وزارة بريطانيا

«المجلة»، سان باولو، السنة العاشرة، الجزء الأول، في شباط سنة 1924.

– لودندورف

«المجلة»، سان باولو، السنة العاشرة، الجزء الحادي عشر، في كانون أول سنة 1924.

– أسرار مقتل الأرشيدوق فردينند

«المجلة»، سان باولو، السنة الحادية عشر، الجزء الثاني، في آذار سنة 1925.

– هتلر على رئاسة الوزارة الألمانية

«الرابطة»، سان باولو، السنة الخامسة، العدد 161، في 4 شباط سنة 1933.

– الفيلسوف الخطير العلاّمة داروين الكبير

«الرابطة»، سان باولو، السنة السادسة، العدد 225، في 24 آذار سنة 1934.

– مرور عشر سنين على وفاة لنين

«الرابطة»، سان باولو، السنة الخامسة، العدد 219، في 10 شباط سنة 1934.

– مأتم ألبرت ملك البلجيك

«الرابطة»، سان باولو، السنة الخامسة، العدد 223، في 10 آذار سنة 1934.

– وفاة الجنرال مرشان وحادثة فاشودة

«الرابطة»، سان باولو، السنة السادسة، العدد 227، في 14 نيسان سنة 1934.

ثاكل أسيف

– شعور ثاكل

«الأهرام»، القاهرة، في 11 أيلول سنة 1905.

– ذكرى أمي الحنونة (دموع وابتسامات)

«المجلة»، بونس أيرس، السنة الأولى، العدد 3، في 15 تموز سنة 1915.

فهرس الأسماء

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ض

ط

ع

ل

م

ن

هـ

و

ي